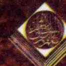


د. منذر القباني

قرين

الجزء الأخير من ثلاثية «فرسان وكهنة»

رواية



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



قرين

الجزء الأخير من ثلاثية
«فرسان وكهنة»

رواية

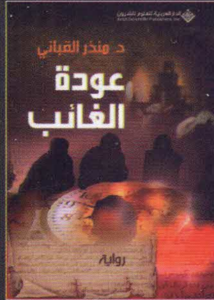
د. منذر القباني

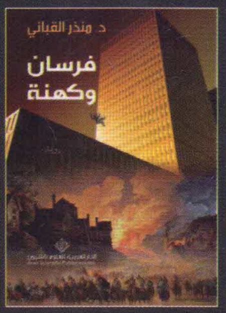
• روائي سعودي

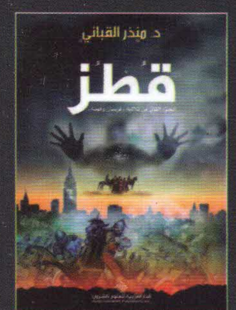
لقد تداخلت عليّ الأزمنة: زمني وزمن مراد الآخر.... قريني الذي أصبح عدوي وخدعني أكثر من مرة! لقد كنت كمن يسير في عربة يجرها حصان بلا قائد، فتأخذه إلى حيث لا يعلم؛ ولكن دوام الحال من المحال، ولقد أدركت بعد أن تجسدتُ ما لم أدركه حينها. العلم! المعرفة! القدرة! الاستطاعة! أصبحت عبر السنين التي مضت ما رأيتني عليه الآن؛ ما تحسبها أنت وغيرك معجزات، هي بالنسبة إلي مجرد ممكنات! أستطيع تحويل الفحم إلى ألماس! السير على الماء! اختراق الحصون والجدران! معرفة خوارزمية سير الأحداث عبر فروعها من مسارات الحياة! المستحيل أصبح كلمة لا مكان لها في قاموسي! ولكن.... ولكن على الرغم من كل هذا، مازلت أجهل كيف تجسدت هنا، وتركت جسدي هناك في الزمن الذي أتيت منه؟! لقد خدعني قريني، عندما جعلني أفك الارتباط بجسدي القديم. أغلب الظن أنه لم يتوقع بأني سأتجسد هنا، بل ربما ظن أني سأتلاشى ويبقى هو؛ ولكني لم أتلاش، بل تجسدت دون أن أعرف كيف؟! لا سبيل للمعرفة إلا بانفصال النفس عن الجسد مجدداً حتى أذهب إلى عالمه فأرى ما حدث له ولي، ففي المعرفة الخلاص! وهنا يا صديقي يأتي دورك أنت.... أنت الوحيد القادر الآن على مساعدتي، أنت وعودك هذا، إلى أن أجد طريقة أتمكن بها من الانفصال دون الحاجة إلى النوم.

صدر للكاتب أيضاً ضمن
مشروعه الروائي المتتابع












الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
جائزة النشر والتقنيات الثقافية
2015


ISBN 978-614-01-1833-1
9 786140 118331



الجزء الأخير من ثلاثية «فرسان وكهنة»

بريد المؤلف الإلكتروني:
alkabbani@mac.com

حساب المؤلف في تويتر:
@montherkabbani



الجزء الأخير من ثلاثية «فرسان وكهنة»

رواية

د. منذر القباني





الطبعة الأولى: شباط/فبراير 2016 م - 1437 هـ

ردمك 978-614-01-1833-1



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

الجزء الأخير

كل معرفة تستوجب العلم،

وليس كل علم قد يقود إلى المعرفة.....

تَمْهِيد

شيء ما لم يكن على ما يرام، هكذا شعر وليام برمن وهو يراها ترتدي ملابسها على عجل وكأنها ملّت من البقاء معه. لو لم يكن هذا هو الجناح نفسه في الفندق نفسه الذي اعتادا اللقاء فيه كلما جاءت إلى بوسطن، لظن أن المشكلة ربما تكمن في المكان.... "ولكن لا... حتماً هناك أمر آخر!".... فلعلها ملّت منه هو، كما ملّت من كل الذين من قبله، أخذ يفكر، ثم باشرها بالسؤال:

- "لِمَ كل هذه العجلة؟! لم أشبع منك بعد."
- "ولن تشبع أبداً." أجابته ضاحكة دون أن تتوقف عن مواصلة ارتداء ملابسها المبعثرة في جميع أرجاء الحجرة.

لم يشاطرها وليام الضحك، بل اكتفى فقط بإمعان النظر إليها، وكأنه أراد أن يملأ بصره برؤيتها قبل أن يلتقيها مرة أخرى بعد مدة من الزمن هي فقط من تعلم مدتها..... لكم تمنى أن تبقى معه، وتترك زوجها. كان على أتم الاستعداد أن ينفصل عن زوجته من أجلها، لو كان هذا ما أرادته.... ولكن الأمر أعقد من ذلك بكثير، فكان عليه أن يكتفي فقط بتلك اللحظات الساحرة التي تهبه إياها متى ما شاءت، كالمقتدر الذي يحن على المسكين بالفُتات عندما يرغب في إبداء لمحة من الكرم.

- "هل سأراك مرة أخرى قبل أن تغادري أمريكا؟" سألها بشيء من الاستجداء(كم من مرة شعر بالغضب من نفسه من أجل هذا

الضعـف الـذي كان يبديـه حيالها، وهـو الرجل القوي الذي يهابه الكثيرون من داخل داربا ومن خارجها!).

- "ربما." كان جوابها مقتضباً كما هي العادة.
- "أعرف مكاناً جميلاً جدّاً في سانتا مونيكا نستطيع قضاء ليلة الرابع من يوليو فيه....."
- "وليام،" قاطعته دون أن تدعه يكمل عرضه......
- "مـاذا عـن زوجتـك؟ ومـاذا عـن زوجي؟ أنت تعلم جيـداً أنّي لا أستطيع."

ابتسـم وليام لجملتها الأخيرة، فزوجته لم تعد في المعادلة منذ أن تعرف عليها. علاقتهما أصبحت شـبه منتهية.... تمنى لو كان هذا هو حال عشيقته نفسه مع زوجها!

- "لا بد أن أراكِ مرة أخرى قبل أن تغادري. لن أكتفي بهذا اللقاء العابر!" أمسـك بمعصمها قبل أن تقترب من باب الحجرة، مانعاً إياها من المغادرة، ثم سرعان ما تركها، عندما تنبه إلى انزعاجها ممّا فعل.
- "بالمناسبة،" قالت بشكل عابر قبل أن تفتح الباب.....
- "هل تذكر ذلك الشاب الذي سألتني مرة عنه قبل أشهر.... مراد قُطُز؟"
- "مراد قُطُز؟" ردّد الاسم، محاولاً أن يتذكره.
- "الطالب السـعودي الذي كان يدرس في برنسـتون، وسـألتني ماذا أعرف عنه، فأخبرتك عن فضيحته مع إحدى بنات الأسر السعودية المعروفة بمدينة جدة."
- "نعم، نعم، تذكرته.... ماذا به؟" سألها بغير اكتراث، متعجباً منها لذكره الآن.

- "فقط أردت أن أخبرك بأنه قد قدم إلى بوسطن بعد أن قُبل في كلية الطب بجامعة هارفرد. علمت ذلك من ناصر البارحة. حاول أن يدعوه إلى نادي الطلبة السعوديين، ولكنه اعتذر بشدة، وكأنه لا يريد أن يلتقي بأي سعودي في بوسطن."
- "وما شأني أنا بهذا الأمر؟" لم يحاول إخفاء دهشته من هذا الموضوع الذي فتحته فجأة.
- "أنت الذي سبق وسألتني عنه، فحسبت أن خبراً كهذا قد يهمك."
- "لا، أمره لم يعد يهمني." أجابها عاقداً حاجبيه، مبدياً عدم الاكتراث.
- "حسناً.... إذنْ إلى اللقاء." فتحت سارة القويت باب الحجرة، ثم خرجت دون أن تنظر خلفها.

* * *

مرّ وليام برمن من أمام العمارة التي كانت تسكنها سارة كلّما أتت لزيارة أخيها في بوسطن. سنوات عدة قد مضت منذ أن تخرج ناصر القويت من الجامعة وترك بوسطن، آخذاً معه سبب زيارات أخته إلى هذه المدينة.... في الشارع المجاور يقع الفندق الذي التقاها فيه آخر مرة. لم يتصور حينها أنها ستتركه، ولن تسأل عنه، وكأنه حذاء بالٍ، انتعلته عند الحاجة، ثم رمته. بقدر ما كان يعشق مدينة بوسطن، عندما كان يأتيها في السابق من أجل لقاء سارة، إلّا أنه أصبح الآن يكرهها لأنها تذكره بها. حاول أكثر من مرة أن يعتذر عن عدم حضور حفلة رأس سنة 2000 التي تقيمها أليس تبت في شقتها المطلة على حديقة بوسطن، ولكن فيرجينيا أصرّت على حضوره، ولولا هذا لما فكر في المجيء إلى هذه المدينة "الكئيبة"!

صعد إلى الطابق الخامس بالعمارة رقم 10 حيث شقة أليس،

ثم ضغط زر جرس الباب على مضض. تمنى لو أن لا أحد يفتح له، فيجد عذراً لمغادرة بوسطن، ومن ثمّ الرجوع إلى واشنطن العاصمة.

- "وليام! أخيراً وصلت!" عانقته أليس مبدية بهجة ثملة من أثر كؤوس الشامبانيا التي احتستها على مدار الحفل.
- "مساء الخير أليس..... آسف على التأخير."
- "المهم أنك أتيت. تفضل، تفضل، لا تقف هكذا عند الباب..... هيّا استمتع بالحفل، ولا تنسَ الوقوف بجانب إحدى النساء الجميلات قبيل منتصف الليل." أطلقت ضحكة مدوية، ثم سحبته إلى الداخل....

أخذت أليس تلتفت إلى كل ركن بالقاعة بحثاً عن أختها التي توارت فجأة عن الأنظار، ولكن دون طائل....

- "أين ذهبت هذه الفتاة؟!" تساءلت مع نفسها حتى لمحت خليلها، فلم تجد بدّاً من الاستعانة به.....
- "جيم.... هل رأيت فيرجينيا؟"
- "خرجت إلى الشرفة." أجابها، ثم ابتسم ابتسامة ماكرة قبل أن يضيف.....
- "وكأني لمحت مراد معها."
- "خرجت إلى الشرفة في هذا البرد؟!"
- "مراد؟؟" ردّد وليام مستعجباً.
- "مراد قُطز، زميلي في برنامج جراحة التجميل." أجابته أليس، ثم اتجهت مباشرة نحو باب الشرفة، ولكن فيرجينيا كانت قد سبقتها من الجهة الأخرى، وفتحت الباب على عجل متجهة نحو وليام دون أن تلتفت إلى أختها. أمسكت به من ذراعه، ثم قادته إلى خارج الشقة أمام دهشة أليس وجيم.

- "وليام،" بدأت فيرجينيا الحديث بعد إغلاق باب الشقة من خلفها، والتأكد من أن لا أحد يسمعها....
- "لقد خدعنا! لا أعلم كيف، ولكنه كان يعلم بأمرنا طيلة هذا الوقت!"
- "فيرجينيا.... عمّ تتحدثين؟! وما هذه الحالة العجيبة التي أراك عليها؟!"
- "ألم تعِ ما قلته لك قبل قليل؟! لقد خدعنا! مراد قطز خدعنا!" أصّرت فيرجينيا شاخصة عينيها، لكي يستوعب وليام حجم الكارثة.
- "مستحيل!" بدأ أخيراً مدير داريا يفهم ما كانت تشير إليه....
- "ولكن كيف؟!"
- "لا أعلم... ولكن ابن العاهرة أسوأ بكثير ممّا كنّا نتخيل!"

1

خرج القاضي عبدالستار من المسجد الكبير بعد فراغه من صلاة العشـاء، محاطـاً بنفـر مـن أتباعه الذين أبـوا إلّا أن يصطحبوه في هذه الليلة الظلماء إلى داره. فمنذ توليه القضاء وخصومه من النافذين قد زادوا..... أعيـان مراغـه وكبارهـا لم يألفوا منذ زمن بعيد وجود قاضٍ يحكـم بمـا يقتضيـه الحـق وليس بما تقتضيه حاجتهـم؛ فبدأ الضعيف يقتص من القوي، والفقير يأخذ حقه من الغني؛ وبقدر ما تلقى القاضي عبدالستار من وعيد وثبور لكي يعود إلى نهج سلفه من مراعاة مكانة النافذين من أهالي مراغه في الأحكام التي يصدرها لصالح خصومهم من العامة، إلّا أن الشيخ الفقيه الذي تولى القضاء بضغط من أتباعه، أبـى إلّا أن يحكـم بالحـق، وبما يمليـه عليه ضميره، على نهج النبوة، وليس على نهج السلاطين!

– "قضاء الله إن جاء فليس له من رد." كان دوماً يقول لمريديه الذين خافوا عليه من طعنة الغادرين، فأبوا أن يتركوه وحده.

لـم تكـن تلـك الليلـة مـن غرّة شـهر محـرم تبدو بخـلاف باقي الليالي، عندما سـار الشـيخ الجليل في أزقة مراغة، متجهاً إلى داره، حتى أقبل نحوه رجل غريب ليس من أهالي المدينة. على الفور حال بينه وبين القاضي أحد أتباعه من الشباب، بعد أن شك في الأمر.

– "لقـد قدِمـت مـن تبريز اليـوم لغرض لي هنا فـي مراغة، ووددت فقط السلام على شيخنا المُبَجّل، والنيل من بركاته." بادر الرجل

مخاطباً الشاب الفتيّ.

- "دعه يا أحمد.... لست ممن ينتهجون نهج السلاطين في حجب العباد عن المصافحة والسلام." أمر القاضي عبدالستار تابعه.
- "بوركت أيها القاضي الجليل."

اقترب ماداً يده اليمنى للمصافحة، وما إن رفع القاضي يده هو الآخر، حتى أطبق عليها الرجل الغريب بكفيه....

- "كفى، لقد أوجعت القاضي!" قال أحد الأتباع على الفور عندما لاحظ على وجه شيخه وخزة ألم.
- " كل المعذرة، ولكن يبدو أن يدي اليسرى أبت أن تُؤثر يدي اليمنى بجل البركات.... استودعكم الله." قال الرجل، ثم غادر على الفور، حتى توارى عن الأنظار.

بادر القاضي عبدالستار يتابع السير نحو داره، وما كاد يخطو بضع خطوات حتى شعر بألم خفيف يعتري ذراعه الأيمن، وقد أخذ يشتد مع كل خطوة يخطوها. حاول إخفاء معاناته عن رفقائه حتى لا يقلقهم، ولكن قدرته على التحمل كانت قد وصلت إلى مداها!

- "سيدي القاضي! سيدي القاضي، ما بك؟!" صرخ الجمع وهم يرون شيخهم يهوي إلى الأرض من فرط الألم الذي تبعه، بعد لحظات، سعال شديد ثم حشرجة فتشنجات عنيفة! الأمر برمته لم يستغرق سوى دقائق قليلة، ولكنها كانت كفيلة بإزهاق روح الشيخ الجليل، والفقيه المبجل، والقاضي العادل عبدالستار!

* * *

- "ويحك! كيف حدث هذا؟!" صرخ الوالي في وجه قائد الشرطة، بعدما سمع منه ما قد جرى قبل قليل....
- "هل أنت على يقين أنه قد سُمِّم، ولم يقع صريع مرض ألم به

فجأة؟!"

- "مولاي، أنا على يقين بذلك. بل إن السم قد دخل إلى جسمه عن طريق كفه الأيمن المتورم، ثم انتشر عبر ذراعه إلى باقي جسده، وكأن ثعباناً لدغه، ولكنه لم يكن ثعباناً، بل ما هو أسوأ من الثعابين،" تردّد قائد الشرطة قليلاً قبل أن يواصل......
- "الحشّاشون! إنها طريقتهم الخبيثة في القتل غيلة!"
- "الحشاشون؟! هؤلاء الإسماعيليون الزنادقة هنا في مراغة؟! وما الذي بينهم وبين القاضي عبدالستار حتى يغتالوه؟" حرص الوالي على إظهار الدهشة لما سمعه من قائد الشرطة.
- "لعلّ أحد أعيان المدينة، المتضررين من أحكام القاضي، قد استأجره للقيام بهذه المهمة القذرة. يعلم الله أنهم ليسوا بقليل."
- "لا! لا أيها القائد! هذا أمر ليس بمقبول. لن أسمح أبداً بأن يحدث هذا في مراغة وأنا واليها. آتني برأس هذا الوغد الذي قتل القاضي عبدالستار، ولن أقبل لك عذراً إن لم تفعل!"
- "أمر مولاي. ثق بأنه لن يهدأ لي بال حتى أجد ذلك الزنديق!"

انتظر الوالي رستم بن زياد حتى انصرف قائد الشرطة، وأُغلِق باب الديوان من ورائه، قبل أن يشير لحاجبه لكي يأتي بالرجل المُختبِئ خلف الستار. كان هو نفسه الغريب الذي صافح القاضي بعد خروجه من المسجد..... أخرج الوالي من جيبه صرة من الدنانير، فألقى بها إلى الحشّاش....

- "أخبر مولاك حاجب الإمام علاء الدين بن الحسن بأني في غاية السرور. لقد أحسنت صنعاً. هذا القاضي اللعين كاد يُجَرِّئ علينا العوام؛ ولكن أخبرني، كيف استطعت أن تفعلها وهو محاط بعدد من رجاله؟"

رفع الحشّاش كفه الأيسر مظهراً في باطنه إبرة قصيرة بين السبابة وأصبعه الأوسط، ثم أجاب عن سؤال الوالي، مبتسماً.....

- "صافحته يا مولاي."

خطا رستم بن زياد بضع خطوات إلى الوراء دون أن يشعر، مبتعداً عن الحشاش وإبرته المسمومة، ثم أطلق ضحكة مصطنعة عندما تنبه إلى فعلته، ليخفي بها الفزع الذي أوحى به تصرفه المفاجئ.....

- "حسناً... حسناً... يبدو أنه ينبغي للمرء أن يراجع نفسه قبل أن يصافح رجلاً غريباً، فلعله يكون من الحشّا..." لم يكمل الكلمة، حيث تذكر كره الحشّاشين لهذا اللقب الذي يُطلقه عليهم خصومهم....

- "خذ هذه أيضاً لك." أخرج الوالي رستم بن زياد من جيبه صرة أخرى من الدنانير، ثم ناولها على استحياء للحشّاش....

- "سيأخذك حاجبي إلى سرداب القصر..... تستطيع.... تستطيع من خلاله العبور إلى خارج أسوار المدينة، حيث ستجد هناك فرساً في انتظارك مع.... مع ما تحتاج إليه من المؤونة حتى تصل إلى قلعة ألموت..... ينبغي لك التحرك الآن قبل فوات الأوان."

أومأ رستم إلى الحاجب حتى ينصرف مع الحشّاش على الفور، وما إن خرجا من الديوان، حتّى ألقى الوالي بجسده على كرسيه، متنفساً الصعداء!

2

ضحكة مدوية أطلقها شيخ التجار صفوان بن الخزاز لم تراعِ حرج رستم بن زياد في مجلسه بين نديمَيه وجواريه وخدمه. حاول أكثر من مرة أن يكبح جماح نفسه، ولكن الشراب جعله أكثر تراخياً من المعتاد في حضرة الوالي ووزيره أبي عبدالله الشيرازي.....

- "على رسلك يا صفوان، والله لو كنتَ أنت الذي في مكاني لتبَوَّلت على نفسك يا رجل!" أجاب الوالي على ضحكات نديمه.
- "ولكن يا أبا جعفر، أنت من استأجرته، فكيف تخاف منه؟! وما كان عساه أن يفعل هنا وجنودك من حولك في كل ردهة من ردهات القصر؟!"
- "مولاي أبو جعفر معذور، فوالله لو كنتُ في مكانه لسقط قلبي في قدمي!" بادر الوزير مناصراً الوالي.
- "حسبته سيلقي بنفسه على القاضي عبدالستار، ويطعنه أمام الملأ، فيمسكون به ويقتلونه انتقاماً لشيخهم، ولكن الخبيث قتله وفلت دون أن يشك في أمره أحد! قتله بشكة إبرة مسمومة في أثناء مصافحته، وغادر، ثم وجدته أمامي هنا في القصر! والله إن الشياطين ليخشون أولئك الحشاشين!"
- "ولكن أما كان من الأسهل عزل القاضي بدلاً من الاستعانة بزنادقة قلعة ألموت، أحفاد الإسماعيلي الملعون، سالف الذكر، الحسن الصباح؟!"

هـزّ الوالـي رأسـه لسـؤال نديمه شـيخ التجـار، مجيبـاً إيّاه على مضض:

- "لـو كان بالإمـكان عزله دون إثـارة العامة لفعلت، ولكن القاضي عبدالستار بلغ من الحظوة ما جعل منه غريماً لا يستهان به. والله بـت أخشـى أن يعزلنـي هو، ومـا كان لأحد أن يراجعه! قَتْله على يد الحشاشـين هو الحل الأنسـب، خاصة وقد عُرف عنه عداوته الشـديدة لهـم، ولـكل فرق الباطنية. سـيعتقد النـاس أن إمام قلعة ألموت، علاء الدين بن الحسن، هو من أمر بقتله."
- "يـا لـك مـن داهيـة يـا أبـا جعفر. أحمـد الله أني نديمك ولسـت بخصمك."

ضحك الوالي لجملة صفوان بن الخزّاز الأخيرة، وقد طرب لما فيهـا مـن مديـح أغراه، ثم مدّ يده نحو الـكأس المذهبة التي بجواره، ليحتسي ما فيها من نبيذ.....

- "ولكـن دعـك الآن من هذه السـيرة المغمومة وقـد أثقلناها بحثاً، وأخبرني عمّا شـاهدته من أحوال شـرق البلاد في خرسـان، وقد عـدت حـالاً مـن هناك. هـل خَفَّت القلاقل، أم لا يزال السـلطان جلال الدين منكبرتي يعافر من أجل إخمادها؟"
- "القلاقـل لا تـكاد تَهْمَـد فـي بقعة حتى تظهر فـي بقعة أخرى من البـلاد. الحـق يقال: إن السـلطان منـذ أن عاد من منفاه في الهند، قبـل بضـع سـنين بعـد موت جنكيز خان، قد تبـدل حاله. لم يعد ذلك الأمير الخوارزمي الذي اشتهر بعدله ورجاحة رأيه في زمن أبيه الظالـم السلطان علاء الدين محمد. يبدو أن ما جرى له على يد المغول في معركة نهر السـند، وما لاقاه بعد ذلك في سـنوات تشريده في الهند، قد ترك في نفسه أثراً سيّئاً."

- "ولكنه استطاع أن يعيد خرسان وأذربيجان وباقي الولايات الغربية من مملكة خوارزم إلى ملكه، بعد أن غاب عنها سنوات..... تباً لهؤلاء الترك، فيهم جلافة تجعلهم لا يستسلمون بسهولة. والله إني لا أبغض أحداً أكثر من العرب إلّا هؤلاء، أصحاب الوجوه الأشبه بالمجان المطرقة، أبناء عمومة المغول!" أضاف الوالي إلى ما قاله شيخ تجار مراغة، صفوان بن الخرّاز.
- "أما آن لنا نحن الفرس أن نحكم الدولة ونسوسها، كما كان الحال في زمن البويهيين، قبل أن يقضي عليهم السلاجقة الأتراك؟!" تساءل الوزير أبو عبدالله الشيرازي بشغف ووله حرص على إظهارهما أمام الوالي.
- "آه يا أبا عبدالله، إنك والله لنكأت الجراح.... التُّرك والعرب يسودون بلادنا، ونحن عُمّالهم على مدنها. والله إن هذا لهو الزمن العُجاب؛ ولكن لا عليك، فالأيام هي هكذا دول بين الشعوب؛ فهل كان يظن أحد، على سبيل المثال، أن الكرد سيتمكنون من التُّرك والعرب في مصر والشام والجزيرة العربية، وها قد فعلوا، وساد الأيوبيون، ثم تشرذموا بعد موت سلطانهم صلاح الدين، واليوم هم يتقاتلون فيما بينهم."
- "لعنة الله على هؤلاء الأيوبيين الأكراد، لقد تنازل سلطانهم الكامل، صاحب مصر، عن القدس لصديقه إمبراطور صقلّية فريدريك الثاني، وكأنها من باقي ضياعه." أضاف الوزير غاضباً.
- "لا أدري من أين يأتون بهذه الألقاب الّتي ليس لهم منها أي نصيب؟!.... الكامل! الصالح! العادل!" أطلق صفوان ضحكة ثملة شاركه فيها الوالي ووزيره، ثم أضاف.....
- "أظن يا أبا جعفر أن الحديث عن أمر الدول لن يجلب لنا سوى

الهـم والغـم. حمـداً لله أننـا بعيدون هنا في مراغة عن هذه الفتن. لقد سلّمنا الله من عاصفة المغول من قبل، وها نحن نسلم اليوم مـن اقتتـال الخوارزميين فيمـا بينهـم، وبعيـدون عمّـا يجري بين الأيوبيين والصليبيين في مصر والشام. نحن والله في نعمة الأمان بفضل حكمتك يا أبا جعفر، أنت ووزيرك أبو عبدالله."

- "أعوذ بالله من أن يُنسـب لي فضل لا أسـتحقه؛ فما أنا إلّا عامل من عُمّال مولانا الوالي." قاطع الوزير شـيخ التجار، راسـماً على وجهـه ابتسـامة تزلـف للوالـي الذي لا يحب أن يشـاركه أحد في المديح، ثم دأب على تغيير مسار الحديث عندما دخلت الجواري إلى المجلس يحملن معهن ما لذّ وطاب من أطباق الطعام وأقداح الشراب.....
- "أحقّـاً مـا يقـال عـن ظهـور رجل في بـلاد ما وراء النهـر، يصنع المعجزات، ويقرأ الغيب، ويداوي المحمومين بالعَفَن، ويستأصل الداء بشق البطون؟!"
- "مـا هـذا يـا أبا عبدالله؟! أتصدق مثل هـذه الخرافات التي يطلقها العامة؟!" قاطعه الوالي.
- "إنها ليست بالخرافات يا أبا جعفر، بل الوزير على حق. لقد ظهر هذا الرجل منذ بضع سنين في أترار وأخذ يتجول بين باقي مدن بـلاد مـا وراء نهـر جيحون؛ يظهر في إحداها ثم يختفي فجأة كما ظهر! هناك من يقول: إنه قطب من الأقطاب الصالحين، وآخرون يؤكدون أنه العارف آصف بن برخيا الذي أتى بعرش بلقيس في زمن النبي سليمان......"
- "أو ساحر لعين، إن صدق أمر هذا الرجل الذي تتحدث عنه!"
- "أصدقـك القـول يـا أبـا جعفر، فأنا لم ألتقِه، ولكن صديقاً لي في

بخارى، أثق في صدقه ورجاحة عقله، أخبرني بأنه قد التقاه ذات مرة، ورأى منه العجب العجاب!"

- "كيف يا أبا الفضل؟ أفصح." تساءل الوزير.
- "حدّثني ذلك الصديق أنه منذ نحو عامين أو أكثر أصاب ابنه داء حار فيه جميع الأطباء، حتى يئس من شفائه، فأخذ يستعوض فيه ربه..... ذات يوم حضرت إلى بخارى قافلة لذلك التاجر، قادمة من الصين. علم قائد القافلة عندما تَغَيَّب صاحبها عن ملاقاته في السوق من أجل تفحص البضائع، عمّا أصاب التاجر من حزن شديد جعله يعتزل الناس ويبقى بجوار ابنه المريض؛ فذهب إليه وأصر على مقابلته ومعه رجل غريب عن الديار، التقاه في الطريق في أثناء عودة القافلة. أخبر قائد القافلة التاجر بأنه لو كان لأحد أن يشفي ابنه، فلن يكون سوى ذلك الرجل الذي اصطحبه معه؛ ثم شرح له كيف أنه منذ أن تعرف عليه لم يرَ منه سوى الأعاجيب، من دراية في علم الأبدان والأعشاب والكيمياء، بل وكافة العلوم. وافق صديقي التاجر، ليأسه، على أن يفحص ذلك الغريب ابنه، فلعله يكون على يديه الشفاء.... وبالفعل يا أبا جعفر، استطاع اكتشاف علّة الصبي، وليس هذا فقط، بل أيضاً المتسبب في تلك العلة!"
- "المتسبب في العلة؟!" ردّد الوزير مستعجباً.
- "نعم يا أبا عبدالله، فالأمر كان أعظم من مجرد داء عضال أصاب ابن التاجر...."
- "كيف؟"
- "قبل تلك الواقعة بسنة كان ذلك التاجر قد تزوج من أخت زوجته التي توفت من أثر داء أصابها هي الأخرى دون أن يجد له أحد

علاجاً."

- "أهو الداء نفسه الذي أصاب الصبي؟"
- "بل داء غيره؛ لذلك لم يربط التاجر بين الأمرين، وإن كان السبب واحداً: الزوجة الثانية!"
- "أخت زوجته الأولى؟! يا لهول الأمر! أرادت الاستئثار بالتاجر الثري لنفسها؟!"
- "ما هذا الهراء يا صفوان..." قاطع الوالي الحديث، مستهزئاً بما سمع.....
- "تَقُصّ علينا قصة من قصص ألف ليلة وليلة!"

أطلق شيخ التجار ضحكة ملأت المجلس، وأخذ يشير بسبّابته نحو الوزير، غير قادر على الحديث من فرط الضحك، إلى أن تمالك نفسه، ليقول بعد أن اكتشف الوالي دعابته.....

- "لقد... لقد صدّقها أبو عبدالله..."
- "أيها الوغد! تستهزئ بنا أنا والوالي؟!"
- "بل بك وحدك أيها الوزير، أمّا أبو جعفر فلم تخل عليه الخرافة."

ضحك الوالي ناغزاً خصر وزيره الممتعض، حتى أخذ يشاركه وصفوان بن الخرّاز الضحك، ثم أمر جواريه بأن يملأن لهم الأقداح، واستمر الندماء الثلاثة على هذا الحال، إلى أن جاء الصباح.....

* * *

بدأ قرص الشمس يلوح في الأفق مع إشراق يوم جديد. شعر حارس بوابة قصر الوالي بسعادته المعتادة في مثل هذا الوقت من كل يوم، حيث سيُستبدل من قبل زميل له يأخذ محله، ويذهب هو لزوجته وأولاده، فيتناول معهم وجبة الإفطار؛ حياة بسيطة ولكنها سعيدة وخالية من التعقيد؛ تماماً مثل حال عمله في حراسة القصر

الـذي قلّمـا يشـهد أحداثـاً في هذه المدينة الهادئة التـي دائماً ما يُذَكِّر الوالي رعاياها بما يستمتعون به من نعمة الأمن والأمان.....

فـي الموعـد المعتـاد حضر الحارس البديـل ليأخذ مكان زميله، ولكن..... هذه المرة لم يكن هو وحده من قدم..... تنبه الحارسـان إلى شخص قادم من بعيد من ناحية الشرق، وكأنه ظهر فجأة مع بزوغ الشـمس. كان يسـير نحوهما بخطى ثابتة، يحمل في يده اليمنى شـيئاً مستديراً غير واضح المعالم. أمرٌ عجيب لم يحدث من قبل، فالقصر لا يستقبل أحداً في مثل هذا الوقت من الصباح الباكر. تقدم الحارس مـن موقعـه ليتبيـن أمـر هذا الرجل، وما يحمله.... مع كل خطوة كان يخطوها أخذت معالم ذلك الشيء المستدير تتضح أكثر، وكأنها....

- "مسـتحيل!" خرجت الكلمة من فم الحارس، شـاخصاً عينيه نحو الرجل الغريب وحمولته الأغرب! التفت خلفه إلى زميله، متسائلاً مع نفسه إن كان شاهد ما شاهده؟! ثم التفت نحو الغريب الذي كان على بعد خطوات منه.....
- "قف في مكانك!" صرخ الحارس شاهراً حربته.

توقـف مـراد قُطُز عن السـير، فألقى بالـرأس المقطوع الذي كان يحمله عند قدمي الحارس، ثم قال مخاطباً إيّاه......

- "أخبر الوالي بأني قد أحضرت له رأس قاتل القاضي عبدالستار."

نظر حارس المسـاء بفزع إلى زميله الذي جاء ليحل مكانه، ثم إلى الرأس الملقي على الأرض، المنزوع من جسـده، ثم مرة أخرى إلـى زميلـه، فـي ذهـول وحيرة من أمره..... غيـر مصدق ما جرى توّاً أمامه!

3

– "كيف؟! كيف حدث هذا يا أبا عبدالله؟"

بلغ توتر والي مراغة، رستم بن زياد، الذروة. لم يدرك من أمره إلّا أن يسأل وزيره سؤالاً هو يعلم جيداً أنه لا يملك الإجابة عنه.... ولكن هذا ما أسعفه به عقله.

– "وما الضير يا أبي في أن يأتي شخص برأس من قتل القاضي عبدالستار؟ هذا سيسعد العامة، خاصة لو قلنا: إنه أحد رجالات القصر الذي أخذ بثأر القاضي." قاطع جعفر بن رستم قبل أن يفتح الوزير، أبو عبدالله الشيرازي، فمه للإجابة عن سؤال الوالي.

– "أخبره يا أبا عبدالله! أخبر ابني البكر ما الضير فيما حدث!"

– "مولاي الوالي، لعلّه من الأفضل ألّا....."

شعر الوزير بحرج شديد، فمؤامرة قتل القاضي عبدالستار أمر لا يستهان به، لذا كان حريصاً منذ البداية على ألّا يعلم أحد عن هذه المؤامرة سوى الثلاثة الذين دبروها: هو، والوالي، وشيخ تجار مراغه صفوان بن الخراز الذي تواصل بنفسه مع حاجب إمام قلعة ألموت معقل الحشّاشين.

– "ما الذي تريد الوزير أن يخبرني به يا أبي؟!"

اعتلت جعفر ريبة جعلته يخشى ما قد يسمعه ولا يَسُرّه، ردّاً على سؤال بدأ يفطن لإجابته.

– "سأقول لك ما قلته لصفوان بن الخرّاز الذي تردد في الأمر....

قتل القاضي كان ضرورة من أجل استقرار الحال في مراغة، ولست نادماً عليه البتة! ولست نادماً على الاستعانة بالحشّاشين؛ فقد قاموا بالمهمة على أكمل وجه، وما كان ليحسنها أي أحد سواهم!"

- "الحشّاشون! الحشّاشون يا أبي؟! من الذي أشار عليك بهذه المشورة الحمقاء، حتى تستعين بهؤلاء الملاعين؟!"
- "الزم حدك يا ولد! أنت تخاطب أباك الوالي في حضرة وزيره!" صرخ رستم بن زياد في وجه ابنه، ثم استدار نحو أبي عبدالله الشيرازي....
- "لا بد من التكتم على خبر مقتل الحشّاش حتى نتبيَّن أمرنا؛ إن وصل الخبر إلى قلعة ألموت وعلم به حاكمها، فسيحسب أننا نحن من أمرنا بقتل ذلك الحشّاش، وحينها ستنفتح علينا أبواب جهنم، ولن يسلم أحد منّا من نقمته!"
- "ولكننا لم نأمر بقتله، بل وحتى لا نعلم من هو هذا الشخص الذي أتى لنا برأسه!"
- "وهل تحسب أن الحشّاشين سيصدقون هذا الحديث أو يتقبلونه؟!" أخذ الوالي يدور حول نفسه مشيراً بسبّابته نحو الوزير وقد ضاق به الحال.....
- "عليك أن تجد لنا مخرجاً يا أبا عبدالله، وإلّا فالعاقبة ستكون وخيمة!..... تباً لابن اللئيمة هذا الذي قتل الحشّاش!! من أي داهية خرج لنا؟!"
- "على رسلك يا مولاي.... فالأمر لا يزال تحت سيطرتنا، خاصة أنه لم يخرج عن علم من هم في هذه القاعة، وجنديي الحراسة وقائدهم الذي جلب لنا الخبر."

- "الخبر إن خرج عن اثنين انتشر." قاطع جعفر مرة أخرى الحديث الدائر بين أبيه والوزير.
- "إن لم يكن لديك رأي سديد فمن الأفضل لك ولنا أن تؤثر الصمت!" ردّ عليه الوالي غاضباً.
- "بل لدي المخرج من هذا المأزق يا أبي، وإن كنت لا أرتضيه.... لا بد من التكتم على خبر مقتل الحشّاش بعد مواراة جثته، وضمان ألّا يتحدث عن أمره أحد بعد ذلك، مهما كلف الأمر، حتى لا يربط الحشّاشون بيننا وبين اختفائه."
- "فهمتك يا جعفر، بارك الله فيك!" أمسك الوالي بكتف ابنه، وقد بدأ ينتشي لسماع حل سديد، على خلاف وزيره الذي بدا مرتاباً ممّا سمع.....
- "يا أبا عبدالله، ابعث أمراً لقائد الجند بأن يضع الجنديين في السجن إلى أن ننظر في أمرهما. أمّا ابن اللئيمة الذي جاء لنا برأس ذلك الحشّاش، فأدخله علينا." التف رستم بن زياد برأسه نحو ابنه جعفر، غامزاً له بعينه اليمنى، ثم أضاف ساخراً.....
- "حتى أكافئه بنفسي."

ابتسم جعفر، ممتنّاً لموافقة أبيه لرأيه، بينما خرج الوزير أبو عبدالله من أجل تنفيذ أوامر الوالي، متمنياً ألا يأتي الدور عليه بعد ذلك فيصبح مصيره كمصير الجنديين المسكينين اللذين قادهما حظهما التعس إلى التواجد في المكان غير المناسب، أو كمصير ذلك الغريب الذي سينال من الوالي، نظير فعلته، جزاء سنمّار!

4

من يكون ذلك الغريب الذي تمكن من الحشّاش، وكيف استطاع التوصل إليه؟! من أي داهية ظهر، ولِمَ فعل ما فعل؟! فضول الوالي رستم بن زياد جعله يرغب في الجلوس معه والاستماع إليه قبل أن يسقيه من القدح المسموم، الذي أعده خصّيصاً له! هو ليس من أهل مراغة، هذا ما أكده له الوزير أبو عبدالله الشيرازي، بجانب كونه تركي الملامح.....

- "شيء ما في مظهره يثير الريبة." أخبر الوزير الوالي دون أن يجد ما يبرر ذلك الشعور الغريب، ما أثار فضوله، وفضول ابنه جعفر الذي آثر البقاء لرؤية ما ستؤول إليه الأمور.....

* * *

دخل مراد إلى مجلس رستم بن زياد بخطى ثابتة، واثقاً من نفسه، مصافحاً مَنْ في القاعة.... "المسكين لا يعلم أن هذه ستكون آخر ليلة له على ظهر الأرض." حدّث الوزير نفسه أثناء مصافحته، ثم أشار إليه بالجلوس إلى يمين الوالي.

- "وددت أن أشكرك بنفسي على ما قمت به من جهد. لقد أحسنت صنعاً عندما قتلت ذلك الخبيث الذي قتل غيلة شيخنا الجليل القاضي عبدالستار. " بادر الوالي بالحديث.....
- "ولكن من تكون أيها الغريب؟ وما قصتك؟"

ابتسم مراد، وتذكر عبدالرحمن، عندما سُئل السؤال نفسه منذ

أعوام في حضرة سلطان خوارزم علاء الدين محمد، في زمن كان هو مجرد شاهد على أحداثه، وليس فاعلاً فيها كما هو الحال الآن.... أشياء كثيرة اختلفت، وتبدل حالها عبر السنين. اختفى عبدالرحمن بعدما باع محمود بن ممدود لتجار الرقيق المغول، وسلّم ياسمي لرجال الكاهن تبتنكر. ماتت نوران خاتون غرقاً في معركة نهر السند، ومحمد الطوسي ذهب إلى حال سبيله، بعدما طرده سلطان خوارزم الجديد، جلال الدين منكبرتي. كل شيء قد تغير، وفي المقدمة هو.....

- "على الرغم من بساطة سؤالك أيها الوالي إلّا أن الإجابة عنه ليست بالأمر اليسير. فالمرء لا يكون إلّا بحصاد عمله عبر سنوات عمره، فلا يُعرف حتى ينقضي أجله، وتنفد صنائعه."
- "اسمك يا رجل؟!" قاطعه الوالي بعد نفاد صبره.
- "وعيت على الحياة والناس من حولي ينادونني مراد، فعلمت أن هذا هو الاسم الذي اختاره لي أبي، رحمة الله عليه، وأن أجدادي من نسل قُطُز."
- "قُطُز؟" التفت الوالي نحو وزيره حيث لم يسمع بهذا الاسم من قبل، فوجده هو الآخر مستعجباً من اسم قُطُز.....
- "لا أظنني قد سمعت به من قبل. أكان رجلاً ذا صيت في بلادكم؟"
- "بل سيصبح ذا صيت، ولكن بعد حين."

اقترب جعفر من أبيه والوزير أبي عبدالله اللذين بدوا في حيرة من أمرهما لحديث ذلك الغريب الذي أخذ يوقع في قلبهما شيئاً من الريبة، ثم قال هامساً.....

- "أخشى أن يكون هذا الرجل معتوهاً."
- "أي معتوه هذا الذي يتمكن من حشّاش بهذه السرعة، بل ويأتي

لنا برأسه؟!..... هذا الرجل وراءه شيء مريب، لا بد من معرفته قبل التخلص منه." أجابه أبوه الوالي بصوت خافت لا يكاد يُسمع، ثم التفت مرة أخرى إلى مراد....

- "كيف توصلت إلى قاتل القاضي عبدالستار، بعد أقل من يومين فقط من مقتله؟ بل كيف تعرفت عليه؟"
- "انتظرته حتى ظهر في المكان الذي أعددتَ له فيه الفرس التي كان سيستخدمها من أجل الفرار إلى عشيرته."

ما كاد مراد يفرغ من جملته حتى هبّ رستم بن زياد من مجلسه، شاخصاً عينيه ممّا سمع.... أخذ يلتفت إلى وزيره ثم إلى ابنه في حالة من الربكة..... وكأنه يسألهما: "كيف علم ابن اللئيمة؟!"

- "هل جننت يا رجل؟! أتتّهمني بالتواطؤ مع ذلك الحشّاش؟!"
- "كيف علمت أنه من الحشّاشين؟ لقد أقررتَ توّاً أنك تعرفه."

تلعثم رستم.... لم يعلم بماذا يجيبه، فما كان للوزير أبي عبدالله إلّا أن يتدخل ليزيح الحرج عن الوالي.....

- "لقد تجاوزت كل الحدود أيها الغريب! والله لو أن الوالي يأمر الآن بقطع رقبتك لما كنا له بمخطئين!"
- "على رسلك يا أبا عبدالله، على رسلك." تماسك رستم بعد صدمته من صراحة مراد، ثم جلس مرة أخرى على كرسيه المذهب المرصع بالياقوت والمرجان، قبل أن يستأنف الحديث معه.....
- "هل أنت شريكه؟ أهكذا علمت عن الأمر؟"
- "أبي!" حاول جعفر مقاطعة أبيه، حتى لا يفضح نفسه أمام هذا الغريب، فيفصح عن المؤامرة التي حاكها.
- "لا عليك يا جعفر، فلا جدوى الآن من إخفاء أمرٍ من الواضح أنه على علم به. الوقت أثمن من أن نُضَيِّعه في المهاترات."

صمت الوالي قليلاً، فأخذ يتأمل ذلك الرجل التركي الذي ظهر له فجأة من غير أن يحتسب. تعجب من ثباته وجرأته، وكأنه لا يخشى على نفسه شيئاً!.... "من أين أتته كل هذه الجرأة؟!"

- "هل تود أن يُحضَر الشراب الآن كما اتفقنا يا مولاي، فننهي أمر هذا الرجل؟" همس الوزير أبوعبدالله للوالي.
- "ليس بعد. أريد أن أسمع منه أولاً، حتى أعلم ماذا يريد، وما هذه اللعبة التي يلعبها معنا؟" أجابه رستم بن زياد هامساً، ثم التفت إلى مراد....
- "لم تجب عن سؤالي. هل أنت شريكه؟"
- "لا، لست بشريكه."
- "إذن كيف علمت بأمر الاتفاق؟!"
- "لكي أشرح لك الكيفية فهذه مسألة تكاد تكون مستحيلة، لأن المصطلحات التي يجب أن أستخدمها لم تخترع بعد في هذا الزمان، ومن ثَمّ لن تفهمها؛ كما أصدقك القول، فأنا لست مِمَّن يجيدون الشرح، لذلك كنت أتحاشى تدريس طلبة الطب بقدر المستطاع عندما كنت أعمل بجامعة جدة قبل أن أذهب إلى الرياض، ولكن هذه مسألة ثانية يطول شرحها هي الأخرى؛ ولكن لا عليك من كل هذا، فمن الأجدى لك أن تعلم السبب، وليس الكيفية."

نظر الوالي إليه مشدوهاً، في حيرة من أمر هذا الجنون الذي سمعه! لوهلة ظن أن الرجل قد يكون معتوهاً..... "ولكن كيف يمكن لمعتوه أن يتمكن من أحد الحشّاشين الأشاوس؟!"

- "مولاي، إنه يستهزئ بنا! من الأفضل لنا أن ننهي هذا الأمر الآن، ونكف عن الاستماع إلى هذا الهراء." همس الوزير، مصرّاً على

رأيه.

- "حسناً." أجابه الوالي ثم أمر جعفر بأن يشرف على إعداد الشراب وإحضاره بنفسه، كما اتفق ثلاثتهم.
- "كنت تتحدث عن السبب.... لعلك تفصح أكثر." واصل الوالي حديثه مع مراد من أجل تمضية الوقت حتى يأتي جعفر بالخادم حامل الشراب المسموم، فينهي أمر "هذا الغريب المعتوه"!
- "نعم، فلا شك أن شرح السبب أسهل بكثير من شرح الكيفية. بذلك يكون السؤال الأجدى أن تسألني إياه هو: لماذا قتلت الحشّاش؟ ومن ثَمّ أجيبك: لأني أردت استخدام رأسه من أجل الوصول إليك.... طبعاً هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن ما فعله مع القاضي عبدالستار أمر مقبول بالنسبة إلي، ولكن لو كنت سأقطع رأس كل متآمر أو قاتل في هذه البلاد الشاسعة، لأفنيت حياتي كلها في قطع الرؤوس، والحق يقال: إنه على الرغم من ورع القاضي عبدالستار وعدله، إلّا أنه ليس الوحيد على هذه الشاكلة، وإن كنت أجد أمثاله يتناقصون يوماً بعد يوم، ولكن لماذا أثأر له هو دون غيره؟ لذلك، حتى أكون صادقاً معك، لقد قتلتُ الحشّاش ليس ثأراً للقاضي، ولكن من أجل غاية الوجود معك هنا في هذه اللحظة؛ وهذا يقودنا إلى السبب الثاني: سبب رغبتي في الوجود معك هنا؟"

توقف مراد عن الحديث في اللحظة التي عاد فيها جعفر ومن خلفه الخادم يحمل أقداح الشراب.

تقدم جعفر إلى أبيه الوالي أولاً، مناولاً إياه قدحاً فضّياً. فعل الأمر نفسه مع الوزير، ثم قدَّم إلى مراد قدحاً مذهباً، يختلف عن باقي الأقداح.....

- "الضيف عندنا ينال القدح الأثمن."
- "لن تذوق شراباً ألذ من هذا في سائر أنحاء أذربيجان. إنه مصنوع من أجود أنواع التوت المزروع هنا في حديقة القصر. اشربه، ثم أكمل لي هذه النادرة الطريفة التي كنت تقصها علي." قال الوالي رستم بن زياد بنبرة لا تخلو من الاستهزاء، ثم تناول الشراب برشفة واحدة، وكذلك فعل الباقون، إلّا مراد الذي آثر أن يستطعم الشراب على أكثر من رشفة.
- "إنه حقاً لذيذ.... بالفعل لم أتذوق مثله من قبل؛ ولأن الشيء بالشيء يُذْكر، هذا هو سبب رغبتي في الوجود معك هنا الآن، في هذه اللحظة تحديداً." أنهى مراد جملته، ثم شرب ما تبقى في القدح.

ضحك رستم مستعجباً ممّا قاله الغريب.... "ذلك الأبله لا يدرك أنه على وشك أن يموت!".....

- "كل هذا من أجل شراب التوت؟!" سأله بسخرية، وهو ينظر إلى وزيره وابنه اللذين لم يَكُفَّا عن الضحك هما أيضاً "لهراء هذا المعتوه الذي تجرع الزرنيخ في شراب التوت الذي أعجبه!"
- "بل لما سيحدث لك الآن."

ما كاد مراد يفرغ من جملته الأخيرة حتى كفّ الوالي رستم بن زياد عن الضحك بعد أن شعر بألم يُلمّ به في بطنه، آخذاً في الازدياد حتى أصبح يتلوى في مجلسه من شدته!

- "أبي!"
- "مولاي، ماذا أصابك؟!"

ردّ رستم على سؤال وزيره بالاستفراغ على رخام بلاط القاعة، بعد أن سقط عن كرسيه من كثرة التَّلَوِّي.

- "إنها أعراض سـم الزرنيخ الذي كان في شـراب التوت." أجاب مراد بهدوء شديد، دون أن يتحرك له جفن.
- "أيها اللعين، ماذا فعلت؟!" صرخ جعفر مفزوعاً ممّا كان يحدث أمامه، ثم بأعلى حسّه نادى حرّاس القصر.....
- "اقبضوا عليه!" أمر الحرّاس الذين أتوا مسـرعين، مشـيراً إلى مراد الذي ظل ساكناً يراقب ما كان يتجلى أمامه.....
- "ألقوا بهذا الملعون في السجن!"

لـم يـدرك ابـن الوالـي غير هذا الأمر، أمام هذا المشـهد المفزع المخيف الذي وجد نفسه فيه مع أبيه!

5

أربعـة أيـام مـع لياليهـا مـرّت على سـابح العـوّاد، وكأنهـا أربع سـنوات، خاصة عندما تُقضى في سـجن مظلم وقذر، بقبو قصر والي مراغه الفاسـد الذي رغب في أن يعزف له، ويغني على عوده الرنّان فـي مجلـس خاص..... لم يدرك سـابح حينهـا، عندما أبى كعادته أن يذهب لمجالس الحُكّام، أن قراره سيكلفه حُرّيَّته! ظن أنه ربما قد يطرد من المدينة كما حدث قبل ذلك في تبريز، ولكن أن يسجن، فقط لأنه رفض الغناء أمام الوالي؟! لم يدرك أن صيته في هذه الأنحاء من البلاد قد وصل إلى هذا الحد!

- "إلى متى؟! إلى متى يا أوغاد سأظل هنا في الحبس؟!" كان يصرخ كلّما يسـمع صوت بسـطار يخطو على الأرض الحجرية للسجن؛ لكن اختياره للمفردات التي كان ينعت بها السـجّانين ما كان إلّا ليزيدهم حنقاً عليه.....

في اليوم الرابع من حبسه، كانت الأمور تسير على غير ما يرام في السـجن. هذا ما شـعر به سـابح العوّاد من طرقعات البساطير التي كانت تعدو ذهاباً وإياباً بشـكل فوضوي، وكأن أمراً جللاً قد حدث! سـمع أحد الحراس يقول: إن الوالي رسـتم بن زياد قد قُتل مسـموماً، وآخر يؤكد أن القاتل الذي قبض عليه جعفر بن رستم هو نفسه الذي قتل القاضي عبدالستار! لم تمضِ لحظات حتى فُتحت بوابة الزنزانة، وأدخل الحرّاس، وقد بدا عليهم الاضطراب، ذلك القاتل الذي كانوا

يتحدثون عنه!

لوهلة شعر سابح هو الآخر بالقلق من وجود شخص خطير كهذا معه في المكان نفسه.... أن يجتمع في زنزانة واحدة عواد مثله مسالم لم يقترف شيئاً إلّا أنه رفض العزف على العود والغناء أمام الوالي، وقاتل خطير استطاع في يومين أن يقضي على القاضي والوالي، فهذا أمر لا يبشر بالخير! القاتل سيُقتل حتماً بعد أن يُعَذّب أشد العذاب، من جرّاء فعلته.... لوهلة خاف سابح أن يؤخذ لجريرة مكوثه معه في الزنزانة نفسها، فينال المصير نفسه!

- "يا حرّاس! يا حراس! أنا سابح العوّاد! أخرجوني من هنا! فما شأني أن أكون مع قاتل كهذا؟!"

أخذ يصرخ طارقاً على الباب حتى كَلَّ متنه؛ حينها فقط جاءه الرد، ولكن ليس ممّن كان يرجو....

- "لا تخشَ شيئاً، فلن نمكث وقتاً طويلاً هنا." أجابه مراد بصوت هادئ يملؤه السكون.

لم يعلم سابح كيف يرد عليه.... "أيها التعس، نعم لن نمكث وقتاً طويلاً هنا لأنهم سيقتلونك عمّا قريب، وقد يقتلونني معك!" أراد أن يصرخ في وجهه، لولا أنه خشي العاقبة: أن يلقى مصير القاضي والوالي! ولكنه وجد نفسه عوضاً عن ذلك يسأل القاتل على حذر......

- "وهل تعتقد أنهم سيفرجون عنك بعد الذي فعلته؟"
- "لست في حاجة لهم لكي يفرجوا عني، فلدي القدرة على الخروج من هنا وقتما أشاء، وكذلك الاستطاعة."

القدرة؟ الاستطاعة؟! "أمعتوه هذا الرجل أم ماذا؟!" بدأ سابح العواد يرتاب أكثر من رفيق زنزانته. فليس هناك ما هو أسوأ من قاتل، سوى قاتل مجنون!

- "إن كنت قادراً على الخروج من هذا المكان، فلماذا لا تفعل؟" لم يكن السؤال بغرض الاستفسار بقدر ما كان لغرض التوضيح له بأنه عاجز مثله عن فعل أي شيء.
- "سأفعل، ولكن ليس الآن، فلكل حدث أوانه..... أنصحك بالابتعاد عن باب الزنزانة، حتى لا تضطر إلى مواجهة جعفر بن رستم وجنوده."
- "ماذا؟" لم يفهم سابح قصده في بادئ الأمر، ولكن سرعان ما تغير ذلك عندما سمع صوت أقدام قادمة من بعيد، فتحرك على الفور إلى الزاوية البعيدة عن الباب.

كان الشر يتطاير من عيني ابن الوالي الذي جاء وبرفقته عشرة من أعتى جنوده وأشرسهم. شيء واحد فقط هو الذي منعه من إصدار الأمر بقتل مراد قُطُز.... الفضول!

- "كيف فعلتها؟! كيف استطعت أن تبدل السم من قدحك لقدحه؟!" بادر بالسؤال فور دخوله إلى الزنزانة.
- "إذن أنت تقر بأن قدحي كان مسموماً.... أهذه هي طريقتكم في إكرام الضيف؟"
- "أجب عن السؤال ولا تماطل! وإلّا رميتك للكلاب الجائعة لكي تنهش عظامك حيّاً!"
- "حسناً.... المسألة في واقع الأمر في غاية البساطة، على الأقل الآن بالنسبة إلي، ولو أنه منذ سنوات كان الأمر بخلاف ذلك، حيث كنت أجهل ما أعرفه الآن.... كم أمَلّ من الشرح، ولكن ليس هناك من بد أمام إصرارك...... لقد أحدثتُ تشابكاً كمّيّاً عبر الحقل الكهرومغناطيسي المنبعث مني ومن أبيك على المستوى الجُزَيئي، فجعلت آثار السم الذي تجرعته تنتقل إلى أبيك بشكل

آني؛ في اللحظة نفسها قمت بعملية تصحيح على المستوى الذري لخلايا جسمي التالفة من آثار السم، وإعادة تركيب الإنزيمات والبروتينات على المستوى الحيوي......"

- "ما هذا الهراء الذي تقوله؟! أتسخر مني يا ابن اللئيمة؟!!" صرخ جعفر في وجه مراد، ثم سل سيفه الذي يحمله حول خصره، وكذلك فعل جنوده.

- "ألم أخبركم من قبل بأنكم لن تفهموا شيئاً."

ما كاد مراد يفرغ من جملته حتى هوى جعفر بالسيف نحو رقبته، ولكن......

- "ما هذا الذي يحدث؟!" بدأ جعفر يرتجف خوفاً في أثناء ما كان يرى سيفه، مرة تلو الأخرى، يمر من بين رقبة مراد، وكأنه يسير في الهواء!

- "أمّا هذه الظاهرة فهي تسمى النفق الكمي، ولكن دعك من هذا الأمر، لأنك لن تفهم كلمة واحدة ممّا أقول..... أنت أمامك الآن خياران، لا ثالث لهما: إمّا أن تستمر في محاولاتك العابثة هذه لقتلي، فأضطر إلى قتلك حتى أفْتك من الملل الذي بدأت تحدثه في نفسي، أو أن تكف عن هذا الهراء، وتنزاح عن وجهي أنت وجنودك، حتى أخرج من هذه الزنزانة الحقيرة، أنا ورفيقي سابح العوّاد، دون أن أقتلكم جميعاً."

لم يكن الفزع حليف جعفر وحده، بل كل من كان حاضراً في الزنزانة! على الفور ألقوا بسلاحهم على الأرض، ثم أزاحوا أنفسهم عن طريق ذلك الغريب ليخلوا بينه وبين باب الزنزانة، فلعله يخرج، ويكف عنهم أذاه!

أهو ساحر عظيم، أم قطب من الأقطاب، أو ربما مارد من الجن،

أو شيء آخر لم يسمعوا به من قبل؟! الإجابة عن جميع هذه الأسئلة لـم تكـن تَهُـمّ في تلـك اللحظة الحرجة..... فكل مـا أراده جعفر بن رسـتم وجنوده العشـرة الأشـاوس، هو أن ينصرف عنهم هذا الغريب في أمان!

6

آثر سابح العوّاد الصمت خوفاً من إغضاب هذا القطب العظيم، فينقلب عليه! اكتفى بالسير وراءه دون أن يعلم إلى أين هو ذاهب أو لماذا طلب منه أن يتبعه. رأى الغريب وهو يسير من قبو القصر إلى قاعة الندماء بالدور العلوي دون أن يعترض طريقه أحد؛ فالجميع كانوا خائفين منه!

دخل مراد إلى قاعة الندماء أمام دهشة الجواري والخدم، متجهاً نحو الحائط الشمالي حيث كان عود من خشب السيسم الهندي معلقاً على الجدار. أمسك بالعود ثم ناوله إلى سابح....

- "هذا لك، أليس كذلك؟"

اكتفى سابح بهزة رأسٍ تدل بنعم، ثم أمسك بعوده الذي أُخذ منه عنوة من قبل عسس الوالي عندما قبضوا عليه.

- "بعد أن عاد الحق إلى صاحبه، أعتقد أنه قد آن الأوان لكي نغادر أنا وأنت مراغه. لا أحسب أن وجودنا هنا مرحب به." أضاف مراد، ثم غادر قصر الوالي ومن خلفه سابح العوّاد.

* * *

- "من أنت؟" استجمع كل ما كان لديه من مخزون الشجاعة لكي يطرح عليه هذا السؤال، بعد أن خرجا من بوابة سور المدينة.
- "لقد ذكّرتني بأيامي مع عبدالرحمن، بسؤالك هذا." ردّ عليه مراد مبتسماً.

- "عبدالرحمن؟"
- "نعم، عبدالرحمن ذو العمامة الخضراء، كما كان بعض الناس يلقبه. ألا تذكر لقاءك به قبل أعوام عدة في حانة سنقر بقرية السوت، غرب بخارى، هو ورفيقه الفارسي محمد الطوسي، والأميرة المغولية ياسمي، وزوجها الأمير الخوارزمي محمود بن ممدود، ونوران خاتون زوجة السلطان البائس علاء الدين محمد؟"
- "بلى، تذكرته، هو وجميع رفاقه، ولكني لا أذكر أني رأيتك معهم، وأنا لست ممن ينسون الوجوه."
- "صدقت. أنت لم ترَني، ولكني كنت هناك معهم، وقد علمت لاحقاً ماذا فعلت من أجلهم مع فرسان المغول، أنت وعودك هذا."

أخذ سابح يتساءل مع نفسه إن كان لهذا السبب أخرجه من السجن: من أجل أن يعلمه الأسرار الدفينة للعزف على الأوتار، فيحدُث ما يشاء من أثر في نفوس الآخرين؟..... أسرار الفارابي!

- "اسمي مراد قُطُز، ولكن الاسم وحده لا يعني شيئاً إن لم تعرف من هو حامله، ولكي أجيبك عن سؤالك: من أكون؟ فعلي أن أقص لك الحكاية من أولها؛ من حيث أظن أنها بدأت، وحينما أفرغ سأطلب منك طلباً أرجو أن تلبيه."

مرة أخرى هزّ سابح العوّاد رأسه بالإيجاب، فهل بوسعه أن يرفض طلباً لهذا المقتدر الذي فعل الأعاجيب أمام عينيه بابن الوالي وحرسه؟! إن كانت رغبة هذا الغريب أن يقص له حكاية فليفعل، ولعلها تكون حكاية تصلح للغناء كقصة عنترة، أو سيف بن ذي يزن، أو ما شابه ذلك؛ فما كان عليه إلّا أن ينصت إليه، حيث لم يجد لنفسه

مفراً آخر.....

* * *

- "فكرت كثيراً وتأملت كل ما حدث لي من أعاجيب عبر السنين، فلم أجد لها بداية منطقية سوى تلك اللحظة التي كنت أستمع فيها إلى المذياع وأنا....."
- "المذياع؟؟" قاطعه سابح مستعجباً الاسم.
- "نعم، نعم.... لوهلة نسيت أنك من سكان القرون الوسطى.... المذياع هو صندوق صغير تخرج منه أصوات بعضها يذيع أخبار العالم الذي نعيشه..... اسمعني، هناك أمور كثيرة سأذكرها، ولن تفهمها، وحقيقةً ليس لدي رغبة في شرحها لك الآن. خذ القصة بفحواها ولا تقف عند التفاصيل، وإلّا لن ننتهي أبداً؛ ورجاءً لا تقاطعني مرة أخرى حتى أفرغ، لكي لا ينقطع حبل أفكاري..... لعله كان ينبغي عليّ أن أذكر لك أن بداية هذه الأحداث وقعت ولكن في المستقبل، وقبل أن تقاطعني مرة أخرى لكي تقول لي: إني استخدمت صيغة الماضي في أمر المستقبل، سأجيبك بأن الزمن لا يعمل وفق فهمك وفهم أغلب الناس له؛ ولعلك تجد دلائل هذا في القرآن، لو أنك قرأته بتمعن من خلال آيات عدة، ولكن هذا ليس هو حديثنا الآن. يكفيك أن تعلم أن الزمان هو مثل المكان قائم وموجود بجميع تفاصيله سواءً أدركناه أم لم ندركه..... لنعد إلى البداية مرة أخرى.... كنت أستمع إلى المذياع وأنا في السيارة متجهاً إلى مستشفى الساعدي حيث أعمل. كان الخبر المذاع عن انتخاب جمال مبارك كأول رئيس مدني في مصر، وآخر يخص ليلى الطرابلسي، زوجة زين العابدين بن علي، ولكن بوصفها رئيسة لتونس..... هذان الخبران استوقفاني حينها،

ثم بدأت أسترجع بعض ذكريات حياتي، وبالأخص حول الظروف التـي اضطرتنـي إلـى أن أغادر جدة، حيث كنت أعمل، وآتي إلى الرياض. مجريات الأمور بعد ذلك بدأت تأخذ معي منحى غريباً. فما أعرفه عن نفسي كان مختلفاً عمّا كان الناس من حولي يعرفونه عنّي؛ وما تحمله ذاكرتي من أحداث لم تكن متوافقة مع ما كنت أراه..... أنـا علـى علاقـة مع سـارة القويت؟! متـى حدث هذا؟! مسـتحيل! ولكـن الأمـر لـم يقـف عند هـذا الحـد..... ظل هناك أمر محير، وهو مسألة ذلك الصداع الشديد الذي كان يحل علي ويـؤدي إلـى إغمـاءة كلمـا اقترب مني ذلك النادل التونسـي. كان وجهه مألوفاً بالنسـبة إلي، ولكن ليس من خلال عمله في مطعم المستشـفى. كأنـي أعرفـه ولا أعرفـه في الوقت نفسـه. ظل ذلك الشـعور يراودني حتى تنبهت لأمر وأنا في قصر غانم السـاعدي ما جعلني أبحث عنه. أردت التأكد من اسم عائلته. حينها بدأت أسـترجع مـا حـدث فـي مصـر وتونس مـن أحـداث، فالذكريات المختلفة التي كنت أحملها لم تكن تخصني وحدي، ولكن حتى أحداث العالم كانت مختلفة عمّا وجدتها عليه! كل شيء كان على غير شاكلته! لماذا؟! بدأت أفهم قليلاً العلّة، ولكن فيرجينيا كانت أسبق..... سؤالاً بسيطاً سألتني إيّاه، لم أفهم مغزاه حينها، ولكنه كان سؤالاً في غاية الذكاء. أرادت أن تتأكد منّي؛ إن كنت أنا أنا أم أنـا هـو؟! ثـم ألقـت بي من على برج السـاعدي، ظنّاً منها أنها بذلك قد تخلصت مني، ولكني أتيت إلى هنا. أو بالأحرى، لكي أكون أكثر دقة، نفسـي انحلت من جسـدي قبيل لحظة الارتطام، وجـاءت إلـى هـذا الزمان. لماذا إلى هـذا الزمان دون غيره؟ هذا مـا اكتشـفته لاحقـاً، ولكنّي لا أريد أن أسـتبق الأحداث..... لقد

وجدت نفسي بالقرب من أترار في حالة لا جسدية..... بالمناسبة دعني أوضح لك أمراً قد يزيح عن وجهك هذه الحالة من الدهشة التي تجعلك تبدو وكأنك على وشك أن تفقد صوابك..... جسد الإنسان عبارة عن وعاء، لا أكثر ولا أقل. النفس هي كُنْه الإنسان؛ هـي مـا تجعلك أنت، وليس الجسـد، والدماغ هو همزة الوصل. لذلك ما الموت إلّا بلاء الجسد، ولكن النفس مخلدة لا تموت. معنى هذا أن الإنسان في واقع الأمر لا يموت ولكن جسده فقط هـو الـذي يبلـى. نعـم، نعم أعرف أن هذه أمـور قد تبدو لك في غاية الغرابة، ولكن هذا هو الحال. أرجو أن تصدقني حتى تفهم قصتـي، وإلّا فأمـور كثيـرة لن تفهمها. طبعاً، هنا أنت قد تتسـاءل محقّاً: ولماذا لا يسـتطيع كل واحد منّا إذن أن يفعل ما أفعله أنا من انفصال النفس عن الجسـد؟ الواقع أن الكل قادر على هذا، بل هو عين ما يحدث في أثناء النوم، ولكن المشـكلة تكمن في مسألة التحكم. قلة فقط هم من لديهم القدرة على التحكم، وهذا عائد لأمور عدة، بحسب تقديري أهمها هو الاستعداد. اسمح لي بأن أوضح لك أكثر القصد من هذا القول..... أنت عازف ماهر على آلة العود، أليس كذلك؟ لماذا لا يستطيع كل إنسان أن يكون مثلك ماهراً في العزف على العود؟ لماذا لا يستطيع كل شخص أن يغني ويطرب مستمعيه مثلما تفعل أنت؟ هل فهمت قصدي؟ الأمر يحتاج إلى موهبة واستعداد ومثابرة ورغبة، وربما أيضاً يكون هنـاك العامـل الجينـي..... لا عليـك بهذه المسـألة الأخيرة؛ فهو مصطلح آخر يطول شرحه..... سأرجع مرة أخرى إلى التسلسل الزمنـي. أتيت إلى مشـارف أتـرار والتقيت عبدالرحمن الذي كان قـادراً علـى رؤيتـي فـي حالتـي اللاجسـدية. مـن خـلال صحبته

تعرفـت علـى الكـون من حولي، وعلى نسـبي، والأهم من ذلك، على نفسي..... هل تذكر عندما أخبرتك بأن الزمن لا يعمل وفق نظرتنا إليه؟ الزمن هو البعد الذي تسـير فيه النفس؛ بل في واقع الأمر هو أزمان وليس زمناً واحداً. فكل ما يمكن له أن يحدث هو في واقع الأمر حادث..... ما من شيء سيكون إلّا وقد كان، وما من شيء سيزول إلّا وقد زال..... لا تستعجب، فهذه هي الحقيقة التي لا يدركها إلّا قلة من البشر، وها أنت الآن قد أصبحت منهم؛ هـذا طبعـاً إن لـم تعتبرني مجنوناً يهـذي، فترمي بكل ما قلته لك عرض الحائط..... على أي حال سأحسن الظن فيك، واعتبر أنك تصـدق كل مـا قلتـه لك حتى الآن، وأكمل لك باقي القصة......

تعرفت على رجل من العارفين يُدعى حيدر الكاشف، ومن خلاله استطعت أن أرى أحداثاً تخصني ولا تخصني. لقد تداخلت عليّ الأزمنـة: زمنـي وزمن مراد الآخـر..... قريني الذي أصبح عدوي وخدعنـي أكثـر مـن مـرة! لقـد كنت كمن يسـير في عربـة يجرها حصـان بـلا قائـد، فتأخـذه إلى حيث لا يعلـم؛ ولكن دوام الحال مـن المحـال، ولقـد أدركت بعد أن تجسـدتُ ما لم أدركه حينها. العلـم! المعرفـة! القـدرة! الاسـتطاعة! أصبحـت عبر السـنين الّتي مضت ما رأيتني عليه الآن؛ ما تحسبها أنت وغيرك معجزات، هي بالنسـبة إلي مجرد ممكنات! أسـتطيع تحويل الفحم إلى ألماس! السـير علـى الماء! اختراق الحصون والجـدران! معرفة خوارزمية سير الأحداث عبر فروعها من مسارات الحياة! المستحيل أصبح كلمة لا مكان لها في قاموسي! ولكن..... ولكن على الرغم من كل هذا، مازلت أجهل كيف تجسدت هنا، وتركت جسدي هناك في الزمن الذي أتيت منه؟! لقد خدعني قريني، عندما جعلني أفك

الارتباط بجسدي القديم. أغلب الظن أنه لم يتوقع بأني سأتجسد هنا، بل ربما ظن أني سأتلاشى ويبقى هو؛ ولكني لم أتلاشَ، بل تجسدت دون أن أعرف كيف؟! لا سبيل للمعرفة إلّا بانفصال النفس عن الجسد مجدداً حتى أذهب إلى عالمه فأرى ما حدث له ولي، ففي المعرفة الخلاص! وهنا يا صديقي يأتي دورك أنت..... أنت الوحيد القادر الآن على مساعدتي، أنت وعودك هذا، إلى أن أجد طريقة أتمكن بها من الانفصال دون الحاجة إلى النوم."

ظل سابح العوّاد مشدوهاً، فاغراً فاه! لم يفهم شيئاً ممّا سمع إلّا أن هذا الرجل القادر يريد شيئاً منه ومن عوده!

- "أنا.... أنا رهن أمرك يا سيدي..... ولكن..... ولكن، ما الذي تريده مني؟"
- "أريدك أن تجعلني أنام كما فعلت مع فرسان المغول بالحانة، حتى أرى ماذا حل بقريني بعدما أطلقت عليه فيرجينيا الرصاص ببيتها، ثم عاد إلى جسده للمرة الثانية، وما الذي فعله لكي تتلاقى أزماننا فيما بعد!"

7

اقتربت من مراد سيارة الأجرة..... نظر حوله للتأكد من أنه عاد مرة أخرى إلى شارع ناساو بمدينة برنستون الجامعية..... لقد فعلها وعاد إلى نقطة الاختيار التي أرادها. هي نفسها التي عاد إليها في المرة السابقة، عندما قتله ذلك القاتل المأجور عند منعطف الطريق، ولكن الفارق هذه المرة يكمن في الاختيار. لقد اختار أن يرجع إلى هنا، هذه المرّة، ولم يجد نفسه كذلك على الرغم منه.....

أشار إلى سائق سيارة الأجرة بعدم رغبته في الركوب معه، واستمر في سيره إلى ذلك المنعطف المشؤوم، مدركاً أن القاتل الذي استأجره وجيه ذكري للتخلص منه سيظهر له هناك، ولكن هذه المرة هو من سيفاجئ القاتل، وليس العكس!

كان من المفترض أن يكون غاضباً. ليس من وجيه ذكري؛ ليس من ذلك القاتل المأجور التعس..... بل منها هي.... فيرجينيا! "الملعونة قتلتني بدم بارد! أطلقت علي الرصاص بقبو منزلها! وثقتُ فيها، واعتبرتها بمثابة أختي، ولكنها خانتني! سأنتقم منها ومن جميع شركائها في داربا!"....

ولكن لسبب ما، لم يشعر بالغضب؛ بل على خلاف ذلك، شعر بسكينة عجيبة وهو على وشك أن يقدم على فعل أمر لم يتخيل في يوم من الأيام أنه بقادر على فعله.... القتل!

أقبل عليه القاتل المأجور بخطوات سريعة عندما دخل إلى

الزاويـة المظلمـة. شـهر سـلاحه الأبيض لكي ينحره سـريعاً، ثم يفر. نظر إليه مراد بعد أن رسم على وجهه ابتسامة ماكرة، وإن كانت تنم عن حنق مرير.

- "هل تعلم أن الجسـد عبارة عن شـبكة من الأعصاب، تماماً مثل شبكة الحواسيب المتصلة ببعضها."

فوجـئ القاتـل بجملة مـراد! لقد تنبه إليه على الرغم من حرصه الشديد على ألّا يلفت انتباهه! كان هذا مدعاة لكي ينهي الأمر ويقتله سريعاً..... ولكن.....

- "أنت تشـعر الآن ببطء شـديد في جميع أطرافك..... بل تكاد لا تستجيب لك..... فالشبكة التي اعتاد مخك من خلالها أن يصدر الأوامـر، لـم تعـد أنت المسـيطر عليها. أصبح الآن لها مسـتخدم آخـر... أنـا! أرى الدهشـة علـى ملامح وجهك. لعلك تتسـاءل: كيـف اسـتطعت فعلهـا؟! السـر يكمن بكل بسـاطة فـي الموجات الكهرومغناطيسـية التـي تنتج عـن النبضات الكهربائية المنبعثة من شـبكة الأعصـاب التي بجسـمك..... نعم، فأنا لـدي القدرة على استشـعارها، ومن ثمّ التحكم فيها... ماذا يعني هذا؟ يعني أنك مجرد حشرة رهن أمري، أستطيع فعصها بقدمي متى ما شئت!"

شعر القاتل المأجور برعشة آخذة في الازدياد في جميع عضلات جسـده... ثوانٍ، وتحولت الرعشـة إلى تشنجات أردته على الأرض، فـي حالـة مـن التخبـط كمن أصابه المس! أخذ الزبـد يملأ فمه، وهو يعافـر مـن أجل التقـاط بعض الأنفاس الثمينـة..... التَوى جزعه..... ازْرَقّ جلـده...... ثـوان أخـرى، وانتهى كل شـيء...... أصبح القاتل المأجور، ذو الجسد المتين، مجرد جثة هامدة لا حراك لها!

* * *

اتصـل بالمحامـي ليخبـره بأنه قبل عرض وجيـه ذكري: المليون دولار مقابـل تـرك سوسـن، كمـا فعل في حياته السـابقة، وإن اختلف السـبب هـذه المـرة، حيـث لم يرغـب في التعاطي مـع ألاعيب وجيه وعنده ما هو أهم: "جرذان يجب التعامل معها أولاً!"....

لم يذهب إلى الشقة ليخبر سوسن بأنه سيتركها؛ خاصة أنه قد عاش ذلك المشـهد من قبل، ولـم يرغب في تكراره. اكتفى برسـالة أرسـلها مـع أحـد أصدقائه لها؛ وبعد أن طـوى تلك الصفحة معها، أخذ يفكر في خطواته المقبلة..... أول شيء كان عليه أن يفعله هو صـرف أنظـار داربـا وفيرجينيا عنه. قرّر أن يخفف قليلاً من عبقريته الدراسـية، فتعمـد الحصـول علـى درجات أقل، فقط مـا يُمَكِّنه من القبول في كلية طب جامعة هارفارد، دون المبالغة في إظهار تفوقه الخـارق؛ ولـم يكـن فـي حاجة إلى زيـارة البروفسـور آل فريدمان، كمـا فعـل فـي الحياة السـابقة، حيث كان يعـرف الآن حصيلة تلك الزيـارة، وكذلـك الحال مع مكتبة جامعة هارفارد من أجل الاطّلاع على مخطوطة جُلّاب..... كل ما حدث له في حيواته السابقة أصبح الآن فـي مخـزون ذاكرتـه بأدق التفاصيل؛ بـل إن الموت كان يزيده قوة على قوة، ويزيد من قدراته! فكلما انفصلت نفسـه عن جسـده، وذهب إلى ذلك العالم المحجوب، ازداد قدرة؛ ولكن شيئاً ما حدث فـي هـذه المـرة الأخيرة لفت انتباهه: لقد رأى نفسـاً تشـبهه وإن لم تكن هو. عندما اقترب منها شعر برجفة عجيبة جعلته يرى جزءاً من أسـرار الكون العجيبة! شـعور بنشـوة المعرفة التي ما زادته إلّا قدرة واستطاعة..... ولكن لماذا؟

- "لمـاذا الأمـر اختلف عندما اقتربت منه؟ ومن هو ذلك الشـخص

الـذي يشـبهني؟" أكثـر من سـؤال بدأ يـراوده، كان عليـه أن يجد الإجابـة لهـا جميعـاً من غير الاسـتعانة بفيرجينيـا، على الأقل في هذه المرحلة.....

- "تباً لها ولداربا! من أين أتوا بمسحوق الوسَكا؟! لَكَمْ أنا في حاجة إليـه الآن! ولكـن لا بأس، فكل شـيء فـي أوانه طيِّب، خاصة أن الزمن لـم يعد يُشَكِّل حاجزاً أو عائقاً بالنسبة إلي!"

* * *

هذه المرة رفض دعوة ناصر القويت عندما انتقل إلى بوسـطن، بل وأصرّ على موقفه. أراد أن يبتعد مؤقتاً عن سارة، حتى لا يصيبها أي مكـروه بسـببه كمـا حـدث فـي المـرة الماضية؛ ولكنه لم يسـتطع الانقطاع عنها تماماً، فاكتفى بالذهاب بين الفينة والأخرى إلى المقهى نفسه الذي كانت تذهب إليه بشارع نيوبيري، بالقرب من شقة أخيها. رؤيتهـا كانـت تكفيـه في الوقت الحالي؛ على الأقل حتى يرى لنفسـه مخرجاً مع فيرجينيا وداربا.....

رآها بعد أسبوعين، ومرات عدة، من المجيء إلى المقهى. كانت بمفردهـا، تسـتمتع بالكابتشـينو المصنوع من البـن البرازيلي والحليب قليـل الدسـم..... لـم تتعـرف عليه.... كان مثله لهـا كمثل باقي رواد المقهـى فـي هـذا الوقـت من نهار يوم السـبت..... بـدت له في غاية الجمـال كعادتهـا. لـم تضـع مسـاحيق كثيـرة علـى وجههـا، فقـط ما كان يكفـي لإبـراز بعـض مفاتنهـا، مثلما كانت تفعـل كلما قدمت إلى شـقته.... "هل هناك شـخص آخر في حياتك يا سـارة؟!" أخذ يتساءل مع نفسه.....

قـرّر أن يتبعهـا، ومـن غيـر أن تشـعر به فعل حتـى دخلت فندق

الشيراتون بمركز البرودنشل. لم تكن المسافة بعيدة عن المقهى، لذلك قضتها مشياً. الطقس الجميل، في ذلك اليوم من شهر يوليو، كان يسمح بذلك..... ذهبت إلى المصعد، فلحق بها..... كم هي قريبة وبعيدة في ذات الآن..... الفاصل بينهما كان بضع سنتمترات فقط، ولكنه أبعد بكثير مما كان يتمنى في تلك اللحظة..... انتظر حتى ضغطت على زر الطابق الذي ستذهب إليه، ثم ضغط على زر الطابق الذي تحته مباشرة. عندما فُتح باب المصعد، خرج منه متجهاً إلى الدرج، ثم هرول إلى الطابق الأعلى. أراد أن يرى إلى أين ستذهب..... نظر خلسة إليها وهي تخرج من المصعد، متجهة نحو أحد أجنحة الفندق. ما إن قرعت الباب حتى فُتح على الفور، ثم رأى يداً تسحبها بلهفة وشوق إلى الداخل، كما فعل هو معها أكثر من مرة!....

– "تباً لك يا سارة! من هو عشيقك الجديد؟!"

أراد أن يقتحم خلوتهما، وكاد أن يفعل، لولا تماسكه في آخر لحظة..... فهي لم تخنه، أقنع نفسه. الشخص الوحيد الذي كانت تخونه الآن هو زوجها غانم الساعدي..... "ذلك الوغد لا يستحقها! هو مجرد بَنكها الخاص!"......

اكتفى مراد بهذا القدر من سارة، وقرّر الانصراف. لم تكن لديه أي رغبة بالبقاء في هذا الفندق حيث كانت سارة بين أحضان عشيقها الجديد.... مرّ مسرعاً من قاعة الاستقبال متجهاً نحو البوابة، ولكنه فجأة توقف عندما شاهد رجلاً جالساً على أريكة، فتعرف عليه فوراً..... هو نفسه الرجل الذي كان في شقته ينتظره، في اليوم الذي علم فيه بمقتل سارة! اليوم الذي أُقتيد فيه إلى منزل فيرجينيا! اليوم

الـذي قُتـل فيـه بـدم باردا "ولكن مـاذا يفعل هنا؟!" أخذ يتسـاءل، ثم سـرعان مـا تنبـه للإجابـة عن هذا السـؤال وعن السـؤال الآخر الذي راوده: "مـن هـو عشـيق سـارة؟"..... إنه وليام برمـن.... مدير داربا، الجناح البحثي السري لوزارة الدفاع الأمريكية!

* * *

أمضى عامه الأول في بوسطن دون أن يفعل أي شيء قد يلفت إليه الأنظار. لم يحاول اعتراض سبيل فيرجينيا في الحديقة، كما فعل في المرة السـابقة، ولم يتظاهر بأنه يعشـق رياضة الركض..... تظاهر بأنـه مثـل أي طالـب نجيب آخر بجامعة هارفارد، مضطر لكي يمضي أيامـه ولياليه بيـن المحاضرات، والمعامل، وأروقة المكتبات؛ وعندما حلّـت إجـازة الصيـف، قـرّر أن يذهب إلى السـعودية، كأغلب الطلبة السعوديين الذين لم يكن بمقدور أهاليهم أن يأتوا إلى أمريكا، لسبب أو لآخر......

* * *

وجد منزل أبيه، الذي أصبح الآن منزله، كما تركه منذ سـنتين، إضافة إلى طبقة سميكة من الغبار في كل ركن وزاوية منه. ذهب إلى حجرة المكتب وأخذ يسترجع ذكرياته مع أبيه الذي رغب في كشف سر ما أصابه من العجائب في أثناء النوم، وإن لم يعلم حينها أن الأمر أعقد بكثير مما كان يتخيل، وإنه سيأخذ أبعاداً تفوق كل وصف..... تذكر عندما أخبره عن مخطوطة جلّاب وعن صاحبة تلك الأبيات من الشعر التي كُتبت على مقام قطز، أم الوفا.... كان أبوه ينوي البحث أكثر عن سـر تلك الأبيات وعلاقتها بالمقام وبأسـرته... ما الذي يا ترى لا يعلمه عن أسرته؟..... وعن قطز؟..... أخذ يسترجع ما قالته

له فيرجينيا في لقائهما الأخير قبيل أن تطلق عليه الرصاص:

- **"شيء مؤسف أليس كذلك؟ أن يعيش الإنسان، ويموت دون أن يدرك حقيقته، ودون أن يدرك أي شيء عن أصله. الذي لا يسأل عن ماضيه، محتوم عليه أن يكرر أخطاء أجداده نفسها، وأنت لا تعلم أي شيء عن ماضيك. أنت لا تعلم حتى ماذا يعني اسمك: قطز؟!"**

ماذا كانت تقصد؟..... أخذ يتساءل مع نفسه..... ما الذي كان يجهله عن نسبه وكانت تعلمه هي؟ ما هو ذلك الشأن الذي يضرب بجذوره في عمق التاريخ، وتبقى آثاره إلى هذه اللحظة؟!.... أسئلة كثيرة لم يملك لها الإجابة، ولكن شيئاً ما بداخله أشار عليه بالبحث عنها عند شخص آخر قريب منه....

* * *

- "كِده يا مراد! سنتان دون أن تتصل بي لكي تطمئنني عليك، ولا كأن لك جَدّة!" عاتبته جدته آلاء وهي تحتضنه بلهفة وشوق فور رؤيتها له، عندما فاجأها بزيارة في منزلها بمكة.
- "سامحيني يا جدتي، ولكن الدراسة أخذتني." أجابها بكذبة مفضوحة.
- "الدراسة هي التي أخذتك أم أمر آخر؟!"

فطن مراد إلى ماذا كانت تشير، ولكنه تظاهر بعدم فهم قصدها.

- "لماذا يا مراد؟! لماذا فعلت ما فعلت؟! أهكذا رباك أبوك، رحمة الله عليه؟!" لم تمهله فرصة بعد الترحاب، إذ بادرت بمعاتبة شديدة، ودرس في الأخلاق لم يكن مشتاقاً إلى سماعه.
- "يا جدتي....."

- "تهرب مع صديقة أمك وأخت زوجها، وتعيش معها في الحرام!"
- "يا جدتي الأمر ليس كما تحسبين! كان يجب تلقينهم جميعاً درساً على ما فعلوه، وقد نجحت خِطَتي، وطَلَّق ذلك الخسيس منال!"
- "وهل يرضيك أن تتسبب في طلاق أمك؟!"
- "منال لم تعد أمي بعدما باعتني أنا وأبي! بل هي التي تسبّبت في وفاته، حينما تخلت عنه في أحلك الظروف، وهرعت لتتزوج من ذلك الكلب الذي عرَّفته عليها أخته الساقطة!"
- "مهما فعلت يا مراد، تبقى هي أمك وواجب عليك طاعتها.... ربنا يقول: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.... يا ولدي، لا تجعل غضبك يخسرك آخرتك."

أراد أن يصرخ في وجهها: "أنا لا أفهم لماذا تدافعين عنها؟! ألم يكن هذا ولدك الذي مات قهراً نظير خيانتها له؟!" ولكنه أمسك لسانه في آخر لحظة..... لقد أخذ الحوار مساراً آخر غير الذي كان ينويه؛ لذا كان عليه أن ينهيه الآن قبل أن يتفاقم أكثر.....

- "حاضر يا جدتي، وعلى العموم لقد أنهيت علاقتي بسوسن منذ أكثر من عام الآن."
- "بارك الله فيك يا مراد، أنت هكذا أرحتني."

لم يجبها، بل صمت قليلاً حتى يذهب أثر تلك المحاضرة التي سمعها من جدته في الفضيلة. أراد أن يفتح معها موضوعاً آخر يهمه أكثر من المواعظ ودروس الأخلاق الحميدة.....

- "من نحن يا جدتي؟"

فوجئت آلاء من سؤاله، فاكتفت بنظرة لا تخلو من الدهشة، دون

أن تعرف بماذا تجيبه؟

- "أقصد، ما هي أصول عائلة قُطُز؟ وماذا يعني هذا الاسم؟"
- "ممكن أعرف سر اهتمامك المفاجئ هذا؟"

ابتسم مراد ثم أجابها.....

- "زميلة لي في أمريكا سألتني، ولم أعرف كيف أجيبها." قال رداً على سؤالها، ثم أضاف في سره حانقاً: "فيرجينيا تَبّت الملعونة، حفيدة تينيكر الكاهن!"
- "ما أعلمه أنّنا ننتمي إلى ملك مصر سيف الدين قطز، بطل معركة عين جالوت التي هزم فيها المغول."
- "ولكن هناك أمراً غير مفهوم. " صمت مراد قليلاً ليفكر في مسألة، قبل أن يكمل.....
- "ما أعلمه عن سيف الدين قطز أنه قُتِل، وهو في طريقه من عين جالوت بفلسطين إلى مصر، وأن قبره غير معلوم.... فما علاقة ذلك المقام الذي يوجد في شرق أوزبكستان به؟"
- "تقصد المقام الذي زرته أنت وأبوك، رحمة الله عليه، قبل أعوام؟ سؤال وجيه، ولكن.... هذه من الأمور التي ليس عندي لها تفسير.... كلنا نشأنا، أن وأبي وجدي وجد جدي وباقي الأجداد من قبلهم، على أن ذلك المقام يخص جدّنا قطز.... من الذي بناه؟ وهل يوجد فيه رفات سيف الدين قطز؟ أم أنه مجرد نصب تذكاري؟ لا أحد يعلم."
- "هل يعلم أي شخص على الأقل متى بُني ذلك المقام؟"
- "هو قديم، لا شك في ذلك. لكن متى تحديداً بُني؟ لا أحد من هذا الجيل يعلم.... تَذَكر يا مراد أن أموراً كثيرة ضاعت وطُمست

في زمن الاتحاد السوفيتي. عوائل بأكملها هُجِّرت وأخرى فرَّت من قمع الروس..... أوراق ومخطوطات ضاعت، وبعضها حُرق عمداً..... والنتيجة أنه ستبقى أمور هكذا دون تفسير....."

- "مستحيل! كل شيء لا بد أن يكون له تفسير." قاطعها مراد، غير راضٍ عن إجابة جدته التي فوجئت كذلك من هذا الوله الذي بدا على حفيدها من أجل معرفة تاريخ الأسرة القديم، وكأن ذلك الوله العجيب هو الذي جعل مراد يقوم من موضعه، ليذهب إلى النافذة، ويطل منها نحو الأفق البعيد، في حالة من التأمل...... تأمل ما سمع وما لم يسمع.
- " دعك من هذا الموضوع الآن، وقل لي: هل أكلت شيئاً؟ هل تحب أن أحضر لك الطعام؟"
- "ها؟... لا شكراً.... أكلت." لم تكن لديه شهية للطعام، بعد أن أزاحتها شهيته للمعرفة.... فبقدر ما انكشفت له أمور كثيرة هي أشبه بالسحر، إلّا أنه كان على يقين بأن ما خفي كان أعظم بكثير! أخذ يسترجع تلك الرحلة اللاجسدية التي خاضها مع فيرجينيا إلى خيمة تبتنكر، وتلك الفتاة الّتي دخلت خلسة الخيمة، فتمكنت من رؤيته، وغضب الكاهن الشديد منها..... ألهذا قتلته فيرجينيا، أم أنها كانت تضمر له السوء من قبل؟! ومن كانت تلك الفتاة؟ ولماذا استطاعت رؤيته؟
- "جدتي، ما معنى قُطُز؟ هل يرمز الاسم إلى شيء ما؟"

ضحكت آلاء قطز، ثم تلعثمت قليلاً قبل أن تجيبه.....

- "والله يا ولدي ما سمعته لا أدري إن كان صحيحاً أم لا، ولكن.... يقال إنها كلمة مغولية قديمة تعني الشرس أو شيئاً من هذا القبيل."

- "كلمة مغولية؟! وما علاقتنا بالمغول؟ هل نحن من أصول بخارية أم مغولية؟!"
- "على مهلك علي يا مراد، فأنا لست حمل كل هذه الأسئلة يا ولدي..... بعدين تعالَ هنا.... أنت الذي يجب أن تجيبني الآن بكل صدق؛ هل الأمر فعلاً متعلق بسؤال عابر جاءك من زميلة لك؟ أم أن الأمر له بعد آخر أنت تُخبيه عنّي؟"

فاجأته بسؤال لم يتوقعه، وكأنها كانت تعلم أن هناك ما لم يُفصح عنه.....

- "أعلم أني لست في ذكائك يا مراد، ولكن هذا لا يعني أنّي غبية، أو أنّي لا أفهم ما الذي يدور بخاطرك..... هذه الأسئلة كلها متعلقة بما حدث لك منذ سنين عندما عدتَ من زيارتك للمقام مع أبيك، أليس كذلك؟ هل مازالت تأتيك تلك الرؤى في المنام؟"

لم يجبها..... ظل صامتاً، وكأنه لم يسمع السؤال، واكتفى بالنظر مرّة أخرى من النافذة.

- "هل انقطع عنك النوم؟" فاجأته بالسؤال.....

أدار مراد رأسه نحوها على الفور..... "كيف علمت بالأمر؟!"

- "لا تستعجب..... كنت أحسب أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد جزء من قصص وحكايات، من باب الخرافة والخيال الواسع، ولكن عندما أخبرني أبوك بما كان يحدث لك في أثناء النوم، أدركت حينها أن تلك القصص التي سمعتها من أمي ربما لم تكن كلها من ضرب الخيال..... طارق لم يفتح معي السيرة مرة أخرى، ربما لأنه لم يدرك أهمية الأمر، أو لأنه انشغل في كتابه

الـذي جلـب عليـه المصائب، ولكنّني في قرارة نفسـي تمنيت أن يكـون السـبب شـيئاً آخـر.... مثـل أن يكون الأمر قـد انتهى..... مجـرد حالـة طارئة ألمّت بك، ثم زالت..... ولكن إصرارك على السؤال وراء السؤال جعلني أدرك أن الأمر لم ينتهِ."

- "ما الذي تعلمينه عن هذه الحالة؟" سـألها بحذر، دون أن يفصح لها عن الكثير.
- "مع الأسف لا أعلم سوى القليل، ولولاك لما صدَّقت أي شيء منه..... أنا لسـت الشـخص المناسـب الذي يستطيع إجابتك عمّا يدور في خاطرك. هناك شخص آخر أقدر مني بكثير، لعله يفيدك."
- "من؟!"

ترددت قليلاً قبل أن تجيبه.....

- "الشيخ عبدالرحمن أبو الحمايل..... العارف."

* * *

عبدالرحمن أبو الحمايل...... لم يسـمع بهذا الاسـم من قبل، ولا يـدري إن كان لا يـزال علـى قيـد الحياة.... ظـل يفكر فيما قالته لـه جدتـه، وهـو فـي طريقه من مكـة إلى جدة..... التقتـه مرة واحدة منذ سـنين طوال، عندما حلّ ضيفاً على جدها أحمد قطز، في رحلة حجـه. كان لا يكبرهـا كثيـراً، وعلى الرغم مـن هذا كان جدها يُجله، ويقدمه على الجميع دون اعتبار فارق السـن. عندما سـألته عن سـر هذا الإجلال الكبير والمبالغ فيه لرجل لم تحسـب أن يكون له ذلك التحصيـل العلمـي الكبيـر لصغر سـنه، أخبرها بأن علمـه يفوق عمره بكثير، بل أعمار جميع من حوله.....

- "إنه العارف يا آلاء!"

تعجبت حينها لهذا الوصف: العارف؟!

لطالما سمعت عن أناس يمتلكون أسرار سنن الكون، ولديهم القدرة على تسخيرها كما يشاؤون، ولكنها ظنت أن الأمر لا يعدو أن يكون من باب المبالغات والخرافة. صحيح أنها تؤمن بكرامات الأولياء، ولكنها اعتبرتها خصائص مَنَّ الله بها على بعض عباده الصالحين، ولكن ما كانت تتحدث عنه الأساطير عن علم العارفين، فهذه مسألة أخرى تماماً تكاد تكون أشبه بالخوارق!

- "ولكنه يبدو لي مجرد رجل كباقي الرجال."
- "هذا لتواضعه."
- "أو ربما لأنه بالفعل مجرد رجل، ولكن لديه بعض العلم."

لم يجادلها، وتركها لكي يجلس مع ضيفه، ومعه أبوها وزوجها الذي آثر أن يبقى مع حماه حتى ينصرف الضيف.... بعد انصرافه جاء إليها زوجها ممتقع الوجه، عليه آثار الدهشة، فسألها على الفور:

- "أنت حامل؟!"

استغربت من سؤاله العجيب، فلو كانت حبلى لكان أول من يعلم، خاصة أن الله لم يرزقهما بطفل منذ أن تزوجا قبل خمسة عشر عاماً.... فأجابها بأن عبدالرحمن بارك له حمل زوجته، ووصّاه بأن يسمي مولوده "طارق" لأنه لن يطرق عليهما مولود غيره!

كان هذا هو أول وآخر لقاء لها ولزوجها بعبدالرحمن، الذي علم بحملها قبل أن تعلم هي، من نظرة خاطفة، عندما دخل منزل أبيها، وسلّمت عليه من بعيد!

* * *

- "وكيف يمكنني الوصول إليه؟ هذا إن كان لا يزال على قيد

الحياة." سأل مراد جدّته آلاء.

- "ما أعلمه عنه أنه من سكان منطقة جبل المُقَطَّم بالقاهرة. لقد زاره جدي أحمد هناك مرة واحدة قبيل وفاته بعام."

وكان هذا كل ما قالته جدّته له عن عبدالرحمن أبو الحمايل الذي التقته منذ نحو أربعين عاماً.

* * *

- "هللو سير، وِلْكَم تو كايرو...."

استغرب مراد لماذا يحدثه سائق الأجرة بالإنجليزية؟!

- "يو فروم كوريا؟"
- "لا، أنا لست من كوريا." أجابه مراد، وقد أدرك سرّ اللبس..... ملامحه البخارية!
- "اسم النبي حارسك! أنت بتتكلم العربية مثلنا؟!" أصر سائق الأجرة على معاملة مراد كسائح أجنبي من شرق آسيا.
- "أنا سعودي."
- "معلش يا باشا، اللي ما يعرفك يجهلك.... إلى أين العزم إن شاء الله؟"

كانت هذه أول مرة يزور فيها مراد القاهرة.... لم تعجبه كثيراً شوارعها المُتّسخة وزحمة سكانها. الطريق من المطار إلى فندق سميراميس استغرق قرابة الساعة بسبب شدة الازدحام.... عندما وصل إلى الفندق، أخذ يتأمل النيل المُتسخ الذي يطل عليه. تذكر مقولة هيرودوت: "مصر هبة النيل".... بدا له، وكأن هذه الهِبة أبى أهلها أن يحافظوا عليها، فأهملوها حتى أصبحت مجرد ذكرى بلد خلّفت وراءها ما شهدته من أيامها الحلوة!

- "ويلكوم تو سميراميس."

ناول مراد جواز سفره السعودي لموظف الاستقبال الذي شعر بشيء من الحرج على اللّبس الذي وقع فيه....

- "أهلاً يا فندم، نوَّرت مصر."
- "أهلاً.... هل بالإمكان ترتيب سيارة خاصة مع سائقها؟"
- "بالطبع ممكن. هل هناك مكان محدد تحب الذهاب إليه حتى أبلغ السائق؟"
- "جبل المقطم." أجاب مراد، فابتسم موظف الاستقبال على الفور....
- "واضح أن حضرتك تعلم ماذا تريد."

لم يفهم مراد قصده، فأضاف موظف الاستقبال......

- "القطة السوداء."
- "القطة السوداء؟" ردّد مراد، مستعجباً الاسم.

مرة أخرى شعر الموظف الشاب بالحرج عندما أدرك أن الزبون الجديد لم يكن "معه على نفس الخط!".... استغرب أنه ذاهب إلى المقطم، ولم يكن على علم "بالقطة السوداء"!

- "لو سمحت لي بالسؤال.... هل تريد الذهاب إلى سفح المقطم أم أعلى المقطم؟"
- "أريد الذهاب إلى منزل عبدالرحمن أبو الحمايل، هل سمعت به؟!" ردّ عليه مراد بجلافة، مُظهراً الانزعاج من كثرة أسئلته.
- "لا يا فندم، لم أسمع به.... آسف." أجابه موظف الاستقبال بشكل مقتضب بعد أن وصلته الرسالة.

* * *

- "يا باشـا إحنا لفّينا المقطم حتة حتة..... لا بد من عنوان واضح حتى نصل إلى المكان الذي تريده." قال السائق بعد مضي أكثر من ساعة في البحث عن منزل عبدالرحمن أبو الحمايل، وقد أوشكت الشمس أن تغيب.
- "لو كان لدي عنوان لأعطيتك إياه." أجاب مراد بتذمر.
- "احتمال يكون المنزل قد هدم في الزلزال الكبير."
- "متى كان هذا الزلزال؟"
- "من حوالي أربع سنين في عام إثنين وتسعين."

احتمالٌ عَقَّد الأمور بالنسبة إلى مراد، فمن الوارد أيضاً أن يكون الرجل قد مات في ذلك الزلزال، خاصة وأنه كبير في السن؛ فبحسب رواية جدته، الرجل كان يكبرها ببضع سنوات، عندما رأته منذ أربعين عاماً، ما يعني أنه كان حول الثمانين، عندما وقع ذلك الزلزال.....

- "ربما لو سألنا أي أحد من عائلة أبو الحمايل..... "
- "وأين هي هذه العائلة يا باشا؟ أنا شخصياً لم أسمع بها من قبل." صمت السائق قليلاً، ثم فجأة بادر بحماس.....
- "أنـا جاتنـي فكـرة.... لو كان من المتضررين فـي حادثة الزلزال، جائز يكون حصل على شقة في سكن الزلزال."
- "وأين يقع هذا السكن؟!" تساءل مراد بشغف، وقد شعر ببصيص من الأمل لاقتراح السائق....
- "هنا في المقطم، على نهاية شارع نمرة تسعة."

بعد دقائق قليلة كانت السيارة تدور بين عمائر فقيرة ومتسخة، وإن بدت جديدة بعض الشيء، وكأنها أرادت أن تعكس حال سكانها.... توقف السائق بجوار كشك للسجائر، وسأل صاحبه إن كان قد سمع

عن عائلة اسمها أبو الحمايل في هذا الحي؟ فأجابه بهزة رأس دالة على النفي.....

- "أوامر سعادتك يا باشا.... تحب نواصل البحث؟"

لم يجد مراد جدوى من مواصلة البحث عن أثر شخص لا أثر له، فطلب من السائق أن يعود به إلى الفندق.....

خرجت السيارة من سكن الزلزال متجهة نحو ميدان النافورة عندما لمح مراد علامة كبيرة مضاءة بالنيون على مبنى مستقل، منزوٍ عن باقي المباني التي من حوله، مرسوم عليها قطة سوداء....

- "ما هذا المكان؟" تساءل مراد عندما لفت انتباهه أنه المكان نفسه الذي سأله موظف الاستقبال إن كان يود الذهاب إليه بجبل المقطم؟

- "القطة السوداء..... هذا أشهر بار وملهى ليلي هنا في المقطم. أغلب زبائنه من الخليج." تباطأت السيارة قليلاً، ثم تساءل السائق على استحياء:

- " تحب سعادتك نقف عنده؟"

لم يمانع مراد، حيث وجده مكاناً مناسباً لشخص مثله لا ينام، فيقضي فيه ولو جزءاً من ساعات الليل....

رحّب به حارس البوابة، رجل مفتول العضلات، طويل القائمة، ذكّره بذلك الحارس الذي رآه مع فيرجينيا، ثم من بعد ذلك مع وليام برمن. لم يفهم لماذا جُل الحراس يرتدون بذلات سوداء ونظّارات داكنة؟ ما السر الذي يجعل اللون الأسود مخيفاً؟ أهو تذكير بسواد الليل وما فيه من مفزعات؟! أم أنها محاولة للتشبه بغموض الظلام؟ أيّاً كان السبب، ظنّ مراد أنها صورة تقليدية ومبتذلة تخلو من

الابتكار؛ لذلك عندما فتح له الباب وقال: " كل سنة وأنت طيّب يا باشا"، تجاهله ولم يعطِه "البقشيش" كما كان يفعل باقي روّاد الملهى الليلي، بل لم يلتفت إليه.....

جلس على " البار" وطلب من النادل "كوكتيل مارجريتا"، مشروب سارة المفضل..... استغرب مراد أن النادل لم يخاطبه بالإنجليزية كما كان يفعل كل من يقابله أول مرة، ظنّاً أنه من كوريا أو الصين أو اليابان..... لحظات قليلة، ثم جلست بجواره فتاة حسناء، رشيقة القوام، لم تكمل عقدها الثاني، وإن كانت المساحيق التي على وجهها تجعلها تبدو أكبر من سنها.....

- "ممكن تِوَلّعلي؟" سألته بتغنج.

أخرج لها ولّاعته ليشعل لها السيجارة التي تحوط بها شفتاها المكتنزتان.

- "مِرْسي.... حضرتك من جدة؟"

أجابها مراد بنعم، مستغرباً كيف عرفت؟!

- "أنا عندي كثير أصدقاء من السعودية.... من كل مكان؛ جدة، الرياض، الدمام..... البارحة فقط تعرفت على واحد من عنيزة وصاحبه من بريدة."

ابتسم لها مراد وقد أعجب بفطنتها التي جعلتها تدرك أنه بخاري من المنطقة الغربية بالسعودية، وبلباقتها حيث لم تعلق على ملامحه الآسيوية التي قد تشكل حرجاً عند بعض ضعاف النفوس.

- "أنا عطشانة، إيه رأيك لو نطلب من البارمان يفتح لنا شامبانيا، حلاوة التعارف؟"

- "أبي فوق الشجرة." تمتم مراد، ثم طلب من النادل أن يفتح لهما

قنينة شامبانيا.

- "أفندم؟!" تساءلت الفتاة باستهجان.
- "تذكرت مشهداً من فيلم أبي فوق الشجرة." أجابها مازحاً.
- "وعلى كده أنت عبدالحليم وأنا نادية لطفي؟!" حاولت مسايرته في المزحة.
- "بل أنت أجمل منها بكثير، ولو أنه ليس هذا المشهد الذي كنت أقصده."

ضحكا واستمرا في الشرب حتى فرغت القنينة، حيث بدأ يظهر عليها أثر السكر، دون أن يمسه في شيء، وكأنه يشرب ماءً..... "إذن هذه هي القطة السوداء التي ذكرها موظف الاستقبال!" أخذ يردد مع نفسه، مستمتعاً بصحبة الفتاة، ثم تذكر سؤاله عمّا إذا كان يرغب في الذهاب إلى سفح جبل المقطم أم أعلاه؟.... هو الآن في أعلى الجبل، فهل توجد أيضاً أماكن ممتعة كهذه في سفح الجبل يقضي فيها ما تبقى من الليل؟

- "هل ترغب في التكفير عن الشامبانيا التي شربتها؟! طب انتظر أولاً حتى نفرغ من كل شيء." أجابته عن سؤاله حول سفح جبل المقطم بعد أن أطلقت ضحكة مدوية أسمعت النادل وكل من كان بجانبهما.

حاول مراد أن يستفسر منها أكثر، ولكنها كانت قد بلغت حالة من السكر جعلتها تثرثر في موضوعات شتى، بعيداً عمّا كان يسأل عنه.

- "يا باشا، سفح جبل المقطم للدراويش، وليس من مقام شخص مثلك." أجابه النادل رأفة به، بعد سماعه لأطراف الحديث.

- " ماذا تقصد؟" بدأ اهتمام مراد يتزايد بشكل ملحوظ، ممّا زاد من استغراب النادل.
- " هناك، توجد أضرحة عددٍ من كبار الأولياء والشيوخ، لا يذهب إليها سوى المساكين وبعض السوّاح الأجانب."

وكأن ومضة اشتعلت! قفز مراد من على كرسيه، بعد أن شعر بأنه قد اقترب من مبتغاه، متجهاً على عجل نحو المخرج!

تعجب النادل من فعله المفاجئ، وتعجبت فتاة الملهى التي حسبت أن ليلتهما معاً لم تنتهِ بعد، وأنه لن يتركها، وسيأخذها معه إلى محل إقامته، لكي يقضي منها وطره!

* * *

انتقل مراد من ضريح سلطان العلماء، العز بن عبدالسلام، إلى مشهد السيدة نفيسة، ومن ثمّ إلى مقام أبي ذر الغفاري، ومن بعده إلى ضريح ذي النون المصري، ثم ضريح أحمد بن عطاء الله السكندري، دون أن يجد شخصاً قد سمع عن عبدالرحمن أبو الحمايل. بدأ يشعر باليأس من هذه الرحلة التي لم تأتِ أُكلها حتى الآن، عندما شاهد مسجداً متواضعاً، بوّابته القديمة محاطة بفانوسين صغيرين يُشِعّان بضوء أخضر. لفت انتباهه لوحة كبيرة على السور الخارجي مكتوب عليها: مسجد سيدي عمر بن الفارض، وبجوار بوّابته، فوق نافذة مزخرفة، لوحة أخرى مكتوب عليها: هذا مقام سيدي عمر بن الفارض سلطان العاشقين.....

استغرب مراد من هذا اللقب: سلطان العاشقين..... لم يكن يعلم أن العُشّاق تقام لهم الأضرحة..... "لعل قيساً له ضريح هو الآخر." ردّد مع نفسه ساخراً في أثناء دخوله إلى المسجد..... سأل أحد

الحاضرين عن قَيِّم المكان؟ فدلّه على رجل ستيني كان جالساً يقرأ القرآن بالقرب من المحراب..... اقترب منه مراد....

- "مساء الخير."

التفت القَيِّم إلى مراد ثم هزّ رأسه متضجراً.....

- "يا ولدي، رائحتك تفوح بالخمر. أما سمعت قول الله عز وجل: لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى؟!"
- "ولكني لست ثملاً، ولم آتِ إلى هنا لكي أصلّي." أجابه مراد على مضض.
- "إذن ما حاجتك من هذا المكان الطاهر؟!"
- "جئت لكي أسألك عن شخص لعلّك سمعت به: عبدالرحمن أبو الحمايل؟"
- "يااااه.... الشيخ عبدالرحمن أبو الحمايل! والله زمان.... لم أسمع أحداً يردّد اسمه منذ سنين!" ابتهج الرجل لسماع الاسم الذي بدا واضحاً أنه يعرف صاحبه.....
- "هذا الرجل الفاضل لم يعد يعيش هنا. لقد غادر المكان منذ زمن؛ ودّعني ذات يوم قائلاً: إنه ذاهب إلى تونس، ليقضي حاجة له هناك، وبعدها انقطعت أخباره."
- "تونس؟!" ردّد مراد شاعراً بخيبة أمل..... إذن كل هذه الرحلة كانت دون فائدة!
- "ولكن يا ولدي ما شأنك أنت به؟"
- "هو صديق قديم للعائلة؛ أردته في مسألة ما..... هل له أي أقارب هنا في القاهرة؟ فلعلهم يفيدوني أكثر عنه."

ابتسم القَيِّم لسؤال مراد، ثم أجابه....

- "الشيخ عبدالرحمن مقطوع من شجرة. لا يوجد له أقارب، لا هنا

فـي القاهـرة ولا فـي أي مـكان آخر على حد علمـي. حتى منزله الذي كان يسكنه في جبل المقطم، هدّته الحكومة بعدما ظل فارغاً سنوات، لكي تقيم عليه إحدى عمائر سكن الزلزال."

شـكر مـراد الرجـل، ثـم قام متجهـاً نحو المخـرج، ولكنه فجأة توقف قبل أن يصل إلى الباب، ثم عاد إلى القَيِّم مرة أخرى....

- "لدي سؤال ليس له علاقة بما كنّا نتحدث فيه قبل قليل، لو أذنت لي.... هي مسألة أثارت فضولي ليس أكثر."
- "تفضل يا ولدي؛ اسألني ما شئت."
- "لماذا كل هذه الأضرحة حول سفح جبل المقطم؟"

ابتسم الرجل مرة أخرى لسؤال الفتى.....

- "لأنه جبل مبارك، ارتاده الصالحون أحياءً، وحرصوا على أن يدفنوا عنـده أمواتـاً..... تقـول الروايات القديمة: إن الله عندما طلب من موسى أن يأتيه حتى يكلمه فوق جبل الطور، أمر جميع جبال مصر أن تقدم له قرباناً. كل الجبال قدمت شيئاً ممّا لديها من خيرات، إلّا جبل المقطم، قدّم كل ما كان عليه من أشجار ومروج وعيون، حتـى أصبـح قحلاً كمـا تراه اليوم، فغارت باقـي الجبال، ففعلت مثلـه، حتـى أصبحـت مصر صحراء؛ لذلـك جعل الله أرض مصر مباركة، وأطهر بقعة فيها هو هذا الجبل؛ من يأتيه كأنه يأتي الجنة."
- "لـم أكـن أعلـم أن فـي الجنة توجد القطة السـوداء." همس مراد، ساخراً ممّا سمع.
- "جبل المقطم ليس شأنه عظيماً فقط عند المسلمين فحسب.... "

واصل القَيِّم حديثه دون أن يلتفت إلى ما قاله مراد.....

- "بـل أيضـاً عنـد الأقبـاط. فـي مرويّاتهـم أنه في زمـن المعز لدين الله الفاطمـي، أراد السـلطان أن يبنـي مدينتـه القاهرة، ولكن جبل

المقطـم كان فـي الطريق، فأشـار عليه وزيـره اليهودي يعقوب بن كلـس بـأن يطلـب من البابا ابرام السـرياني، بطريَـرك الأقباط، أن ينقل الجبل عطفاً على ما جاء في الإنجيل على لسان المسيح: لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولا يكون شـيء غير ممكن لديكم.... أراد الوزير اليهودي بذلك أن يحرج الأقباط... تقول الرواية: إن مريـم العـذراء جـاءت إلـى البابـا ابرام وقالت لـه: إن هناك رجلاً صالحاً اسـمه سـمعان الخرّاز سـيقدر على تحريك جبل المقطم؛ فأمـر بطريَـرك الأقباط كل رعاياه بالصوم والصلاة مدة ثلاثة أيام، وعند اليوم المشهود، وأمام الملأ، أمر سمعان الخرّاز جبل المقطم بـأن يتحـرك فتحرك عن موضعه، واسـتطاع بذلك المعز لدين الله الفاطمي أن يبني مدينته القاهرة."

- "وهل تؤمن حقّاً بمثل هذه الخرافة؟!" سأل مراد، متهكماً على ما سمع من القَيِّم العجوز.
- "يا ولدي، ليس مهمّاً إن كنت أصدق هذه القصة أو لا أصدقها، فيكفـي أن يصدقهـا هـم، كما نصدق نحن معجزة شـق القمر.... فيما يخص الأديان والمعتقدات، عامة الناس تصدق بقلوبها قبل أن تصدق بعقولها."

هزّ مراد رأسـه رافعاً حاجبيه، وقد شـعر بالاكتفاء لما سـمعه في هذه الليلة من أساطير، ثم اتجه مرة أخرى إلى الخارج، ليغادر المكان إلى غير رجعة.....

* * *

شيء عجيب أن يعيش المرء الفترة نفسها التي عاشها من قبل، ولكن باختيارات أخرى؛ وأن يرى نتائج تلك الاختيارات متمثلة أمامه،

ليكتشف أنها لم تصبه وحده، ولكنها أصابت الآخرين أيضاً بمقادير مختلفة. فمثلاً، لأنمراد لم يتعرف على سارة، أدرك أنها لم تُقتل.... طائرتها الخاصة لم تنفجر! ولكن، في المقابل، شخص آخر قُتل..... ذلك الرجل الذي استأجره وجيه ذكري! ومن يدري؟ فلعله في قتله إيّاه، قد أنقذ رجلاً آخر كان ذلك القاتل المأجور سيقتله لاحقاً! كل تصرف يتصرفه كانت تتبعه نتائج تؤثر في حياته في المقام الأول، ولكنها تترك أثرها أيضاً في الآخرين والعالم من حوله..... "ولكن ماذا حدث للعالم الآخر الذي قُتِلتُ فيه؟ هل لا يزال قائماً ولكن من دوني.... من دون مراد قطز؟! أم أنه تلاشى، ولم يعد له وجود؟! وإن كان موجوداً، فهل يعني ذلك أن هناك عوالم أخرى، مشابهة له، أيضاً موجودة؟! وهل بالإمكان التوصل إليها، والاستفادة منها؟!" أسئلة محيرة بدأت تعصف بذهنه لم يجد لها أجوبة وافية. تمنى لو كانت لا تزال تربطه علاقة بفيرجينيا، لكي تساعده على فك طلاسم الحياة العجيبة التي اكتشفها! بقدر ما كان يمتلك مراد من قدرات تزداد قوة مع الوقت، إلّا أن الحيرة لم تفارقه، وظلّت تتمسك به بمخالبها الدامية المرهقة التي لا تنقشع.....

* * *

أخذ مراد يفكر في خطواته المقبلة بعد أن عاد إلى بوسطن من أجل إكمال عامه الدراسي الثاني في كلية الطب بجامعة هارفارد. هل سيسعى إلى التعرف على فيرجينيا من جديد، مع مراعاة أخذ أشد الحذر منها؟ أم أنه سيتركها إلى وقت لاحق، يكون فيه أكثر تمكناً من نفسه، فيستطيع مواجهتها ومواجهة داربا أيضاً؟ داربا؟! ذلك الجناح البحثي لوزارة الدفاع الأمريكية..... في حياته السابقة أخبرته فيرجينيا بأنها تتعاون مع مديرها وليام برمن في برنامج سري للغاية، لا يعلم

عنه سوى خاصة الخاصة. البرنامج كان يتعلق بقدرتها على استخدام ذلك المسحوق المسمى الوسَكا من أجل إحداث انفصال النفس عن الجسد..... تمنى مراد لو أن ذلك المسحوق كان بحوزته هو الآخر، حتى يستكشف من خلاله عوالم النفس وقدراتها عند الانفصال؛ أن يتذوق ذلك الشعور العجيب مرة أخرى كما تذوقه من قبل، عندما سمحت له فيرجينيا باستخدامه معها..... فكلما انفصل عن جسده كانت تزداد قدراته عندما يرجع إليه مرة أخرى.... من هذا الأمر كان على يقين!

في مرحلة الصبى كان الانفصال لا يتم إلّا عبر النوم، ولكن مع الوقت أصبح النوم شحيحاً، حتى اختفى نهائيّاً! ولكن المفاجأة الكبرى كانت عندما اكتشف أن بمقدوره، لسبب ما، الرجوع مرة أخرى إلى جسده بعدما يُقتل! "فهل هذا الأمر متعلق بالموت في حد ذاته أم بطريقة الموت؟" سؤال آخر لم يجد له إجابة..... مخطوطة جُلّاب التي قرأها تحدثت عن هذه الأمور، وذكرت عن مقدور بعض الناس من "أهل الكشف"، كما سمّاهم، أن ينفصلوا وقتما شاؤوا من غير مُحَسِنات كالوسَكا! "ولكن كيف؟!" كان هذا هو السؤال الذي يَجبُّ كل ما قبله من الأسئلة! لو أنّه أصبح بمقدوره أن ينفصل بنفسه عن جسده، ويعود إليه وقتما يشاء، لتَمَلّك العالم بأكمله! ما من شيء حينها سيقف أمامه، حتى فيرجينيا ورفقائها بداربا!

* * *

أكثر من عام مضى دون أن يرى فيها سارة، ولو من بعيد. فمنذ تخرج أخوها ناصر من الجامعة، لم تعد تأتي إلى بوسطن كما كانت تفعل في السابق. لم يعد شارع نيوبيري كما كان، بل أصبح كئيباً، ومقهاه الذي كان يحب دوماً الذهاب إليه، على أمل أن تكون فيه

ليختلس نظرة لها من بعيد، أصبح أشد كآبة..... كان لا بد من حل! أن تبتعد عنه نهائياً هكذا، فهذا أمر لم يعد يطيقه!

ظل يبحث كل يوم في جميع الصحف العربية والأجنبية، التي في متناول يده، عن أي خبر يخص سارة أو زوجها غانم الساعدي، ولكن الأخبار كانت شحيحة. كذلك بحث في الشبكة العنكبوتية التي أخذت تنتشر في السنوات الأخيرة، بعدما أطلقتها داربا للعامة..... تذكر كيف أخبره ذات يوم وليام برمن، وهو يتفاخر بإنجازات مؤسسته، أن الإنترنت كان من أهم اختراعاتهم في الستينيات، وبعدما فرغوا منه وتجاوزوه، قاموا بالكشف عنه..... أخبار سارة وزوجها كانت أيضاً شحيحة فيه؛ ولكن شيئاً ما لفت انتباهه في هذه الأخبار الشحيحة..... تونس. أكثر من مرة قرأ خبراً عن اجتماع لغانم الساعدي في ذلك البلد وبصحبته سارة. حينها تذكر أنها أخبرته ذات يوم في تلك الحياة الأخرى السابقة، أنّ من شدة حبها لمنطقة سيد بوسعيد، اشترى لها زوجها بها منزلاً جميلاً..... "هل يا ترى ذلك الحدث قد جرى في هذه الحياة أيضاً؟" أخذ يتساءل مع نفسه..... "لا يوجد ما يمنع ذلك. فليس هناك أي متغيرات، على حد علمي، في هذا الخط الحياتي، إن جاز التعبير، ما يمنع حدوث شراء المنزل في سيدي بوسعيد، لأن وقوع سارة في غرام تلك المنطقة كان مستقلاً عنّي وعن علاقتها بي."

سارة أخبرته ذات مرة بأنها تحب الذهاب إلى تونس في يونيو، حيث تكون الأجواء جميلة والأمطار قليلة، والشمس حانية على جسدها فتحصل على السمار البرونزي الذي تحبه، دون أن تحترق..... ذلك الوقت هو مناسب له أيضاً، حيث بداية إجازة الصيف..... عزم أمره وقرّر السفر إلى تونس.... كان لا بد له أن يراها.... لم يعد يطيق الانقطاع عنها كل هذا الحد.... نظرة واحدة

على الأقل يتزود بها، حتى يجد له مخرجاً مع فيرجينيا ووليام برمن، بحيث لا يشكلان خطراً عليها!

* * *

لـم يكـن مـن العسـير على مـراد أن يجـد قافلة غانم السـاعدي وزوجته سـارة القويت في مدينة سـيدي بوسـعيد المطلة على خليج تونس، فأجمل ما في المدن الصغيرة أنّ أماكن تجمع أصحاب الثروات الطائلـة هـو أمـر معلوم لـدى الأهالي. لذلك لم يسـتغرق تجواله بين الأزقـة الضيقـة، المرصوفة بالحجارة والمحفوفة بالنخيل والجُهَنميات وأشجار البرتقال، زمناً طويلاً حتى رأى عدداً من سيّارات المرسيدس مرصوصـة خلـف بعضهـا أمـام أحد مطاعـم المدينة السـياحية. دخل المطعم المكتظ بالسـائحين، واسـتطاع بإعجوبة أن يجد لنفسـه طاولة بالقـرب مـن الطاولـة التي تجلس عليها سـارة مع زوجها وضيوفهما، مسـتخدماً طلسـماً من الطلاسـم البسـيطة التي عادة ما يلجأ إليها في مثـل هـذه الظـروف: عملة نقدية من فئـة المئة دولار...... ثمن زهيد نظير أن يكون جالساً في مقابل محبوبته، حتى يختلس بعض النظرات إليهـا فيشـبع بهـا ذلـك الوله الذي لا يريـد أن يهدأ، إلى أن يراها مرة أخـرى بعـد حيـن..... كم بدت جميلة وهي تمرح مع مَن حولها مِن الأصدقاء. كان بوسعه مِن مكانه أن يسمع صوتها وهي تتحدث بطلاقة كعادتها..... كل النساء مِن حولها كن يغرن منها، هذا ما كان مراد على يقيـن منـه، وحتمـاً كل الرجال كانوا يغبطون زوجها! في تلك اللّحظة شـعر وكأن كرهـه لفيرجينيـا وجماعتها يـزداد، لأنهم اضطروه إلى أن يبتعد عن سارة على هذا النحو!.....

- "ولكني سأعود إليك يا محبوبتي، وستعودين أنت إلي! لن يستمر هـذا الفـراق بيننـا طويلاً، فإن غداً لناظره قريب!" ما كاد يفرغ من

تمتمته مع نفسه حتى رأى سارة تقف من مقعدها، وأخذت تتجه صوبه بعد أن رسمت على وجهها ابتسامة عريضة أظهرت من خلالها أسنانها اللؤلئية المُتّسقة. لوهلة لم يفهم مراد ما الذي كان يحدث؟!..... لِوَهلة، شيء بداخله تمنى لو كان هو المعني بهذه الالتفاتة المفاجئة......

- "أهلاً حبيبتي، نورتِ سيدي بوسعيد." قالت سارة، وهي تعانق صديقتها التي حضرت توّاً إلى المطعم، بل وإلى المدينة السياحية الصغيرة، كما بدا من شدة الترحاب.
- "منورة بمن فيها حبيبتي." ما إن سَمِع مراد الردّ من خلفه، حتى شخُصت عيناه..... مستحيل!
- "أهلاً وجيه." قالت سارة مصافحة شقيق صديقتها، بحفاوة لم تخلُ من التصنع والتكلف.

مرّت سوسن ذكري بجانب عشيقها السابق دون أن تتنبه إليه، متجهة إلى طاولة سارة وزوجها غانم الساعدي. شعر مراد بحرج شديد.... "ما هذا الحظ التعس؟! تفاديتها في أمريكا، لتظهر لي هنا في تونس!".... أراد أن يترك المكان قبل أن تجلس وتراه، حتى يتفادى ما لا قد تحمد عقباه، ولكن السيف كان قد سبق العذل....

- "مراد!" صرخت سوسن أول ما وقعت عيناها عليه! ودون شعور منها، ودون مراعاة أخيها وباقي الموجودين من الأصدقاء والمعارف، أخذت تقذفه بكل المفردات التي كانت تختزنها من السباب واللعنات! وبعدما أفرغت كل ما في جعبتها من الكلمات البذيئة تجاه مراد الذي ظل متسمراً في مكانه من هول الموقف الذي لم يكن على البال، وجدت نفسها تمسك بكأس كانت بجانبها، نصف ممتلئ بأجود أنواع النبيذ الأحمر، لترميها في

اتجاه عشيقها النذل الذي تخلى عنها وطرحها كما تُطرح المناديل المستخدمة في سلة المهملات دون اكتراث، متناسياً كل ما قدمته له من تضحيات بعد أن تركت أهلها من أجله!

* * *

لـم يتصـور مـراد أن بعـد أكثر مـن عامين من الفـراق، ما زالت سوسـن ذكـري تحمـل له كل هذه الضغينـة! كان في ظنه أن الأمر قد انتهـى وتجـاوزه الزمـن، ولكـن ما حدث له قبل سـاعات في المطعم نـمّ عـن خـلاف ذلـك! بقدر ما كان لديه مـن علم يفوق مخيلة أغلب النـاس علـى وجـه الأرض، إلّا أن عقـل المرأة بالنسـبة إليـه ظلّ لغزاً مُحَيّراً عصيّاً على الفهم!

قـرّر أن يقضـي باقـي اليـوم في غرفته بالفندق بعـد المهزلة التي جرت بالمطعم على مرأى من سارة وزوجها وجميع الحاضرين..... "الملعونة أفسـدت علي كل شـيء!" فلن يكون بمقدوره بعد ذلك أن يقتـرب مـن سـارة دون أن تنتبـه إليـه! شـعر بأن كرهـه لآل ذكري قد زاد أضعافاً مضاعفة!.... "ليتني تخلصت من سوسن الحمقاء وأخيها القـذر وجيـه، كمـا تخلصت من ذلك القاتل الذي اسـتأجره من أجل التخلـص منّـي!".... وفـي خضـم خلوته مـع النفس وتأنيبهـا على ما جـرى مـن إخفـاق شـنيع لم يتنبأ بحدوثه، سـمع طرقـات خافتة على باب غرفته.... استغرب الأمر، فهو لـم يطلب شيئاً من خدمة الغرف، ولا يتوقـع قـدوم أحـد..... حـاول تجاهل الأمـر، حيث لم تكن لديه رغبـة فـي التحـدث مـع أي أحـد الآن، خاصّة من طاقـم الفندق..... ولكـن الطـرق اسـتمر. الطـارق كان مُصِرّاً على أن يفتـح مراد الباب، ففعل على مضض.....

- "أرجو ألّا أكون قد أيقظتك من النوم."

لـم يصـدق مـراد مـا كان يـراه! هـي! متمثلـة أمـام عينيـه خارج غرفته.....

- "سارة!"
- "آه.... أنت تعرفني إذن؟" سألته مبتسمة.
- "لا! لا أعرفك!" أجابها على عجل، ثم أضاف:
- "أقصد أني فقط رأيتك في المطعم....."
- "نعم، مع سوسن المجنونة." قاطعته، وهي تضحك....
- "ولهذا أتيت إليك، ولكن أولاً، هل ستسمح لي بالدخول؟ أم أننا سنظل هكذا نتحدث من على الباب؟" لم تمهله سارة فرصة للرد، فدخلت إلى غرفته وأغلقت من خلفها الباب.....
- "صراحة، مظهرك في المطعم كان مثيراً للشفقة.... شعرت وكأنك أردت لـلأرض أن تنشـق، فتبلعـك! مـا فعلتـه سوسـن كان مبالغاً جـدّاً فيـه." أخـذت تتأمل مراد بعـد أن اقتربت منه، قبل أن تكمل حديثها....
- "يبدو أنك جرحتها جرحاً عميقاً لم يندمل حتى الآن."
- "ولكن.... كيف عرفت مكاني؟" وجد نفسه يسألها بعد امتصاص صدمة وجودها معه في غرفة الفندق.
- "أحقّاً هذا سؤال؟! نحن في سيدي بوسعيد؛ من السهل جدّاً معرفة مكان أي شخص هنا!" جاءت الإجابة مع غمزة وابتسامة.
- "ما الذي تريدينه؟ أقصد لماذا أنت هنا؟" شعر مراد وكأن الأحداث قد خرجت عن سيطرته تماماً، فأصبحت هي المتحكمة فيه، بدلاً من أن يكون هو المتحكم فيها؛ وعلى الرغم من سـعادته الدفينة لرؤية سارة بهذا القرب منه والتحدث معها، إلّا أن ذلك الشعور الكريـه بفقـدان السـيطرة علـى الأحداث شـكّل له مصـدراً عميقاً

للقلق!

- "أرجو ألّا تسيء فهمي.... أنا هنا من أجل الاعتذار لك عمّا بدر مـن سوسـن فـي المطعم." بدت مضطربة وهـي تجيبه، وكأنها لم تتوقع منه ذاك السؤال..... بل كأنها توقعت شيئاً آخر.....

قَرْع على الباب فاجأهما.... نظر مراد إلى سارة متسائلاً، ولكنها أومأت، رافعة حاجبيها، بعدم المعرفة..... استمر القرع، وخشـي أن تكـون سوسـن هـذه المـرة! فلعلهـا جـاءت لكـي تكمل مـا بدأته في المطعم! حاول أن يتجاهل القرع، ولكن القارع كان مصرّاً كما كانت سارة من قبله..... أشار مراد لها لكي تتوارى بعيداً عن الباب، حتى لا تظهر، قبل أن يجيب على القارع.....

- "المعذرة سـيد مراد، وآسـف على الإزعاج..... أعرفك بنفسـي، أنا حامد الزايد المساعد الشخصي للشيخ غانم الساعدي. الشيخ أمرني بأن أتواصل معك شخصياً، أولاً من أجل الاعتذار لك على مـا بـدر مـن تصرف غير لائـق من قبل أحد ضيوفـه في المطعم، وثانياً من أجل دعوتك على الغداء غداً في المنزل."

مفاجأة أخرى لم يتوقعها مراد، في يوم كان مليئاً بالمفاجآت!.....

- "أشكر لي الشيخ غانم، ولكن الأمر حقّاً بسيط ولا يستدعي....."
- "عفواً سـيد مراد، ولكن المسـألة غير قابلة للنقاش؛ فالشـيخ غانم أكد عليّ بألا أقبل أي اعتذار، وإلّا قَدِم بنفسه إليك." قاطعه حامد.
- "لا!.... أقصد لا داعي لكي يكلف نفسه بالمجيء إلى هنا...... أنا راجع غداً إلى أمريكا، ورحلتي في الصباح؛ لذلك لن أستطيع تلبية الدعوة."
- "لا تحمـل هـمّ الرحلـة، أو العـودة إلى أمريكا، فهذا أمره يسـير." أصرّ حامد الزايد.

- "ولكن..... "
- "ستكون السيارة في انتظارك غداً من الساعة الواحدة ظهراً عند باب الفندق، لكي تقلك إلى منزل الشيخ..... إلى اللقاء."

لم يمهل حامد الزايد مراداً فرصة للاعتذار، فغادر المكان على الفور قبل أن يسمع رده .....

- "عندما يأمر الشيخ، فلا بد لمراد أن ينفذ." قالت سارة مداعبة إياه، بعدما أغلق باب الغرفة....
- "لا حل أمامك إلّا أن تأتي غداً، كما طلب غانم."
- "هل كنت تعلمين؟"
- "بالطبع كنت أعلم..... فمن تعتقد صاحب الفكرة؟" أجابته سارة راسمة على وجهها ابتسامة ماكرة، ثم فتحت الباب لكي تغادر.....
- "أراك غداً.... حاول ألّا تتأخر."

* * *

وكأن الأحداث تأبى إلّا أن تعود من جديد، وإن اختلفت التفاصيل! ما كان ينبغي له أن يأتي خلفها إلى تونس.... ما كان ينبغي أن يُعَرّض حياتها لأخطار التقرب منه! ولكن ماذا عساه أن يفعل الآن؟ أخذ مراد يتساءل مع نفسه، وقد ركب السيارة التي جاءته في الموعد، آخذة إيّاه إلى منزل غانم الساعدي الكبير، المطل على ميناء سيدي بوسعيد الصغير.....

في أعلى الهضبة، توقفت المرسيدس إس 500 السوداء أمام الباب الخشبي الأزرق ذي النقوش الأندلسية... إن لم يكن ذلك الباب هو لأكبر منزل في مدينة سيدي بوسعيد بأسرها، فهو على أقل تقدير، ظنّ مراد، لأكبر منزل شاهده في المنطقة حتى الآن! لم

يكن بحجم قصور جدة الكبيرة، ولكنه مقارنة بباقي مباني هذه المدينة الصغيرة، كان أقرب شيء إلى القصر.

وجد حامد الزايد في استقباله عند المدخل. لم يبدُ عليه السرور لرؤيته، وإن حاول التظاهر بخلاف ذلك. لوهلة خشي مراد أن يكون حامد قد لمح سارة وهي تخرج من غرفته البارحة، ولذلك كان كل هذا الجفاء....

- "الشيخ في انتظارك بالداخل مع سا.... مع الشيخة سارة."

منع مراد نفسه من الضحك وهو يسير عبر الردهة الفسيحة المؤدية إلى صالة الضيوف، عند سماعه لهذا اللقب الذي لا يتناسب تماماً مع سارة التي يعرفها!

- "مراد قطز! ما هذه الدنيا الصغيرة! ما التقينا في بوسطن، وها نحن نلتقي في تونس.... في سيدي بوسعيد!" جاء الترحيب هذه المرة من شخص كان يتمنى ألّا يلقاه: ناصر القويت، شقيق سارة!....
"يا له من شخص سمج! لم أطقه في الحياة السابقة، ويبدو أني لن أطيقه في هذه الحياة أيضاً!"
- "أهلاً." تظاهر مراد بعدم معرفته، لأنه في هذه الحياة لم يقبل دعوته في بوسطن، ومن ثم لم يلتقِه من قبل.
- "ألم تتعرف إلى صوتي بعد؟! لقد خاطبتك في الهاتف عند قدومك لبوسطن، لكي أدعوك لنادي الطلبة السعوديين." قال مقبّلاً إياه على الخد.
- "نعم، نعم.... تذكرت. أنت ناصر القويت!" ردّد مراد وكأنه فوجئ لهذه المصادفة العجيبة!
- "ولكن ماذا تفعل هنا؟"
- "أنا شقيق سارة زوجة الشيخ غانم. ألم أقل لك: إن الدنيا صغيرة!"

قال ضاحكاً، ثم التفت إلى مساعد رحيمه....

- "شكراً حامد. أنا سأتولى مراد من هنا. أعلم أن لديك الكثير من المشاغل."
- "الشيخ طلب منّي الحضور مع الأستاذ مراد. أفَضِل أن أبقى حتى أسمع منه أوامر أخرى."
- "حسناً، هو الآن ينتظرنا في الشرفة مع سارة." ردّ على حامد، ثم أشار بأصبعه الوسطى نحو ظهره بعدما انطلق قبلهما إلى الشرفة....
- "المعذرة، ولكني لا أطيق هذا الشخص!" قال هامساً لمراد الذي ابتسم لهذه الجملة الأخيرة. فلأول مرة يتفق مع ناصر القويت على أمر.....

* * *

كانت حفاوة غانم الساعدي بمراد كبيرة، لدرجة أنه شعر بالخجل منه. اعتذر له أكثر من مرة على ما بدر من سوسن ذكري، وأنه أصر على أن تأتي هي وتقدم بنفسها الاعتذار، ولكنها فجأة غادرت تونس مع أخيها وجيه..... تنفس مراد الصعداء لسماعه هذا الخبر، فآخر ما كان يتمناه هو ملاقاتها مرة أخرى!

لم تتحدث سارة كثيراً؛ ظلّت صامة غالب الوقت، تاركة المجال لزوجها لكي يقوم بمعظم الحديث، واكتفت هي بتأمل مراد وفحصه، مع إرسال ابتسامة له بين الفينة والأخرى، ما جعله يشعر بشيء من الخجل وهي ترمقه بعينيها العسليتين اللتين طالما سحراه! كان على يقين بأنها قد بدأت تغرم به من جديد، وكأن الرابط الذي كان يربطهما في حياته السابقة، لا يزال قائماً بشكل أو بآخر..... شعر في تلك اللحظة بسعادة عارمة، لأنه باختياره الجديد قد منح سارة عمراً أطول.

الطائرة لم تنفجر بها قبل عام كما حدث نتيجة اختياره السابق. هذه المرة سيحميها، حتى لو كلفه ذلك حبها له.

- "إذن أنت طالب في السنة الثالثة من كلية الطب بجامعة هارفارد؟" سأله غانم الساعدي، مبدياً اهتماماً كبيراً بالأمر.
- "نعم، صحيح."
- "وفي أي مجال تنوي التخصص؟"
- "جراحة التجميل." أراد أن يكمل ويقول: لو كانت كل نساء العالم مثل سارة لما كانت هناك حاجة لمثل هذا التخصص.
- "عظيم، عظيم.... هذا تخصص مهم جداً وخاصة في القطاع الخاص بالمملكة. لا أخفيك يا مراد، أنا بصدد إنشاء مستشفى كبير في الرياض، وستكون هذه مجرد نواة لاستثمارات ضخمة أقودها في القطاع الصحي والتكنولوجيا الحيوية. الدولة لن تكون قادرة على توفير كامل الاحتياجات الصحية للمواطنين، والمستقبل هو حتماً للقطاع الخاص، خاصة في خضم التسهيلات التي تُقدم لمثل هذه المشاريع. أتمنى مستقبلاً بعدما تتخرج وتتخصص أن تأتي وتعمل معنا؛ حتماً المجموعة ستستفيد من خبرات شخص نابغ مثلك."
- "أشكرك على حسن ظنك بي، ولكن الأمر سابق لأوانه، فأنا كما ذكرت لك، ما زلت طالباً في السنة الثالثة، والمشوار لا يزال طويلاً."
- "بمناسبة المشوار الطويل، علمت من حامد أن رحلتك إلى أمريكا كانت اليوم، ولكنه لم يسمح بأن يكون هذا عذراً لكي لا تلبي دعوتي على الغداء،" ضحك بإعجاب لتصرف مساعده، ثم أضاف....

- "ولكن لا تحمل همّاً.... أنت ضيفي هنا في تونس، وستجد طائرة خاصة رهن أمرك وقتما تحب العودة إلى أمريكا أو إلى أي مكان آخر تشاؤه."

فوجئ مراد ممّا سمع..... حاول الاعتذار بعد شكر مضيفه، ولكن دون جدوى؛ فالأمر كان قد حسم.... علم أن حقائبه قد لحقت به على متن سيارة أخرى، وأن غرفة الضيوف قد أعدت، فلم يكن هناك مجال للفرار!

- "أمّا أنا فسأريك جانباً من سيدي بوسعيد ومن تونس لم تره من قبل." أضافت سارة على ما قاله زوجها، ولكنها لم تدرك حينها أن هذا هو تحديداً ما كان يخشاه مراد قطز، وحاول بشتى الطرق أن يتحاشاه!

* * *

لم يقاوم ذلك التيار الجارف المُسَمّى بسارة، حيث أدرك أنه في قرارة نفسه أراد أن يكون جزءاً من عالمها بطريقة أو بأخرى. ربما صفة العشيق لم يأتِ أوانها بعد، ولكن صفة الصديق.... لمَ لا؟

أخذته في صباح اليوم التالي إلى جولة عبر أزقة سيدي بوسعيد بين المقاهي والحوانيت، وعبر الطرق المتعرجة بين المنازل الأندلسية الجميلة. حبها للمكان كان واضحاً وهي تتحدث عنه، مفصحة عن أسراره لرفيقها الجديد....

- "هذه هي النجمة الزهراء...... قصر البارون رودلف ديرلانجي؛ أول مبنى يبنى بالطريقة التي اشتهرت بها باقي مباني سيدي بوسعيد، باللون الأبيض والأزرق. استطاع البارون بذكائه أن يقنع حاكم المنطقة بأن يصدر أمراً بعدم السماح لغير هذا الطراز من المعمار، حتى يعطي للمكان طابعاً خاصّاً وفريداً. كان هذا

فـي أوائـل القـرن. لقد كان عاشـقاً للحضارة العربية والأندلسـية، ومغرمـاً بموسـيقاها. رأى في هذا المـكان جمالاً، فأراد للآخرين أن يشاركوه فيه."

- "وكأن كل شيء جميل عندنا لا بد للغرب أن يكتشفه أولاً حتى نقره نحن." أضاف مراد على حديثها....

نظرت إليه متأملة ما قاله، بعينيها الساحرتين.... قاوم مراد بكل مـا أوتـي مـن قوة ولهها الظاهر من خلالهما، فتركها وسـار عبر بوابة القصر الخارجية إلى حديقته الغنّاء، وهي من خلفه تتبعه.....

أخذته بعد ذلك إلى مسـجد قديم لا يزال محافظاً على رونقه، ثم قالت مشيرة إليه قبل أن يدخلاه.....

- "وهذا مسجد وضريح الولي الكبير: سيدي أبو سعيد الباجي الذي سُمِّيَت المدينة على اسمه."
- "ولـي آخـر! حسـبت أني تركتهم جميعاً عند جبـل المقطم!" علّق ممازحاً، ولكنها لم تفهم قصده، فأخذ يشرح لها.....
- "في الصيف الماضي زرت القاهرة، وذهبت إلى جبل المقطم.... لـم أرَ فـي حياتي تكدسـاً لكـمٍّ من أضرحة الأوليـاء كالذي رأيته هناك! شيء غير معقول، وكأن نصف سكان مصر من الأولياء!"

ضحكت سارة على ما قاله، ثم أضافت متسائلة....

- "ولمـاذا ذهبـت إلـى هنـاك إذن، إن لـم تكـن مهتمّـاً بمثـل هـذه الأضرحة؟"
- "كنت أبحث عن شخص، ولكني لم أجده."
- "ما اسمه؟"
- "عبدالرحمن أبو الحمايل." أجابها، مستعجباً سؤالها.
- "وزير داخلية مصر صديق غانم؛ وكما تعلم، الداخلية هناك تعرف

دبّة النملة..... إذا أحببت، ممكن أطلب من غانم أن يسأل الوزير عنه...."

- "شكراً، ولكن حقّاً لا يوجد داعٍ لهذا؛ لقد علمت أنه غادر البلاد منذ زمن، وجاء إلى تونس." قاطعها مراد.
- "آاه..... ألهذا أنت هنا؟"

لا، "لم يكن هذا هو سبب مجيئي إلى تونس، بل أنت!" أراد مراد أن يقول لها، ولكنه آثر رداً آخر....

- "نعم.... هذا هو السبب."
- "وزير داخلية تونس هو أيضاً صديق...."
- "سارة! شكراً على المساعدة، ولكن حقّاً الأمر لم يعد بتلك الأهمية. أظن أن الرجل قد مات وشبع موتاً، وإن كان لا يزال على قيد الحياة على الرغم من عمره المتقدم، ففي الغالب قد تمكن منه الخرف...... لا تشغلي بالك بأمره؛ لقد صرفت النظر عن البحث عنه."
- "حسناً... كما تحب."

عادا إلى المنزل عند المغيب، بعد رحلة من التجوال حول المدينة الصغيرة. أمسكت بذراعه قبل أن يغادرها إلى حجرته، ثم قالت له هامسة.....

- "أرجو أن تكون قد قضيت يوماً سعيداً برفقتي، كما قضيت أنا برفقتك."
- "سارة.... الشيخ كان يسأل عنك." فجأة ظهر لهما حامد، قبل أن يتمكن مراد من الرّد على ما قالته له.....
- "أين كنت طيلة النهار؟"

تعجب مراد من طريقته غير المتكلفة في الحديث معها.

- "تجولت مع مراد حول سيدي بوسعيد، لأريه معالمها.... غانم أخبرني بأن لديه أكثر من اجتماع في العاصمة، وأنه سيقضي أغلب يومه هناك." أجابته وقد بدا على صوتها شيء من الاضطراب.
- "القصر الرئاسي اتصل بعد الظهر.... فخامة الرئيس وزوجته أرادا دعوتك أنت والشيخ على العشاء."
- "اعتذر لهما، فليس لدي رغبة.... "
- "سارة...." قاطعها حامد، ثم التفت إلى مراد، وكأنه فجأة انتبه لوجوده معهما.....
- "يبدو عليك التعب بعد يوم حافل من التجوال..... لماذا لا تذهب إلى حجرتك لكي ترتاح؟ وسأخبر الخادمة لكي تحضر لك العشاء." أراد له أن ينصرف حتى يتحدث مع سارة على راحته؛ بدا ذلك جلياً لمراد..... "لا يعلم ذلك الأبله أن جسمي، إن لم أستخدم قدراتي، غير قابل للتعب، وقوله بأنه يبدو عليّ التعب، ليس إلّا مجرد هراء!".... لم يردّ عليه، واكتفى فقط بالنظر إلى سارة. لسبب ما شعر بالقلق عليها....

وكأنها شعرت بقلقه، قامت سارة برسم ابتسامة مصطنعة على وجهها، ثم أومأت له بأن يذهب.....

* * *

جاءت الخادمة بالطعام بعد ساعة. وضعته على مائدة صغيرة بجانب النافذة، ثم سألته إن كان يرغب في أي شيء آخر؟..... أخرج مراد من جيبه عملة نقدية من فئة المئة دولار؛ شعر بأن هذه الورقة التي تحمل صورة بنيامين فرانكلن كانت تكفي لكي يحصل منها على ما يريده من معلومات، من دون الحاجة إلى استخدام قدراته، وما قد يصاحب ذلك من إرهاق وإعياء.....

- "ما اسمك؟" سألها وهو يناولها النقود.
- "خادمتك زينة.... شكراً يا سيدي، هذا كثير!" قالت واضعة العملة الورقية الخضراء في جيبها، وقد شعرت بالفرحة لكرم هذا الضيف السخي.
- "أخبريني يا زينة.... وبالمناسبة هذا الكلام سيظل بيننا....."
- "طبعاً يا سيدي، فأنا رهن أمرك." قاطعته الخادمة على الفور لكي تؤكد له، ولبنيامين فرانكلن، ولاءها.
- "ما رأيك في حامد الزايد؟" سألها مراد، مدركاً أن عيون الخدم عادة ما ترى، وآذانهم عادة ما تسمع أكثر بكثير ممّا يعتقد مخدوموهم.
- "ماذا تقصد يا سيدي؟"
- "أقصد انطباعك عنه.... يبدو لي الرجل أنه غير مريح، على الرغم من ثقة الشيخ غانم به."

كانت الخادمة في حاجة فقط لأن يمهد لها مراد الطريق، حتى تنفرط في الحديث والقيل والقال.....

- "أصدقك القول يا سيدي، حتى أنا لا أرتاح له. كما لا تعجبني طريقته في التعامل مع سيدتي سارة. تخيل أنّي ذات يوم سمعته ينهرها. طبعاً هو لم ينتبه لوجودي خلف الباب. كان يتحدث معها وكأنها موظفة عنده وليس العكس. لا أفهم كيف سمحت له سيدتي بأن يخاطبها هكذا؟! ولكن البعض منّا يعتقد بأنه عمل عملاً للشيخ حتى يتمكن منه ومن أسرته! والله لا أستبعد أي شيء من هذا الرجل المريب. أنا الآن أعمل لدى الشيخ منذ خمس سنوات، ولم أرَ في كل هذه المدة موظفاً عنده بهذا الشكل! هو دائماً معه، في كل تنقلاته، بل هو أقرب إليه من سيدتي! تصور

أنه حتى في الرياض يسكن في قصر الشيخ! كأن هذا الرجل ليس له أهل!..... ولكن يا سيدي، لِمَ السؤال عنه؟ هل ضايقك في شيء؟"

- "لم يضايقني في شيء، ولكنه فقط أثار فضولي..... تستطيعين الذهاب الآن."

انصرفت الخادمة بعد أن أكدت له حدسه حول حامد.... لم يشعر بالراحة له منذ أن رآه، ولم يستبعد مراد أن يكون هذا هو ذات شعور حامد تجاهه ..... ولكن ما سر ذلك الرجل؟! هل تربطه هو الآخر علاقة بسارة؟! ألهذا يتعامل معها دون تكليف؟ هل شعر بميلها نحوه، فتملكته الغيرة؟! أو لعله رآها البارحة، عندما جاءته الفندق؟!... "تباً لك يا سارة، فكم من عشيق لديك؟! ألا تملين؟! ألا تخشين أن يعلم زوجك الأهطل، أيتها اللعوب؟!" كم كره انجذابه لها، وضعفه تجاهها.... لماذا أحبها هي دون باقي نساء العالم؟!.... "ما كان ينبغي لي أن آتي خلفها، إلى تونس، كالجرو الذليل الذي لا يعرف أحداً في الدنيا غير صاحبه فيتبعه حيثما ذهب!"....

حسم مراد أمره، فكان لا بد من الرحيل والعودة إلى بوسطن. وجوده هنا لم يعد له معنى، فما الذي سوف يجنيه من بقائه معها على هذا النحو؟ لن يقيم معها علاقة، على الأقل الآن، وهي لن تكف عن معاشرة غيره من الرجال..... فهذه هي سارة! إن كان زوجها الشيخ المغفل غير مهتم، فهو لا يستطيع أن يكون مثله! لن يصبر عليها وهي في أحضان وليام برمن وغيره من الرجال!.... "تباً لك يا سارة، أكره أني لا أستطيع كُرهك! أكره أني أعشق فيك أنوثتك التي لا يشبع منها الرجال! أكره أنه مهما فعلتِ، وجدتك تزدادين رونقاً وجمالاً.....

وأكره أن كل ما أكرهه فيك، لا يزيدني سوى انجذاب لك!"

* * *

- "مللتَ منّا أم من تونس؟" حرصت سارة على سؤاله بعيداً عن آذان السامعين قبل أن يصل إلى السيارة التي ستقله إلى المطار.
- "لم أمل، ولكن آن الأوان لكي أعود إلى بوسطن."
- "إجازة الصيف لم تنتهِ بعد. لماذا تريد العودة مبكراً؟ هناك الكثير مما لم ترَه في تونس بعد. انتظر معنا قليلاً..... صدّقني لن تندم." في صوتها كانت نبرة استجداء قاومها مراد.
- "مع الأسف لا أستطيع."
- "ألهذا الحد وحشتك أمريكا؟ أم أن شخصاً هناك هو من وحشك؟"

صمت مراد ولم يجبها، كما لم تنتظر هي إجابة منه.....

- "سأبوح لك بسر..... عندما قدمتَ إلى بوسطن قبل عامين، كنت هناك مع ناصر، وطلبت منه أن يدعوك. لكنك اعتذرت منه أكثر من مرة، على الرغم من إلحاحه الشديد بناءً على طلبي. رغبت في التعرف عليك حينها لكي أرى ذلك الشاب العجيب الذي جعل سوسن ذكري تترك كل شيء من أجله..... كم سعدت عندما التقيتك هنا في تونس. الأيام التي قضيتها معنا، جعلتني أدرك أن سوسن كانت محقة فيما فعلت؛ بل وجعلتني أشعر بالرأفة لها، لأنها فقدتك."

صوتها.... همسها..... حديثها..... نظراتها..... أدرك مراد أنه لو لم يذهب الآن إلى السيارة، فسيسقط حصنه الذي شيده حول قلبه، لكي لا يقع في فخها من جديد! لن يسمح لحصان طروادة أن يجد لنفسه مكاناً داخل القلاع! ليس من أجله هو، بل من أجلها هي.....

- "إلى اللقاء.... أعدك بأننا سنلتقي مرة أخرى، ولكن ليس الآن."

صافحها، ثم على عجل واصل سيره إلى السيارة، قبل أن يغير رأيه، ويبقى معها....

* * *

كم يا ترى عمره الحقيقي؟ سؤال خطر على بال مراد أكثر من مرة.... فهل يحسب عمره منذ أن ولد؟ أم منذ أن عادت نفسه إلى جسده في المرة الأخيرة؟ أم أن العمر الحقيقي للإنسان شيء آخر تماماً لا علاقة له بالزمن الذي تقضيه الأرض في دورانها حول الشمس، أو القمر في مساره حول الأرض؟ منذ أن تفجرت قدراته في الآونة الأخيرة، ومفاهيم كثيرة بدأت تتغير عند مراد؛ منها الزمن، ومنها أيضاً القدر..... فكما أن الزمن متغير وغير ثابت، فكذلك القدر..... بل هي أزمنة وأقدار، وبمقدور العارف لأسرارها أن يتحكم فيها.... أليس هذا ما سبق وأكدته له فيرجينيا عندما حدثته عن نظريات فيزياء الكم والوتر الخارق..... كل ما يمكن له أن يكون هو كائن، وكل ما يمكن له أن يزول هو زائل. مثل قطة شرودنجر الحية والميتة في الوقت نفسه، إلى أن تتم عملية الملاحظة أو الإقرار، فيتحدد حينها فقط المسار..... "أجمل ما في الكون أنه مليء بالأسرار".... مقولة سمعها في إحدى رحلات النفس عندما كان ينام، قبل سنين..... تمنى مراد لو كان بإمكانه أن ينام فتنفصل نفسه عن جسده ليتجول عبر الأزمنة كما كان يحدث له في السابق..... كان يزداد قدرة مع كل رحلة انفصال وعودة.... لكن هناك ذلك الأمر الآخر: الانفصال الذي حدث له مرتين بعد القتل! كانت تجربة مروعة، إلى الآن لا يفهم كيف ولِمَ حدثت؟! والأهم من ذلك، هل يمكن لها أن تحدث مرة أخرى؟! وإن كان الجواب على هذا السؤال الأخير بنعم، فإلى متى ستحدث؟! هل كل مرة يموت فيها ستنفصل نفسه على ذات النحو،

ليتمكن من العودة إلى جسده عبر نقطة اختيار مفصلية من حياته؟!

أسئلة كثيرة ظل مراد يطرحها مع نفسه، لم يجد لأغلبها إجابة، جعلته يدرك أنه يسير في درب وعر ليس له دليل يسترشد به، أو معالم واضحة يستدل من خلالها، أو حتى نهاية معلومة يتطلع إليها!

* * *

بدأ سنته الثالثة من كلية الطب بالذهاب إلى مستشفى ماساتشوستس العام، حيث التدريب السريري بشكل مكثف. اتصاله مع المرضى أفاده على أكثر من صعيد. فمن جهة بدأ يطبق ما تعلمه في السنتين الأوليين من الدراسة، ولكن ما كان أهم من ذلك هو اكتشافه لأمر عجيب ما كان ليعلمه لولا اتصاله مع الأجساد المعلولة المنومة في جميع أجنحة المستشفى.....

لاحظ ذات مرة في أثناء مروره مع استشاري الأعصاب لمريض في غيبوبة، نتيجة جلطة دماغية، أن جسده كان يرسل نبضات كهرومغناطيسية أضعف بكثير من المعتاد، ما مكنه من التشابك معه دون أدنى عناء، بل ومن غير أن يشعر!

ذُهل الاستشاري والفريق الطبي، عندما حرك المريض فجأة يده اليمنى. لم يفهم أحد كيف تمكن مريض في غيبوبة تامة أن يفعل هذا؟!.....

- "لعلها حركة غير إرادية نتيجة نبضة كهربائية من الحبل الشوكي." اقترح أحد الأطباء المقيمين....
- "أو لعله بدأ يستفيق من غيبوبته." اقترح طبيب مقيم آخر.

ولكن الإجابة الصحيحة لم يدركها أحد غير مراد، الذي كان المحرك الحقيقي لتلك اليد!

عاد لاحقاً بمفرده بحجة إجراء بعض الكشوف، ولكن الحقيقة

أنه أراد أن يجري بعض التجارب الحيّة على المريض من أجل الإجابة عن سؤال أثار فضوله: إلى أي مدى يمكنه التحكم في جسده الملقيّ على الفراش؟! وسرعان ما جاءته الإجابة.....

* * *

شيء عجيب حدث بمستشفى ماساتشوستس العام، في شهر ديسمبر من سنة 1997 قبيل أعياد الميلاد.... تناولت الصحف خبر تيري ونستون صاحب الستين عاماً الذي أصيب بجلطة دماغية أدخلته في غيبوبة تامة منذ خمسة شهور. فجأة، ودون سابق إنذار، حرّك يده اليمنى أمام جمع من الأطباء، وبعد ذلك بنحو ساعة فوجئت ممرضته به وهو يسحب أنبوبة التنفس، ثم يقوم من على الفراش دون عناء ويتحدث معها قائلاً: "أنت جميلة"، ثم يقبلها، قبل أن يعود مرة ثانية إلى فراشه، ليرجع إلى الغيبوبة نفسها التي كان يعانيها على مدى الخمسة شهور الماضية! لحسن الحظ أن طبيب العناية المركزة لم يكن بعيداً، فاستطاع أن يعيد إليه أنبوبة التنفس التي أزاحها! عندما سئل استشاري الأعصاب، المعالج للحالة، لم يستطع إعطاء تفسير علمي لما حدث، فبعد إجراء فحوص عدة للمريض، تبين أن حالته كانت كما هي، لم يطرأ عليها أي تغيير! ومع انعدام التفسير العلمي، ظهر تفسير آخر لاقى قبولاً عظيماً عند شريحة من الناس.....

- "إنها بركات سيدنا ومنقذنا المسيح بمناسبة اقتراب عيد الميلاد المجيد!" صرّح القس جيري جرام في لقاء تلفازي، وأعدّها علامة واضحة على قرب مجيئه الثاني. ومع هذا التصريح البيّن لأحد أهم كهنة الساحل الأمريكي الشرقي، أخذت تظهر علامات هذا المجيء الثاني من خلال ادعاء البعض رؤية السيدة مريم العذراء، وهي تشير بأصبعها الشريف إلى مستشفى ماساتشوستس العام،

وادعاء البعض الآخر سماع تمثال اليسوع وهو ينطق باسم تيري ونستون، وآخرون رأوا شكل الصليب يتمثل في السماء بين السحب قُبيل المغيب..... حالة من الهيستيرية الجماعية عمّت بوسطن وما حولها من المدن بولاية ماساتشوستس، جعلت أعداداً غفيرة من الناس ترغب في زيارة ذلك "الرجل الصالح" تيري ونستون المُبشر بالعودة الثانية للسيد المسيح! لم يبالِ أحد بما كشفه برنامج تحقيقي لإحدى القنوات عن ماضي تيري ونستون الشنيع والحافل بالسكر والعربدة والإساءة للآخرين.....

- "مريم المجدلية كانت عاهراً قبل أن يمس قلبها الإيمان وتدخل في طوع السيد المسيح!" جاء الرد حاضراً..... وعندما استفسر بعضهم عن الكيفية التي مس بها الإيمان قلب رجل فاقد للوعي، في غيبوبة تامة، جاءت الإجابة.....
- "للرب طرق خفية، لا يعلمها سواه!"

جاء عيد الميلاد، ومن بعده رأس السنة الجديدة، ومع مرور الأيام والأسابيع والأشهر، وبقاء تيري ونستون على حاله في مستشفى ماساتشوستس العام، دون أن يُظهر معجزة أخرى تفيقه من غيبوبته التي طالت، ثم التدهور المفاجئ لصحته حتى اضطر الأطباء إلى رفع أجهزة الإنعاش عنه، ليموت بعدها بلحظات دون حدوث معجزة جديدة تنقذه من هذا المآل، أخذ معظم الناس يتناسون خبر المُبشر بعودة المسيح الثانية، لتصبح ذكراه من الماضي.....

سجّل مراد قطز في مدونته الذهنية بعد التجربة التي أجراها مع جسد تيري ونستون في أواخر شهر ديسمبر من عام 1997: أن سيطرته على الأجساد تتضاعف بشكل طردي مع غياب وعيها.

* * *

على غير العادة، وجد مراد مطعم المستشفى ممتلئاً، فالأمطار الشديدة جعلت الطلبة والأطباء وباقي العاملين يفضلون تناول الغداء بداخل المستشفى، عوضاً عن أي مطعم مجاور، حيث الطعام أشهى وأرخص. طاولة واحدة خلت توّاً، فوضع عليها صينيته وجلس. وقت الغداء كان من الفرص القليلة التي يستطيع من خلالها الاختلاء مع نفسه في أثناء النهار، بعيداً عن الفريق الطبي الذي يلازمه. كان عليه أن يتّخذ قراراً: ماذا سيفعل في إجازة الصيف التي أصبحت وشيكة؟ تمنى لو كان بإمكانه أن يأخذ حصصاً صيفية تختصر عليه سنوات الطب، كما فعل مع ما قبل الطب، ولكن سنوات الطب الأربعة بجامعة هارفارد لا يمكن اختصارها. هي ليست بسنوات طويلة، ولكنه سئم من الروتين الدراسي الرتيب، الذي لم يُشكّل له أي تحدٍّ يذكر، وإن تظاهر بخلاف ذلك، لكي لا يلفت إليه الأنظار.

- "عفواً، هل تنتظر أحداً، أم أن الكرسي خالٍ؟" جاء السؤال من صوت أنثوي سمعه مراراً من قبل، ولكن ليس في هذه الحياة.
- "لا أنتظر أحداً. يمكنك الجلوس." أجابها مراد مبتسماً. كانت هذه هي أول مرة يراها في هذا الخط القدري الجديد؛ فمنذ أن عاد إلى جسده في المرة الأخيرة، لم تتقاطع حياتهما حتى هذه اللحظة.
- "شكراً، فالمكان مزدحم جداً كما ترى..... أنا أليس تَبْت بالمناسبة، طبيبة مقيمة في قسم الجراحة. كأني لمحتك أكثر من مرة في المطعم بمفردك، أنت طالب طب أليس كذلك؟" بادرت بالحديث، راسمة على وجهها ابتسامة امتنان.
- "صحيح، في السنة الثالثة..... مراد قطز." أجابها، ثم واصل بينه وبين نفسه: "أنت وفيرجينيا من ذات الرحم؟!.... غير معقول!.... ولكن لمَ لا؟ أوليس الماس والفحم من أصل واحد؟!"

- "أهلاً مراد، سعيدة بمعرفتك.... تبدو لي وكأنك لست من أمريكا."
- "ملاحظتك في محلها، فأنا من السعودية."
- "واو.... أنت بعيد عن أهلك! لا بد وأنك اشتقت إليهم، ولو أن دراسة الطب، خاصة في هارفارد، تجعل المرء بعض الأحيان ينسى أهله."

جاملها بابتسامة، دون أن يعلق.

- "ولكن ملامحك ليست عربية.... أنت لا تشبه السعوديين الذين قابلتهم هنا في بوسطن."
- "هذا لأني من أصول تركية. جدي الكبير قدم إلى مكة من بخارى بوسط آسيا."
- "في الصين؟" سألته بعفوية.
- "لا، ليس في الصين، بل بلد آخر قريب منه: أوزباكستان؛ كانت إلى مدة قريبة جزءاً من الاتحاد السوفيتي."
- "اعذرني، فأنا لا أفهم في هذه الأمور..... حدّي شمال شرق أمريكا." قالت مع ضحكة مرتبكة، ساخرة من قلة معلوماتها الجغرافية....
- "على عكس أختي فيرجينيا؛ هي على دراية جيدة بكل هذه الأمور، فهي كثيرة السفر إلى تلك البقاع."

لم يتوقع مراد أن يسير الحديث بهذه السرعة إلى ذلك الاتجاه الشائك، ولكنه سعد به، ووجدها فرصة....

- "أختك هذه، أهي مضيفة طيران؟"

لم تتمالك أليس نفسها من الضحك لسؤال مراد.....

- "فيرجينيا مضيفة طيران؟! يا له من منظر! لا، بل هي عالمة فيزياء هنا في هارفارد..... غريبة أنك لم تسمع بها، فهي حديث

الجامعة."

- "لعلي سمعت بهذا الاسم من قبل دون أن أسجله في الذاكرة؛ أنت تعلمين.... دراسة الطب لا تدع مجالاً للطالب بأن يحك رأسه!"..... أجابها مراد، وإن كان في قرارة نفسه رغب في قول شيء آخر: "طبعاً أعرفها هذه الملعونة! بل أعرفها جيداً، أكثر ممّا تعرفينها أنت!"
- "صدّقني أعرف قصدك تماماً، فالطب يمتص حياتك كُلّياً! تظن أن الأمر يتحسن بمجرد التخرج، ولكنك تُفاجأ بالعكس، فهو يزداد سوءاً.... ما بين مناوبات، وتحضير للحالات حتى لا تظهر غبيّاً عندما يسألك الاستشاري عن الحالة، وما بين التجهيز لاختبار البورد! يا إلهي، كم هو شاق مشوار الطب!"
- "دعكِ من هذه السيرة الكئيبة الآن، وأخبريني...."

قاطعه رنين هاتفه الجوال. نظر إلى الرقم الغريب الظاهر على الشاشة، فقرّر أن يتجاهله، ثم واصل حديثه.....

- "ماذا يعني تَبت؟ لم أسمع بهذا الاسم من قبل."
- "معك حق، فهو اسم غريب فعلاً، ولكن على حد علمي هو اختصار لاسم أطول لا أتذكره.... فيرجينيا مهتمة بهذه الأمور، أما أنا صراحة فلا.... ولكن ما أعلمه أن أسرتنا أصلها من منغوليا.." أجابته، ثم أضافت ممازحة.....
- "يعني ليس بعيداً كثيراً عن أسرتك."
- "وما الذي يجعل عالمة فيزياء مرموقة كثيرة السفر إلى هناك، وعلى هذا القدر بالاهتمام بهذه الأمور؟"

لم تجبه أليس على الفور، بل تأملته قليلاً، ثم قالت.....

- "لماذا لا أعرِّفك عليها، وتسألها بنفسك؟"

لم تكن هذه هي ردة الفعل المطلوبة..... على الأقل ليس الآن! وجد مراد نفسه في ورطة، فمن الواضح أن أليس أرادت أن تَشْبكه بأختها!

- "يا ليت، ولكن ما بين صديقتي ودراسة الطب لم يعد هناك أي وقت للتعارف على الآخرين."
- "أووه...." لوهلة شعرت بالخجل، بعد أن فاجأها بأن لديه صديقة، ولكنها تداركت على الفور.....
- "بالطبع لا يوجد وقت..... أنت محق تماماً..... عموماً، شكراً على لطفك للسماح لي بالجلوس معك على الطاولة.... الحديث معك ممتع، ولكن يجب عليّ الذهاب الآن؛ عندي حالة بعد قليل.... إلى اللقاء."
- "إلى اللقاء، وبلّغي جيم سلامي." ما كاد يفرغ من نطقه لاسم صديق أليس، حتى أدرك خطأه! لوهلة نسي بأنه من المفترض لم يقابلها قبل اليوم، ومن ثم لا يعلم أي شيء عنها غير الذي قالته له..... "عليّ ضبط لساني مستقبلاً! هذا التنقل بين الأزمنة والأقدار أمر متعب بالفعل!"
- "كيف عرفت بأني أواعد جيم؟ لا أذكر أنّي أخبرتك." سألته بعد أن اعترتها دهشة لم تحاول إخفاءها.
- "حسناً، لقد افتضح أمري..... سأعترف لك بالحقيقة التي حاولت أن أخفيها عنك، وكدت أنجح لولا هذه الزلّة السخيفة للساني...... لقد رأيتك قبل اليوم، وشعرت حينها بالإعجاب بك، وعندما سألت عنك بعض الأصدقاء، علمت أنك تواعدين جيم، فتراجعت وصرفت النظر عن الأمر." كذبة سريعة استطاع تأليفها في وقت قصير.... كانت هذه هي أفضل المتاح، ولقد أوفت

بالغرض. ظهر ذلك جلياً من حمرة الخجل الّتي انسلّت فجأة إلى وجنتي أليس.....

- "هـذا لا يمنـع أن نكـون أصدقـاء..... إلى اللقاء." أجابته بشـكل مقتضب، ثم غادرت المكان على الفور.....
- "كدت أفضح نفسي!" همس مراد، بعد أن تنفس الصعداء.....

* * *

عاد جواله يرن مرة أخرى في أثناء عودته إلى الشقة. كان الرقم المجهـول نفسـه الـذي حاول الاتصال به أثنـاء تواجده مع أليس..... استمر مراد في تجاهله، حيث لم يكن على استعداد أن يأخذ مخالفة مروريـة بسـبب ردّه علـى رقـم مجهول لا يعلم له صاحبـاً..... فلعله مسـوق سَـمِج يرغب في أن يقدم له عرضاً سـخيفاً، أو يبيعه شـيئاً لا يحتـاج إليـه.... ولكـن المتصل ظـل يحاول المرة تلـو الأخرى. كان مُصِرّاً على أن يرد عليه مراد.....

- "نعم؟!" ردّ حانقاً، وقد ملّ من سماجة ذلك الشخص الذي يصر على الاتصال به، بعدما ركن السيارة إلى جانب الطريق.
- "مراد أين كنت؟! حاولت الاتصال بك أكثر من مرة."
- "سـارة؟" تفاجـأ! فلـم يتوقـع منها هذه المكالمة ولا حتى سـببها، حيـث أخبرتـه بأنهـا جاءت منذ يومين إلى واشـنطن العاصمة مع غانم، وقرّرت أن تقضي هذا اليوم في بوسـطن. أرادت أن تلتقيه قبل أن تعود. حاول مراد أن يعتذر منها، خاصة أن آخر مرة رآها هنا في بوسطن، منذ سنتين ونصف، كانت على علاقة بوليام برمن مديـر داربـا..... مـاذا لو أن هذه العلاقة لا تـزال قائمة؟! ولو أنه أرسل خلفها من يتتبعها فرآها معه؟!..... لكنّ سارة أصرّت، ولم تدع له مجالاً للاعتذار.....

كان الموعد في ذات المقهى المفضل عندها، بشارع نيوبيري، الذي شهد لقاءاتهما في حياته الجسدية السابقة، والذي راقبها به في هذه الحياة ....

- "وحشتني بوسطن، ووحشني شارع نيوبيري بمحلّاته الفاخرة، ومقاهيه الهادئة، ومبانيه الجميلة ذات الطابع الأوروبي..... هل تعلم أن شقة ناصر كانت في هذه العمارة؟ كلّما جئت إلى بوسطن كنت أنزل عنده، وفي صباح كل يوم آتي لتناول الإفطار هنا في هذا المقهى..... ماذا عنك، هل سبق وجربت هذا المقهى من قبل؟"
- "لا.... هذه أول مرة." وجد نفسه يكذب عليها، لم يدرِ لماذا، ولكنه شعر بأنها الإجابة الأنسب على سؤالها.
- "تستغرب لو قلت لك: إني أشعر وكأننا جلسنا هنا من قبل؟...... لعلها حالة من الديجا فو.... لكني أشعر وكأني أعرفك منذ زمن.... وكأننا التقينا هنا في بوسطن مرات عِدّة..... شيء غريب ألَيس كذلك؟!"
- "هذا شعور طبيعي كلنا مررنا به؛ هو ناتج عن ومضات كهربائية تحدثها الخلايا العصبية في مركز الذاكرة بالمخ، تجعل صاحبها يعتقد خطأً أنه شاهد المشهد، أو مر بالتجربة من قبل." بادر على الفور بالردّ على شكوكها التي كانت تلامس حقيقة ما كان يجب لها أن تدركها!
- "يا إلهي عليك يا مراد! نزعت الرومانسية من الموقف، بتفسيرك العلمي الجاف هذا!"

لم يستطع مراد مقاومة رغبة جامحة طرأت عليه فجأة، جعلته يندفع بسؤال لطالما أراد أن يسألها إيّاه....

- "سـارة!...... ما الذي تريدينه بالضبط؟! لماذا تصرّين على البقاء علـى ذمـة رجـل مـن الواضح أنك لا تحبينه؟! هـل المال والجاه والسلطة يساوي كل هذا عندك؟!"

فوجئت من صراحته.... لم تتوقعها منه!

- "مراد.... أنت لا تفهم شيئاً.... علاقتي بغانم..... معقدة."
- "وهذا التعقيد هو الذي دفعك لإقامة علاقة مع وليام برمن؟!"

مـرة أخـرى اندفـع فـي الحديث!! أخـذ يلوم نفسـه بعدما أطلق القذيفة من المدفع!!

- "كيـف عرفـت؟!" امتقـع وجه سـارة بعـد الذي سـمعته.... بدت الدهشة واضحة عليها، ولم تحاول إخفاءها....
- "أنا آسف.... لم أقصد التطفل على شؤونك الخاصة....."
- "مراد، كيف عرفت؟! أجبني، كيف عرفت؟!" بدا إصرارها واضحاً كوضوح قرص الشمس في يوم صحو.
- "لا يهم كيف عرفت، فلست أنا من يجب أن تحذريه."
- "أيها الأبله! هل تحسبني خائفة على نفسي؟! لا أعلم كيف عرفت عـن علاقتـي بوليـام، ولكـن.... ولكن احذر من أن تـردّد ما قلته لي مرة أخرى أمام أي أحد! هل فهمت؟!" قامت سارة من على المقعـد قبـل أن تتنـاول قهوتها، شـاعرة بالتوتر، ثـم أضافت قائلة لمراد.....
- "أنا لسـت امرأة خائنة كما تحسـب.... وبالمناسـبة، السـبب الذي جعلني أرغب في مقابلتك هو لكي أخبرك بأني قد وجدت ذلك الرجـل الـذي كنت تبحث عنه.... عبدالرحمـن أبو الحمايل..... ولكـن يبـدو أننـي قـد أخطأت بالمجيء إليك!" مـا إن فرغت من جملتها حتى انطلقت على الفور من المقهى، ودون أن تنتظر رداً

من مراد....

* * *

يا له من يوم حافل لا يريد أن ينتهي! أخذ يردّد مع نفسه، وهو يدخل شقته..... الأمور كانت تزداد تعقيداً مع سارة، وقبل ذلك كاد يفضح نفسه مع أليس! أما عبدالرحمن أبو الحمايل الذي وجدته سارة دون أن تخبره كيف، فهذا كان آخر اهتمامته في تلك اللحظة.....

سمع طرقات عدة على الباب.... لوهلة ظن مراد أنها ربما تكون سارة، فلعلّها لحقت به إلى الشقة! أمنية دفينة جعلته يفتح الباب على الفور.... ولكن..... لم تكن سارة.....

- "مساء الخير.... أرجو ألّا أكون قد أتيت في وقت غير مناسب."

فوجئ مراد! لم يتوقع أن يكون حامد الزايد....

- "هل تسمح لي بالدخول؟" لم ينتظر إجابة صاحب الشقة.... دخل وأغلق الباب من خلفه، ثم واصل حديثه قبل أن ينطق مراد بكلمة.....

- "طبعاً أنت مستغرب من سبب وجودي هنا، ولكني واثق بأنك إنسان ذكي، وستربط فوراً بين مجيئي الليلة، وبين لقائك اليوم بسارة..... نعم، سارة القويت زوجة الشيخ غانم الساعدي. تلك المرأة فائقة الجمال، هي أكبر دليل على أن الجمال نعمة ونقمة في الوقت نفسه....."

- "وهل ارسلتك هي إليّ بسبب ما دار بيننا من حديث أغضبها؟!" قاطعه مراد.

- "سارة لا تعلم أي شيء عن مجيئي إليك الليلة.... وأرجو أن يبقى الأمر كذلك بيننا.... أنت شاب لطيف يا مراد، ولا أخفي عليك أن الشيخ غانم استلطفك، ومن الواضح أن سارة أيضاً استلطفتك

كثيراً، بدليل أنها حرصت على أن تأتي إلى بوسطن خصّيصاً لكي تراك، وهنا مربط الفرس..... هل فهمت قصدي؟"

- "لا، لم أفهم قصدك!" أجابه مراد بحدة، ثم واصل.....
- "هل تتهمني بشيء؟!"

ابتسم حامد للسؤال.... صمت قليلاً قبل أن يجيب....

- "في الواقع أنا لا أتهمك، بل على العكس من ذلك، أعتبرك ضحية مسكينة، أو على أقل تقدير مشروع ضحية جديدة من ضحايا فتنة سارة الطاغية التي لا تقاوم.... لذلك أشفقت عليك، وأتيت لكي أنقذك منها، ومن نفسك إن ساورتك على فعل ما قد تندم عليه مستقبلاً."
- "هل جننت؟! كيف تجرؤ على التحدث معي هكذا عن زوجة مخدومك؟! من تحسب نفسك؟!"
- "اسمع أيها الفتى الأخرق! لا تتجاوز حدودك معي! لقد أتيتك باللين مراعاة لحداثة سنك، ولكن يبدو أن أمثالك من طرش البحر لا يفهمون إلّا لغة أخرى! وصدق من قال: أكرم الكلب، عضّ يدك! ما كان ينبغي علي إلّا أن أذيقك ما أذقته لأبيك!"
- "أبي؟!" فوجئ مراد من ذكر حامد لأبيه! لم يفهم ما شأنه هو فيما حدث له؟! قذيفة حامد الزايد الأخيرة افقدته توازنه، فلم يعلم بماذا يجيبه، وإن أفصحت عيناه الشاخصتان عمّا عجز عنه لسانه.....

ضحك حامد لهذا المشهد الطريف، ثم أضاف ساخراً......

- "كيف تظن استطاع وجيه ذكري أن ينال أمك منال وهي متزوجة من أبيك؟ المسكين افتتن بها حتى لم يعد بمقدوره أن ينام الليل، من شدة اشتياقه لها. العاشق الولهان كان على استعداد أن يدفع نصف ثروته لي في مقابل أن أجد له حلاً..... نعم، أنا الذي

مهدت له الطريق! أنا الذي تسببت في اعتقال أبيك! وأنا الذي أوزعت إلى القاضي إبراهيم الصندوق لكي يوافق على خلع أمك منه!"

- "أنت؟!"

شريط الذكريات.... قوافل الآلام..... كل ما كره من حياته، وحاول نسيانه، تجمع في كتلة مكثفة من الغضب..... من الحقد..... من الكراهية! لو أن شيئاً واحداً كان مراد على يقين منه في تلك اللحظة من حياته، هو أن حامد الزايد يجب أن يدفع ثمناً غالياً! ثمناً يجعل الموت أشبه بالنزهة، والعذاب أقرب إلى المداعبة! استجمع في تلك اللحظة كل مخزون لديه من قدرة واستطاعة.... أراد أن يصب جام غضبه على "هذا القذر" حتى يعلم جيداً مع من يتحدث! سيكون موته بطيئاً حتى يرجوه الخلاص!

- "ما من شيء سينقذك مني الآن!" أراد لهذه الجملة أن تكون آخر ما يسمعه حامد، وفي اللحظة التي كان من المفترض أن يسقط على الأرض فيها، صريع أسوأ ألم شهده في حياته..... شيء لم يحدث!
- "هذا آخر تحذير مني لك..... إن لم تبتعد عن سارة وغانم الساعدي، فلا تلومن إلّا نفسك! إن كان ما حدث لأبيك مجرد لسعة نحلة، فثق بأن ما سيحدث لك سيكون أشبه بلدغة ثعبان!"

لم ينتظر حامد ردّاً من مراد. اتجه إلى باب الشقة ليخرج، دون أن يعيره أي اهتمام، بعد أن أوصل له رسالة لا تحتاج إلى من يُؤَوّلها.....

* * *

شيء عجيب! بل شيء مخيف! لم يفهم كيف لم يحدث ما كان

مـن المفتـرض لـه أن يحـدث؟! هل فقد القدرة؟ أم أنه لسـبب ما، لم يستطع؟! شعر مراد بعاصفة تكاد تهلك كل ذرة من كيانه! فكيف لم يستطع؟!..... "ما سر ذلك الرجل؟!" لماذا لم يتمكن منه؟!

لم يجد أمامه سوى سبيل واحد..... فرصة واحدة، لعلها تقوده إلـى المعرفـة..... وفـي المعرفة الخلاص! أمسـك بهاتفه الجوال، ثم قام بالاتصال بآخر رقم سُجل عنده..... سارة!

- "ماذا تريد؟" أجابته بعتب.... نبرة صوتها أنبأته بما شـك فيه.... هي لم ترسل حامداً إليه، بل على الأرجح قام هو بذلك من تلقاء نفسه..... قرّر أنه لن يرضخ لذلك "الحقير"!
- "سامحيني..... لقد أخطأت في حقك..... أرجوك سامحيني."
- "مراد..... ماذا أصابك؟" نبرة سعيدة.... هذا ما أراد سماعه.
- "أنت أصبتِني..... لا أريد أن أخسرك."

لحظة صمت.... كأنها تفكر فيما قال.....

- "هناك أمور كثيرة أنتَ تجهلها عني..... لعلي أشرحها لكَ في يوم مـن الأيـام؛ ولكنـي أريدك أن تعدني بأنكَ لن تسـألني عنها حتى أكون مسـتعدة لكي أبوح لك بها من تلقاء نفسـي..... هل تعدني بذلك؟"
- "أعدكِ."

لحظات صمت من جديد، ولكنها لم تطل......

- "لقد سامحتكَ." همست إليه.
- "هناك أمر آخر إن سمحتِ لي؛ ما كان بودي أن أفتح معك سيرته الآن، ولكنه في غاية الأهمية، ولا يتحمل أي تأجيل."
- "اطلب ما شئت، دون أن تشعر بأدنى حرج." صوتها امتلأ برقة لم يألفها منها، وكأنها تمر بلحظة ضعف نادرة.

- "عبدالرحمن أبو الحمايل..... أين وجدتِه؟!"

* * *

نظرات حقد رآها مراد قطز في عيني حامد الزايد في أثناء دخوله إلى خيمة غانم الساعدي في مخيم الصيد الكبير الخاص به في شرق ولاية القصرين بوسط تونس. لم يكن استقبال مراد هذه المرة بالحفاوة نفسها التي تلقاها في الصيف الماضي بسيدي بوسعيد، وكأن صاحب المخيم لم يكن هو الآخر مسروراً لرؤيته، وإن تظاهر بخلاف ذلك، ما أثار في نفسه شيئاً من الريبة، خاصة أنّه رحّب بقدومه ومصاحبته في رحلة الصيد، عندما حادثه من أمريكا.....

- "أرجو ألا تكون الرحلة من مطار صفاقس إلى هنا قد أرهقتك. المسافة ليست ببسيطة، ولكن عمّا قريب سيفتتح مطار جديد بمدينة قفصة، سيختصر المسافة إلى النصف؛ أليس كذلك يا حامد؟"
- "صحيح طال عمرك. رئيس ديوان الطيران المدني وعد بأنه سيتم افتتاحه العام المقبل على الأكثر."
- "أرجو أن يحافظ على وعده." ابتسم الشيخ غانم، ثم أضاف مخاطباً مراد.....
- "لقد دفعت مبلغاً محترماً من أجل بنائه، ولكن طبعاً في السر، دون الإعلان عن ذلك لأسباب سيادية تخص حكومة تونس.... هل تعلم يا مراد، أن رحلتي للصيد هذه الّتي تستغرق أقل من شهر في العادة، تعود على اقتصاد ولايتي القصرين وسيدي بوزيد المجاورة، ما يساوي ناتجهما المحلي طوال العام؟ أليس كذلك يا حامد؟"
- "صحيح طال عمرك."

- "والله يا شيخ غانم خيرك قد عمّ الجميع، القاصي والداني." قفز في وسط الحديث رجل كث اللحية بجوار غانم الساعدي، لم يعره مراد أي اهتمام عندما دخل إلى الخيمة.
- "جزاك الله خيراً يا شيخنا العزيز.... بالمناسبة لم أعرفك على مراد قُطُز، طالب في كلية الطب بجامعة هارفارد." ثم أضاف غانم مخاطباً مراد مرة أخرى.....
- "أكيد تعرف الشيخ إبراهيم الصندوق الداعية المعروف، والقاضي سابقاً."

إبراهيم الصندوق؟! "هذا أنت إذن!" لم يسبق لمراد أن التقاه من قبل، وإن سمع به عندما خلع أمه من أبيه! "يا لها من دنيا صغيرة يتجمع فيها أكثر من حقير في خيمة واحدة!" أراد أن يبصق في وجهه، ولكنه اكتفى هذه المرة بمصافحته!

- "قُطُز؟ كأنه مر بي هذا الاسم من قبل."
- "بالتأكيد مر بك هذا الاسم.... هو الذي انتصر على المغول في معركة عين جالوت." قال غانم ممازحاً ضيفه الشيخ الداعية.
- "الله عليك يا شيخ غانم!..... ما قصدتُ هذا."
- "لعلك كنت تعرف أبي.... طار...."
- "ما رأيك لو آخذك إلى خيمتك لكي ترتاح قليلاً من تعب السفر." قاطع حامد جملة مراد على الفور قبل أن يكمل اسم أبيه طارق، ثم نظر إليه متوعداً بنظرات يملؤها الشرر.
- "فكرة جيدة.... اذهب، وخذ قسطاً من الراحة يا مراد، ثم نلتقي قبيل الغروب من أجل العشاء." أكّد الشيخ غانم الساعدي على اقتراح مساعده.

خرج مراد من الخيمة الكبيرة وراء حامد الزايد الذي ظل صامتاً

حتى قطع مسافة لا بأس بها، إلى الجانب الشرقي من المُخَيم، حيث تكمن خيمة الضيف الجديد..... نظر حوله، وعندما تأكد أن لا أحد بالجوار، التفت بجسمه نحو مراد، ثم قال بصوت دفين......

- "لقد جنيت على نفسك أيها الأخرق! لا أحد يتحداني وينجو!"

لم ينتظر حامد تعليق مراد على ما قال، إذ ما كاد يفرغ، حتى تركه عند خيمته وعاد من حيث جاء، ثم أضاف قائلاً دون أن يلتفت إليه هذه المرة......

- "ستجد أمتعتك بالداخل.... ولو أني على ثقة بأنك لن تحتاج إليها عمّا قريب!"

* * *

خرج من الخيمة بعد منتصف الليل، والجميع، عدا الحرس، نيام. أخذ يبحث عن ذلك الدليل الذي حدّثته عنه سارة قبيل مغادرتها لأمريكا.....

- "اسمه علي الماجري.... غانم دائماً ما يستعين به عندما يذهب إلى الصيد بالقصرين. يقول عنه إنه أفضل دليل في المنطقة؛ فلا أحد يعرف جبل الشعانبي بمسالكه وتعرجاته مثله."

أخبرته سارة بأنها استمعت ذات يوم إلى زوجها، وهو يتحدث على الهاتف مع مدير مخيمه في تونس. كان غاضباً جداً لأن علي الماجري رفض مصاحبتهم في رحلة الصيد القادمة التي أرادوا فيها اصطياد القطط البرية، والسبب أنها تقع في المنطقة التي يسكنها العارف!

- "أي والله هذا ما قاله مدير المخيم لغانم، فأغضبه! أنا عندما سمعت بالأمر من غانم لم أتمالك نفسي من الضحك..... أهالي المنطقة يهابون رجلاً يسكن الجبال وتتجمع حوله القطط البرية! يا

لها من قصة أشبه بأفلام هوليوود! ولكن كم كانت دهشتي عندما ذكر اسم ذلك الرجل الذين ينادونه بالعارف..... عبدالرحمن أبو الحمايل! تذكرت على الفور ما قلته لي في سيدي بوسعيد عن بحثك عن رجل بهذا الاسم كان يسكن مصر ثم هاجر إلى تونس، فقلت في نفسي لعله هو ذاته الذي تبحث عنه!" بدت سارة مبتهجة وهي تحكي له؛ سعيدة لأنها توصلت إلى الرجل الذي كان يبحث مراد عنه ولم يجده؛ ولكن سرعان ما زالت تلك البهجة عندما أخبرها بزيارة حامد الزايد، وما دار من نقاش بينهما..... خليط عجيب من التوتر والفزع انتابها على الفور. سكبت كوب القهوة دون قصد، ثم قامت من على كرسيها. لم يشاهدها مراد قط على هذا الحال من قبل، حتى في الحياة السابقة.....

- "ماذا دهاك؟!"
- "مراد، يجب أن تستمع إليه.... ليس فقط من أجلي، ولكن من أجلك أنت أيضاً! لم أحسب أن الأمر سيصل إلى هذا الحد!"
- "ما سر سطوة حامد هذه؟! لا أفهم، من الخادم هنا ومن المخدوم؟! أخبريني يا سارة، هل يهددك هذا الوغد بشيء؟! هل يمسك عليك أمراً تخشين أن يفشيه إلى زوجك؟!"
- "الأمر أعقد من هذا يا مراد.... لن تفهم..... من الأفضل لك أن تبتعد عني وعن غانم.... آسفة، بجد أنا آسفة لأني عرضتك لمثل هذا الموقف!"
- "لا! لن أقبل أن يهددني وغد مثله! هو لا يعلم مع من يتعامل! فأنا لست مطية ليركبها!"
- "هو كما قلت: وغد! لذلك من الأفضل لنا جميعاً أن نتجنب شره! أرجوك يا مراد، إن لم يكن من أجلك أنت فمن أجلي أنا، لا

تحاول الاتصال بي بعد الآن!"

- "ولكنك أنت التي اتصلت بي في بوسطن! وأنت التي قدمت قبل ذلك إلى غرفتي في سيدي بوسعيدا!"

لم يصدق مراد ما كان يسمعه منها.... لم يفهم سر هذا التحول العجيب، وهي التي سعت لإقامة علاقة معه!

- "أعلم ذلك جيداً! لا أنكر، ولكن الظروف قد تغيرت الآن! أرجوك مراد أنا مضطرة إلى الذهاب."
- "وماذا عن علي الماجري الذي أخبرتني عنه؟ كيف أصل إليه؟"
- "لا أدري.... تصرف أنت بعيداً عني...." أجابته في أثناء انصرافها على عجل.

تعجب مراد لما حدث؛ فما شاهده قبل قليل كان شيئاً مريباً وعجيباً.... خوفها من حامد الزايد أثار فضوله بمقدار رغبته في التوصل إلى عبدالرحمن أبو الحمايل. ما سر سطوة ذلك الرجل عليها؟! هل يمتلك أدلة على خيانتها لزوجها غانم الساعدي، ويهددها بها؟! ألهذا هي خائفة منه؟! أياً كان السبب، فشيء واحد أصبح مراد على يقين منه: يجب التخلص من حامد الزايد! ولكن قبل ذلك يجب أن يفهم لماذا لم يستطع التمكن منه عندما زاره في بوسطن وهدّده؟! ولكي يجيب عن سؤاله هذا وغيره من التساؤلات، لم يجد بدّاً من أن يحادث غانم الساعدي على رقمه المباشر الذي أعطاه إياه قبل أن يغادر تونس. سيكلمه على الرغم من تحذير سارة ووعيد حامد، لكي يطلب منه مصاحبته في رحلة الصيد القادمة إلى تونس..... سيبحث عن علي الماجري، ويطلب منه أن يأخذه إلى عبدالرحمن أبو الحمايل؛ ولعله، كما قالت له جدته آلاء، سيجد عنده الجواب.....

لم يرَ مراد أمامه أي خيار آخر!

* * *

لـم يجـد صعوبـة كبيـرة فـي العثور علـى خيمة علـي الماجري بعـد أن دلّـه أحـد الحـراس، ولكنه وجد صعوبة في تبرير سـبب قضّ مضجعه، بعد أن أيقظه، وأضاع عليه السويعات القليلة التي ينامها قبيل الفجر.....

- "عبدالرحمـن أبـو الحمايـل؟! ومـن أيـن تعرفـه؟" تعجـب علـي الماجري من هذا الفتى الذي جاءه بعد منتصف الليل لكي يسأله عن العارف..... لم يعهد هذا الأمر من أحد ضيوف الشيخ غانم الساعدي من قبل!
- "هو صديق قديم لأسرتي..... أحتاج إليه لأمر مهم."

لم يستسغ ما سمعه من مراد.....

- "ولكنك لا تبدو لي مصرياً."
- "هـذا لأنـي لسـت مصريّـاً..... معرفته بأسـرتي عـن طريق جدي الكبير أحمد قُطُز. تعرف عليه في مكة منذ عقود."
- "أنـت سـعودي؟! غيـر معقـول.... شـكلك غيـر سـعودي علـى الإطلاق!"
- "صدقنـي هـذه ليسـت أول مـرة أسـمع فيها هذا التعليـق، ولكني سـعودي، وليـس هـذا هو موضوعنـا الآن. هل لديك مانع من أن تأخذني إلى عبدالرحمن أبو الحمايل؟!" ملَّ مراد من هذا النقاش الذي وجده عقيماً، وكأن موقع عبدالرحمن سر من أسرار الدولة!
- "هذه مسألة تخصه ولا تخصني. يجب علي أن أستأذنه أولاً."
- "كلام سليم..... هل بإمكانك الاتصال به، ربما في الصباح، عندما يستيقظ من النوم."

- "عبدالرحمن أبو الحمايل لا ينام حتى يستيقظ..... هو دائم اليقظة."
- "لا ينام؟" تعجب مراد ممّا قاله الدليل.... "هو إذن مثلي!"..... ردّد مع نفسه.....
- "لماذا إذن لا تكلمه الآن، بما أنه لا ينام؟"
- "أكلمه؟! هل تحسبه يسكن خيمة مجاورة؟! إنّه في الطرف الآخر من الجبل!"
- "يا سيدي أقصد التحدث معه هاتفياً، وليس أن تذهب إليه الآن!"
- "عن أي هاتف تتحدث؟! الرجل يسكن الجبل بمفرده بين الخلاء..... لا توجد هناك خدمات؛ ولكي أُعلمه يجب أن أذهب إليه بنفسي!" ردّ على طلب مراد، ثم أضاف ساخراً.....
- "ومع الأسف لا يوجد عندي حمام زاجل؛ جميعها اصطادها شيخك غانم!"
- "حسناً، لا داعي للتهكم... كما إنه ليس بشيخي!.... متى تستطيع الذهاب إليه؟"
- "ربما بعد فضّ المخيم..... على نهاية الشهر."
- "ماذا؟! اسمعني يا عزيزي، لا أستطيع الانتظار كل هذا الوقت!"
- "الصبر جميل يا أخي."
- "نعم الصبر جميل، ولقد صبرت سنتين منذ أن بدأت أبحث عنه..... المشكلة ليست في، بل في حامد الزايد. لا أظنني سأمكث في المخيم مدة طويلة."

تعجب علي الماجري ممّا قاله مراد.....

- "ذلك الوغد وضعك أنت أيضاً في قائمته السوداء؟! أنا كذلك عندما رفضت أن آخذهم إلى القطط البرّية كما طلب شيخه.....

لا بأس، سأذهب غداً بعد الرجوع من رحلة الصيد.... وهذا ليس حبّاً فيك، بل كرهاً في ذلك الأفّاق!"

- "صدّقني، لست وحدك من يكره حامد الزايد....." أجابه مراد، ثم أضاف مع نفسه: "فلولا شدة كرهي له، لما حرصت على مقابلة عبدالرحمن أبو الحمايل هذا! ولما تذلّلت لشخص مثلك!"

* * *

وكأن غانم الساعدي ملّ من صيد السمّان، هذا ما بدا لمراد. لم يكن متحمساً، بل عابساً أغلب الوقت، حتى إنه أنهى الرحلة مبكراً..... مصائب قوم عند قوم فوائد، هذا ما تمناه مراد، حتى يتمكن علي الماجري من الذهاب إلى عبدالرحمن، ويستأذنه في إحضاره.....

سمع غانم وهو يطلب من حامد أن يبحث له عن دليل صيد آخر غير ذلك "المتغطرس" الذي أبى أن ينصاع لأوامره، فرفض أخذهم لمنطقة القطط البرّية..... فالشيخ السعودي سئم من اصطياد الطيور الوديعة، وشعر أن باستطاعته الآن أن ينتقل إلى الوحوش المفترسة! ولكن ذلك "المُدعي الأفّاق"، عبدالرحمن أبو الحمايل، الذي يهابه أهل المنطقة، حال بينه وبين رغبته!

- "والله يا شيخ غانم، إن هذه البِدَع لهي سبب دمار أمّتنا! يوقرون الأفّاقين بحجة أنّهم أولياء، ويتركون علماء الأمّة المشهود لهم بالعلم!" أدلى الشيخ إبراهيم الصندوق بدلوه، في محاولة منه للتخفيف عن وليّ نعمته.
- "ولهذا استعنّا بك وبأمثالك يا شيخنا، لكي تبث لهم العلم الذي ورثناه عن السلف الصالح، هنا في تونس، وفي غيرها من بلاد المسلمين." أضاف حامد الزايد مُثْلجاً صدر الداعية السعودي.
- "والله يا شيخ غانم أغبطك على الأخ حامد، إنه لنعم المعين،

كما أغبط نفسي عليك فإنك لنعم الراعي؛ ولأنك من أهل الخير، وتسخر أموالك التي حباك الله بها من أجل نشر الدعوة السلفية الخالصة، فالله يُيَسر لك دائماً خيرة الناس لكي يعاونوك على البِرّ والتقوى."

- "العفو يا شيخ إبراهيم. أنتم الخير والبركة. أنتم من تحفظون الدين لهذه الأمة؛ فمن دونكم نحن لا شيء."
- "أتفق مع هذه الجملة الأخيرة." قاطع مراد فجأة الحديث بعد صمت.....
- "فعلاً أنتم من دونهم لا تسوون شيئاً."

قام من المجلس مغادراً المكان، ليتجه نحو خيمته، بعد أن فضّل أن ينتظر بها حتى يأتيه علي الماجري بالخبر اليقين، عوضاً عن سماع "ذلك الهراء"!

* * *

لم يمكث مراد مدة طويلة في خيمته حتى جاءه علي الماجري بنبأ موافقة عبدالرحمن أبو الحمايل على ملاقاته.... بدا مندهشاً بعض الشيء، وكأنه توقع الرفض....

- "متى نستطيع الذهاب؟!" تساءل مراد بلهفة الطفل الذي وُعد من قبل أبيه بالذهاب إلى المتجر من أجل شراء الحلوى.
- "الآن لو رغبت."

لم يستغرق المشوار إلى الجانب الآخر من الجبل سوى نصف ساعة. ركن علي الماجري سيارته عند السفح بالقرب من طريق جبلي متعرج لا يتسع إلّا للراجلين.....

- "علينا الصعود من هنا على أقدامنا. المسافة ليست بعيدة، ولكنها وعرة بعض الشيء."

- "ما سر هذا الرجل والجبال؟! حتى في القاهرة كان يسكن أعلى جبل المقطم!"
- "لعلّه الهواء العليل."
- "نعم.... لعلّه كذلك." ردّد مراد ساخراً.

تدرج الطريق بين غابات لأشجار الصنوبر، ومرتفعات صخرية. لمح مراد على بعد، بعض الظبيان الجبلية وهي تتسلق جانباً من هذه المرتفعـات، فتذكـر مـا دار مـن نقـاش في صباح هذا اليـوم بين غانم الساعدي ومساعده حامد الزايد.

- "هـل حقّـاً توجـد قطط برية في هذا الجانب من الجبل؟" تسـاءل مراد.
- "نعـم صحيـح، هـذا هو مكانهـا، ولكنها دائمـة التخفي. ليس من السهل رؤيتها. لا بد من دليل بارع لكي يقتفي أثرها."
- "دليل بارع مثلك؟"

ابتسم علي الماجري لهذا الإطراء، دون أن يرد.

- "ولكن لماذا رفضت أخذ الشيخ غانم إلى هنا؟"
- "يا أخي، أنتم السعوديون تظنون أنكم بأموالكم تستطيعون امتلاك الدنيا وما عليها! هناك أمور لا يمكن شـراؤها..... نحن صحيح ليس لدينا أموال طائلة هنا في القصرين، ولكن لدينا كرامة! لدينا عِزّة!"
- "وما دخل العِزّة والكرامة في الأمر؟ أليس هذا مكاناً للصيد؟"
- "عبدالرحمـن أبـو الحمايـل عندما جاء إلـى القصرين قبل عقد أو أكثـر كانـت هنـاك خلافات شـديدة وصلت إلى حـد الاقتتال بين قبائـل ماجر والفراشـيش الأمازيغية مـن جهة، وبين بعض القبائل العربيـة كبنـي تليـل وبنـي عسـكر. الرجل بحكمتـه وعقله وعلمه

استطاع أن يؤلف بين قلوبهم جميعاً، وعندما أرادوا مكافأته، كان لديه طلب واحد: أن يسكن هذه البقعة من جبل الشعانبي، مختلياً بنفسه، ودون أن يزعجه أحد..... سبحان الله، مع الوقت بدأت المخلوقات هنا تستأمن هذا المكان أكثر من غيره، وتأتي إليه، بما فيها القطط البرّية التي يرغب شيخك في اصطيادها."

- "قلت لك قبل ذلك: هو ليس بشيخي!" أجابه مراد منزعجاً من هذا المصطلح الذي استخدمه معه علي الماجري أكثر من مرة!
- "ولكنك هنا في ضيافته مثل ذلك الداعية السلفي إبراهيم الصندوق الذي يحسبنا جميعاً على ضلال، وهو والله لأكبر أفاقٍ رأيته في حياتي!"
- "أنا لست مثله... ونعم، أنا هنا في ضيافته، ولكن....." شعر مراد بالحرج؛ لم يعلم بماذا يجيبه.
- "لا بأس، فهذا أمر لا يعنيني كثيراً..... ها نحن قد اقتربنا من المكان." أشار الدليل إلى كوخ قديم في آخر الطريق، محاط ببعض الأشجار بجانب ينبوع صغير.....
- "سأتركك الآن... سيدي عبدالرحمن في انتظارك بالداخل."
- "مهلاً! وكيف سأرجع بعد ذلك؟!"
- "أنت طلبت مني أن آخذك إليه؛ لم تطلب مني أن أرجعك بعد ذلك."
- "وهل هذا بحاجة إلى طلب؟! أليس من الطبيعي أن تعيدني إلى المُخَيّم؟ وإلّا فكيف سأرجع؟!" تساءل مراد، مستعجباً ما قاله الدليل!
- "لا تحمل همّاً يا عزيزي..... أنت مع سيدي عبدالرحمن أبو الحمايل..... العارف! لا تحمل همّاً، فستعود سالماً بإذن الله.....

إلّا إذا....."

- "إلّا إذا؟!!..... إلّا إذا ماذا؟!"
- "لا عليك.... لا عليك.....استودعتك الله...." أجابه علي الماجري على عجل، ثم أشار نحو الكوخ.....
- "اذهب إلى هناك الآن.... هو في انتظارك." ثم تراجع نحو الطريق الذي جاء منه مع مراد.

* * *

لم يكن المكان موحشاً على الرغم من انعزاله بين الجبال. لم يشعر مراد بالوحشة بقدر ما شعر بالدهشة لاختيار إنسان أن يبتعد على هذا النحو عن الناس والعمران، فينعزل مع نفسه بين الوحوش والأنعام!

اقترب من الكوخ على حذر، حتى أصبح على مسافة تسمح له بالطرق على بابه الخشبي القديم. لسبب ما شعر وكأنه في حلم من أحلامه التي كان يراها قبل أن ينقطع عنه النوم. الأمر كان في غاية الغرابة، وإن كان قد اعتاد الآن على كل ما هو غريب! فما الذي يا ترى ينتظره بالداخل؟ أخذ يتساءل مع نفسه قبل أن يمد ذراعه..... هل سيجد عند هذا الرجل العجوز الذي تجاوز الثمانين، على أقل تقدير، ما يصبو إليه ويبتغيه؟ لوهلة ظن مراد أن الأمر برمّته هو ضرب من الجنون؛ فحاجته لن تكون عند شخص كهذا..... العارف؟!! "تخاريف الجاهلين!" لم تكن هذه هي مبتغاه، بل العلم الذي يؤدي إلى اليقين، وليس أقاويل العامة الدهماء وشطحاتهم!

أراد أن يعود ويلحق بعلي الماجري، ولكن ذراعه كانت قد سبقته قرعاً على الباب.....

- "تفضل، فالباب غير مصفد." جاء الصوت من الداخل؛ كان قوياً

وليس لرجل في عقده التاسع.

دفع مراد الباب، ثم بخطوات متأنية أخذ يتقدم إلى داخل الكوخ الذي بدا له أكبر بكثير، على خلاف ما بدا له من الخارج!

- "السلام عليكم.... حللت أهلاً، ونزلت سهلاً.... كنت أنتظر هذا اللقاء منذ زمن." تقدم نحوه رجل في أوائل الأربعين من عمره، ذو لحية خفيفة سوداء، ظهر واضحاً أمامه بثيابه البيضاء وعمامته الخضراء على الرغم من عتمة المكان....

لوهلة تراجع مراد إلى الخلف، عندما تهيأ له بأنه هو ذاته الرجل الذي شاهده مع ذلك الذي يشبهه، عندما انفصلت نفسه عن جسده في المرتين اللتين قُتل فيها!

- " أنت؟!" خرج منه السؤال.....

لم يفهم الرجل قصده، بدا ذلك جليّاً من عقدة حاجبيه التي تشكلت فجأة.

- " هل أنت الشيخ عبدالرحمن أبو الحمايل؟" عدّل مراد السؤال بعد أن تمالك نفسه.
- "يكفي عبدالرحمن، ومن دون شيخ." أجابه، ثم بادر بسؤاله.....
- "وأنت حفيد أحمد قطز؟"
- "مستحيل! الرجل الذي أبحث عنه قد تجاوز الثمانين! أنت أصغر من ذلك بكثير!"
- "في واقع الأمر أنا من سن أحمد رحمة الله عليه؛ ما يعني أني قد تجاوزت الآن المئة بعقدين." أجاب مبتسماً.....
- "لا تستغرب، فعمر الإنسان الحقيقي لا يقاس بعدد المرات التي تدور فيها الأرض حول الشمس، أو بعدد المرات التي يدور فيها القمر حول الأرض. الأمر أعقد من ذلك بكثير، وإن كان أغلب

الناس لا يدركون؛ حسبي أنك تعلم هذا جيداً، وإلّا فما جئت إلى هنا...... أخبرني، هل أنت حفيد آلاء أم من فرع آخر؟"

- "بل حفيدها."
- "إذن أنت ابن طارق."
- "صحيح." أجابه باقتضاب، وأثر الدهشة الأولى لا يزال يعصف بذهنه!
- "وكيف حال جدتك وأبيك؟ أذكر أن أحمد عندما زارني بمصر كان في سعادة عارمة لمولده، ولأن الله مدّ في عمره حتى شاهد ابن أعز أحفاده إلى قلبه. كان رحمة الله عليه، يكن محبة خاصة لجدتك آلاء."
- "جدّتي هي التي أخبرتني عنك، ولكنها لم تكن تعلم بأنك قد تركت القاهرة..... أما أبي..... فلقد رحل عن الدنيا منذ أربعة أعوام ونصف."
- "رحمة الله عليه.... أسأل الكريم أن يعوضه في الآخرة خيراً ممّا تركه في الدنيا..... لوهلة من الزمن حسبت أنه هو الذي سوف يطرق بابي، ولكني أخطأت التقدير..... أنت إذن من انقطع عنه النوم وليس هو؟"
- "وكيف عرفت؟!"
- "لأني مثلك يا مراد، من الذين انقطع عنهم النوم."

* * *

- "عبدالرحمن أبو الحمايل هو عبدالرحمن!! مدهش! مدهش!" أخذ مراد قُطُز يردد وهو في حالة المشاهدة اللا جسدية لأحداث مراد الآخر مع الرجل الذي تعرف عليه بالقرب من مدينة أترار وصاحبه لفترة من الزمن.....

- "إذن كنت تعرفه، ولم تخبرني! ولكن هل كنت تعرفني أنا أيضاً، أم حسبتني هو؟! سرّك بدأ ينكشف لي يا ذا العمامة الخضراء، وسرّ قريني الذي خدعني.... وما خفي كان أعظم!"

* * *

- "ذلك النسيج العظيم الذي يربط الأكوان والأزمان، النفس هي التي تستطيع اختراقه، لأنها تمتلك القدرة التي لا يمتلكها الجسد..... وهنا تكمن المشكلة: كيف تفصل النفس عن الجسد، دون أن تنقطع الصلة بينهما؟ فالموت الدنيوي يتحقق بانقطاع تلك الصلة بين النفس والجسد. النوم إحدى هذه الوسائل، ولكن هناك وسائل أخرى. بعض المتمكنين يستخدمون خليطاً من الأعشاب النادرة، ليحدثوا أثراً مُشابهاً لحالة النوم، ولكن تبقى هذه مجرد وسيلة من أجل غاية أكبر وأعظم..... الوصول إلى المُنتهى."
- "المُنتهى؟؟" لم يفهم مراد ما الذي كان يقصده عبدالرحمن.
- "المنتهى هو معرفة كل ما يمكن له أن يعرف من سنن الأكوان وما فيها..... هذه المعرفة هي التي تمكن صاحبها من إحداث ما يعتبره الآخرون أعظم المعجزات...."
- "المعجزة علم لم يكتشف بعد.... " قاطعه مراد مردداً تلك العبارة التي سمعها منذ سنوات من أبيه. تأملها قليلاً قبل أن يكمل حديثه......
- "مقولة واصل بن غيلان الشهيرة.... هل كان هو أيضاً من الذين انقطع عنهم النوم؟"
- "لم أسمع به من قبل.... أهو شخص تعرفه؟" تساءل عبدالرحمن.
- "بل عالم عاش في أوائل القرن الثالث عشر ببخارى، ألّف عنه أبي كتاباً، أحد تلاميذته هو نصير الدين الطوسي، الفلكي المعروف."

- "كما أن العلم درجات، فكذلك المعرفة..... هناك من يدور حولها دون أن يلمسها، ومن يلمسها دون أن ينغمس فيها، ومن ينغمس فيها حتى النخاع حتى يصبح كيانه بأكمله جزءاً من تلك المعرفة. أعظم مثال على هذا هو آصف بن برخية؛ لا أعلم أحداً غيره وصل إلى المنتهى."
- "ولا حتى أنت الملقب بالعارف؟"
- "الأعور في جزيرة العميان يلقب بالبصير...... أنا لم أصل بعد إلى ما وصل إليه آصف بن برخيا الذي تجسدت معرفته في الإتيان بعرش بلقيس إلى حضرة نبي الله سليمان عليه السلام، قبل أن يرتد إليه طرفه."
- "وهل ورَّث آصف بن برخيا تلك المعرفة لأحد من بعده؟"
- "العلم فقط هو الذي يورث، أمّا المعرفة فلها شأن آخر. أمرها بيد الباحث عنها فقط، ولكن دعني أؤكد لك أمراً هو الأهم: البداية تكمن في معرفة الذات..... هذه هي القاعدة الأولى والأساس؛ فلا يمكن للعارف أن يفهم العالم من حوله دون أن يفهم نفسه أولاً..... الذات هي المنطلق نحو المنتهى. كل ما عدا ذلك يبقى مجرد إرهاصات، تصيب مرّة وتخفق مرّات."
- "ولكن من أين أتت القدرة؟ لماذا أنا وأنت، وليس علي الماجري أو غانم الساعدي مثلاً؟!"
- "القدرة موجودة فينا جميعاً ولكنها تتفاوت..... لماذا لا يرسم كل شخص كبيكاسو؟ لماذا لا يمتلك كل شخص موهبة موتزارت؟ لماذا لم يستطع كل عالم أن يتوصل إلى كشوف علمية تضاهي ما توصل إليه أينشتاين؟ هناك عوامل عدة تؤثر في قدرات الإنسان وتجلياتها، وفوق كل هذا فلا بد من الاستطاعة التي لا تتسنى

إلا بالمعرفـة، وحينهـا فقـط تتحقـق الإرادة لتجعل من الممكنات موجـودات محقّقـة..... جمـال الكون يكمن في أسـراره المتاحة لكل باحث عنها."

- "ماذا عنك أنت؟ كم اسـتغرق منك الأمر حتى أصبحت متحكماً في قدراتك؟ وكيف استطعت أن تطوع جسدك على هذا النحو؟! هناك الكثير ممّا أود أن أتعلمه منك، إن سمحت لي!"

ابتسم عبدالرحمن، ثم رَبت على كتف مراد....

- "ذكّرتني بنفسي عندما كنت في مثل سنك..... أمر ليس باليسير أن يكتشـف المرء أنه ليس كباقي الناس، فيعيش غريباً في وسـطهم، وبعيداً عن أقرب الناس إليه، لأنه على غير شـاكلتهم. ولكن من حسـن حظـي أنـه كان لديّ صديـق وفي، سـاعدني وآزرني حتى وجدت لنفسي الطريق الذي سلكته. لعلّي أرد له الدين من خلال حفيده الذي وجد طريقه إليّ."
- "هـل كان جـدي أحمد مثلنا؟!" فوجـئ مراد ممّا قاله عبدالرحمن أبو الحمايل.
- "لا، ولكنه كان من المدركين..... أجدادك توارثوا أخبار العارفين، ولا أسـتبعد أن يكـون أحدهـم فـي زمـن مـن الأزمان قـد امتلك القدرة وإن لم يمتلكها أحفاده حتى جئت أنت. ما أسهل أن ينسى الإنسان تاريخه، فيصنع لنفسه تاريخاً جديداً فيه جزء من الحقيقة وليـس كلهـا..... هناك أمور أسـتطيع مسـاعدتك فيهـا، ولكن ثق أنها لن تكون سوى غيض من فيض؛ فالطريق إلى المعرفة يجب أن يسلكه المرء بنفسه، لأنه يختلف من شخص لآخر. قد يلتقي طريقـك بيـن الفينـة والأخرى بطريـق غيرك مـن الباحثين، ولكنه سرعان ما ينعطف. الأمر أشبه بحلقة يجب أن تكتمل حتى تصل

إلـى مبتغـاك، وقـد تسـتغرق هـذه الحلقة أياماً أو شـهوراً أو حتى سنوات، كلٌ على حسب قدراته."

- "وهـل اكتملـت حلقتـك أنـت؟" تسـاءل مـراد، مأخـوذاً بمـا قاله عبدالرحمن.
- "لا.... لم تكتمل بعد.... وإن كنت أظن بأن الأمر لن يطول أكثر ممّا طال."

* * *

شيء ما خَطَر على بال مراد في أثناء حديثه مع عبدالرحمن أبو الحمايل، جعله يتوقف قليلاً. تذكر مخطوطة جلّاب المُبَخِّر التي قرأها بمكتبـة جامعـة هارفـارد، والتي جاء فيها عن أهل الكشـف وقدراتهم المختلفة وبعض الذين عرفهم الكاتب أو سمع عنهم، ممن يدخلون في هذه الدائرة الضيقة. أحد الأسماء التي ذكرها كانت لشخص يدعى عبدالرحمن، وصفه بأنه أعظمهم، وإن كان يعرف القليل عنه......

- "أول مـرة أسـمع بهـذه المخطوطـة." أجابـه عبدالرحمـن أبـو الحمايل......
- "كمـا لـم أسـمع مـن قبل بصاحبهـا. أما عن أهل الكشـف الذين ذكرهم، فهذا مصطلح استخدم في الماضي لوصف أمثالنا ممن يمتلكون القدرات. بعض الأسماء التي ذكرتها سمعت بها، وعلى رأسهم أم الوفا التي عاشت في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي. أما هذه العشبة أو خليط الأعشاب المسماة الوسكا، فهي تذكرني بشيء شبيه عند بعض قبائل أمريكا الجنوبية.... الأيَوَسْكا. جربتها ذات مرة منذ عقود، عندما سافرت إلى البيرو، ولم أجد فيها فائدة كبيرة. لعلّ الوسـكا هذه التي صنعها حيدر الكاشـف، بحسـب ما ذكرتـه لـي عـن مخطوطـة جُـلّاب، والّتي لا يعرف سـرها سـواه

وذلـك الكاهـن المغولـي تبتنكر، لا تختلف كثيراً في مفعولها عن الأيَوَسْكا."

- "بل هي فعّالة، وتساعد على فصل النفس عن الجسد لمن لديهم القدرة؛ والأهم من ذلك، أنه عندما تنفصل النفس، يكون صاحبها واعياً بما يحدث."
- "وكيف علمت أنت بهذا الأمر؟"

تلعثم مراد، فلم يعرف كيف يجيب عبدالرحمن دون أن يفشـي سـره الذي أراد أن يحتفظ به لنفســه، حتى لا يكرر الغلطة ذاتها التي ارتكبها مع فيرجينيا..... هناك أمور قرّر أنه سيحتفظ بها لنفسه، وعلى رأسها حياته السابقة وقدرته على العودة من جديد.....

- "هذا ما أكّده جلّاب في كتابه، ويبدو..... ويبدو لي أنه شـخص ذو ثقة."
- "على أي حال، إن كان هناك شيء اسمه الوسكا بخلاف الأيوسكا التي جربتها، فهذه أول مرة أسمع بها.... يبدو أن سرها قد مات مع حيدر الكاشف والكاهن تبتنكر."
- "يبدو ذلك." ردّد مراد، وهو يعلم جيداً أن سـر الوسـكا معلوم لـدى فيرجينيـا التـي تجري عليها بحوثاً سـرية بموافقة مدير داربا وليـام برمـن..... "يومـاً ما يا فيرجينيـا أنت ووليام برمن!.... يوماً ما!!"
- "كأنـك تبحـث عـن طريـق مختصـر لكـي تنمـي بهـا قدراتـك يا مـراد..... أنـت لسـت فـي حاجة للوسـكا. الصبـر والمثابرة على الطريق، هما كل ما تحتاج إليه."
- "مـع الأسـف ليـس لدي القدرة مثلك علـى إيقاف الزمن حتى لا أكبر، وإلّا صبرت إلى ما لا نهاية!" أجابه متذمراً.

- "ومن قال لك: إنه لدي القدرة على إيقاف الزمن؟!.... الزمن لا يتوقف، وأنت خير من يعلم ذلك. أمّا إن رغبت في ألا تهرم، فهذا أمر آخر، وشأنه يسير جدّاً، بل هو متعلق بدرسي لك الوحيد، الذي به سأضعك على أول الطريق: معرفة الذات."
- "كيف؟!" لم يفهم مراد قصد عبدالرحمن، ولكنه شعر برغبة ملحة لمعرفة المزيد..... فهذا ما جاء إلى تونس من أجله، وجعله يتحمل رؤية غانم الساعدي مجدّداً وتابعه حامد "الكلب"!
- "أخبرني، كيف جئت إلى هذا الكوخ؟ هل أتيت مشياً على الأقدام، أم أنك استخدمت سيّارة؟"
- "جئت أول الطريق عبر سيّارة علي الماجري، ثم بعد ذلك مشياً، لأن الطريق لا يسمح بمرور السيّارات."
- "وهذا هو مثل العارفين. النفس هي أنت، والجسد ليس إلّا وعاءً يحمل النفس عندما يستلزم ذلك الطريق، كالسيارة. من الناس من يسوق السيارة دون أن يفهم كيف تعمل أو كيف يصلحها عندما تعطل، ومنهم من يستطيع إصلاحها، وقلة قليلة هي التي تستطيع صنعها من الأساس. القدرة موجودة، ولكن الاستطاعة تلزمها المعرفة."
- "مهلاً، مهلاً! هل فهمتك على نحو صحيح؟! أنت تتحدث عن صناعة جسد بأكمله؟! مستحيل!!"
- "لا يوجد ما هو مستحيل طالما أنه لا يتعارض مع سنن الكون. هي ليست مسألة قدرة، ولكنها مسألة استطاعة، والاستطاعة....."
- "تلزمها المعرفة." قاطعه مراد، وقد نفد صبره، مكملاً عنه الجملة التي حفظها عن ظهر قلب.......
- "نعم، ولكن كيف؟!"

- "إنمـا العلـم بالتعلـم، والمعرفـة يلزمهـا العلـم..... وطريق العلم بالنسـبة إلـى أهـل الكشـف، كما يطلـق علينا البعـض، يمر بأربع مراحـل مهمـة: المرحلـة الأولى هي المسـماة بالنـشء، وتبدأ منذ الـولادة. فـي هـذه المرحلـة تنفصـل النفس عن الجسـد في أثناء النـوم دون أن يـدري صاحبهـا. قـد يتذكـر المـرء بعد الاسـتيقاظ بعض التفاصيل، ولكنها تبقي صوراً هلامية غير واضحة المعالـم. هي مرحلة شبيهة إلى حد كبير مع ما اعتاده عامة الناس في أثناء نومهم. تأتي بعد ذلك مرحلة البلوغ، وهي التي يعي فيها النائم ما يحدث له من انفصال النفس عن الجسد. هي أهم مرحلة، حيث تتكـون القـدرات بشـكل كبيـر، وإن كانت تفتقد إلى الاسـتطاعة. تأتـي المرحلـة الثالثـة، التكوين، عندما ينقطـع النوم؛ وهنا تتكون الاسـتطاعة، وقـد تسـتغرق سـنوات العمـر كلها. تتجلـى في هذه المرحلة القدرات على مختلف أشـكالها، بنسـب متفاوتة. فهناك من تتجلى له ربع قدراته، وهناك من تتجلى له نصف قدراته، وقلة نادرة من تتجلى له كل قدراته. تلك القلة القليلة هي فقط من تصل إلـى المرحلـة الرابعـة: المنتهى...... حينها، وحينها فقط يسـتحق المـرء لقـب العـارف...... أنت الآن يا مراد فـي المرحلة الثالثة، مرحلـة التكويـن، ولعلـك قطعت شـوطاً كبيراً في هـذه المرحلة، ولكن لا يزال أمامك الطريق طويلاً. أدرِك أنه طريق وعر، ولكن حصيلته لا يمكن تقديرها بثمن. هذا الطريق يختلف من شخص لآخر، باختلاف اختياراته. لذلك لا يمكن لي أو لغيري مساعدتك على السـير فيه. ولكن ما يمكنني فعله من أجلك عرفاناً لذكرى جميلـة ربطتنـي بجدك أحمـد، رحمة الله عليه، هو أن أدلك، كما وعدتك، على ما أحسبه أول الطريق: سر الجسد، الذي من خلاله

ستتحكم في هذا الوعاء الذي وجدت نفسك فيه، فتطوعه كما تشاء، بحيث لا يهرم أبداً!"

* * *

- "هل خدعك أنت الآخر؟! كيف وأنت أعلم أهل الأرض كما وصفتك أم الوفا؟!! أم أن عبدالرحمن أبوالحمايل هذا الذي أراه لم يصبح بعد عبدالرحمن ذا العمامة الخضراء الذي تعرفت عليه وصاحبته في مملكة خوارزم المتهالكة! كيف لم ترَ الخبث في عينيه، ولم تستشف المكر في حديثه؟! هل أعمتك صداقتك القديمة مع جده أحمد؟.... أحمد قُطُز.... هل يا ترى في عالمي الذي عشتُ فيه، كان قرينك أنت صديقاً لجدي أحمد؟ لا أذكر حينها أنّي سمعت بك قط.... ولكنّي أيضاً لا أذكر أشياء كثيرة عن عالمي.... هل أُخذ مني؟ بتّ واثقاً أن مراد الآخر هذا الذي أراه يتغول أمامي كلمّا تمكن من قدراته، بفضلك أنت على ما يبدو، مسؤول عمّا وجدتُ نفسي عليه..... لماذا لم تخبرني؟ لماذا أخفيت عنّي ما فعلتَه؟ لماذا لم تُعَلمني كما علمته، وتركتني في حيرتي أغرق؟!"

استمر مراد قطز في مراقبة أحداث قرينه..... وكلما عرفه أكثر، بات يراه أقرب إلى ذلك المخلوق الهلامي الأسود الذي شاهده في مسيرة قافلة المغول، وهو يقتل قائدها بلمسة يده. لم يعد يرى نفسه بقدر ما بات يرى شخصاً آخر يشبهه شكلاً فقط..... رأى عبدالرحمن، وهو يعلمه أسرار تحكم النفس في الجسد. لم يستغرق التعلم إلّا برهة من الزمن بمقاييس عالم الجسد، وكأنها ضغطة زر أضاءت العتمة..... شغف مراد الآخر للمعرفة فاق كل حد.... سكرة ما بعدها سكرة.... أراد أن يعرف أكثر وأكثر، ولكن دون أن يفصح

لعبدالرحمن أبو الحمايل عن السر الذي ظلّ محتفظاً به لنفسه!

* * *

- "هل سبق وسمعت عن نفس تعود إلى جسدها بعد موتها، ولكن في زمن سابق؟ أو بمعنى أصح، إلى لحظة اختيار حاسمة في حياتها سبقت الموت سواءً بلحظات أو حتى سنوات؟"

باغت السؤال المفاجئ عبدالرحمن..... آثر الصمت قليلاً قبل أن يجيب، وكأنه احتار في الإجابة.....

- "هل لي أن أعلم سبب سؤالك؟"
- "مجرد أمر عارض خطر على بالي، فوددت أن أستعلم عنه." أجابه مراد، وقد فضّل أن يكذب عليه عوضاً عن إخباره بالحقيقة.
- "لا أعلم شخصاً فعلها، وإن كنت...... وإن كنت أظن أنها ممكنة، ولكن يصعب إثباتها."
- "كيف؟" سأل على الفور، وقد امتلأ شغفاً لكي يعلم تفسير عبدالرحمن لهذه الظاهرة التي حدثت معه مرتّين!
- "لأن الجسد ليس إلّا وعاءً فانياً على خلاف النفس المخلدة، فما يحدث في عادة الأمر عندما يموت الجسد أن النفس تخرج منه إلى العالم الآخر، ولكن السؤال: هل هناك جسد واحد أم أجساد عدة؟ هل هناك عالم واحد أم عوالم عدة؟ قدر واحد أم أقدار؟"
- "بل عوالم عدة كما يقول علماء فيزياء الكم." تذكر حديثه مع فيرجينيا ذات يوم في حياته السابقة..... "وكأن عبدالرحمن وهي ينهلان من ذات الوعاء!"
- "الحقيقة أنهم ليسوا أول من قال بهذا الأمر، فقد سبقهم عبدالله بن عباس عندما فسّر آية: (الله الذي خلق سبع سماوات ومن

الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً)..... بأن الله خلق سبع أراضين وقال بالنص: إن في كل أرض منها: نبي كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى."

- "ولكن النظرية الفيزيائية تتحدث عن عوالم متعددة لا حصر لها، وليس سبعة فقط."
- "عوالم متعددة من حيث الممكن ولكن ليس بالضرورة من حيث الواقع..... ماذا لو أن سبعة فقط هي الموجودة، والباقي قابل للتحقق ضمن إطار السبعة الموجودات."

عقد مراد حاجبيه، هازاً رأسه في إشارة منه بعدم فهم ما أراد قوله عبدالرحمن.

- "سؤال بدهي من قواعد المنطق..... هل صفات الجزء موجودة في الكل؟ عصير الليمون هل يحمل صفات حبات الليمون التي صنع منها أم لا؟"
- "بالطبع يحمل." أجابه مراد.
- "عظيم، إذن نحن متفقان على هذه القاعدة المنطقية: بأن صفات الجزء موجودة في الكل..... من ماذا يتكون الجسد؟"
- "من خلاية."
- "ومن ماذا تتكون الخلاية؟"
- "أظنني فهمت قصدك.... أنت تتحدث عن القوانين العجيبة التي تحكم الأجسام التي ما دون الذرّة..... تريد أن تقول إن الصفات التي تتصف بها، من وجودها في أكثر من مكان في ذات الآن وقدرتها على التشابك الكمي والنفق الكمي وغيرها من الأمور العجيبة، بأنها من الممكنات حتى في عالم الأجساد الكبيرة،

ولكن ما دخل كل هذا فيما سألتك فيه؟!"

- "كلها مترابطة يا مراد، ولا يمكن عزلها عن بعضها، هذا إن أردت أن تفهم حقائق الأمور. بما فيها السؤال الذي حير عقول الفلاسفة والمفكرين منذ آلاف السنين: هل الإنسان يخلق قدره أم أنه مفروض عليه؟"
- "مهلاً! ما كل هذا؟! أنت تقفز بي من العلم إلى الدين إلى الفلسفة! لا أفهم ما العلاقة بين كل هذه الأمور؟!"
- "كلها من نسيج واحد..... الأقدار هي جميع الممكنات التي خلقها الله، والتي جعلها رهناً لاختيار الإنسان. أنا أختار، وأنت تختار، وغيرنا يختار، وجميع هذه الاختيارات تشكل عالماً نسير فيه من ضمن عوالم عدة محتملة، سبعة منها فقط هي المتحققة والأخريات من ضمن الممكنات داخل إطار السبعة الموجودات. أنت الآن موجود هنا، وبحسب عبدالله بن عباس، هناك ستة آخرون في عوالمهم بمعزل عنك أنت. قد يتصرفون في بعض الأمور كما تتصرف أنت، وقد يتصرفون بخلاف ذلك، ولكن حصيلة قراراتهم وتصرفاتهم وتصرفات من حولهم، بل وحتى من كانوا من قبلهم، أدّت إلى عالم قائم له معالمه الخاصة؛ ولكن ماذا عن الأقدار الخاصة بك أنت وحدك؟ أقصد تلك الممكنات التي تخصك وحدك فقط..... هل تشكل عوالم صغيرة ضمن الإطار الكبير للعالم الذي تعيش فيه؟ أظن أن الجواب يجب أن يكون بنعم. وأن كل لحظة اختيار تمر بها تشكل بداية لعوالم محتملة، عددها بحسب عدد الاختيارات المتاحة. الجسد لا يستطيع اختراق هذه العوالم، ولكن النفس تستطيع؛ وإن كان الجسد باستطاعته فعل شيئاً آخر يُمَكِن النفس من التواجد في تلك العوالم وليس فقط

مراقبتها من بعيد كما يحدث في أثناء النوم....."

- "التشـابك الكمّي!" قاطعه مراد شـاخصاً عينيه، وقد فهم أخيراً ما كان يشير إليه......
- "نعـم..... هـو ذاك. إن كان بمقـدور أحـد أن يعود من جديد بعد موت الجسد، فلا بد له أن يكون قد وجد طريقة ما لكي يتشابك بهـا جسـده مـع باقي الأجسـاد الممكنـة التي تخصه فـي العوالم الصغيرة تلك ضمن إطار العالم الأكبر القائم، حتى تتمكن النفس من خلال إحداها من العودة مرة أخرى، فتعيد الكَرَّة من جديد."
- "وماذا عن العوالم الستّ الأخرى القائمة.... هل بالإمكان التشابك معها هي الأخرى؟"
- "لا أدري..... " نظر عبدالرحمن بتمعن نحو مراد الذي بدا عليه شره المعرفة بشكل جليّ يكاد يكون مريباً......
- "ولكـن إن كان بمقـدور عـارف أن يفعل هـذا، فهو يرتكب جرماً عظيمـاً إذ يسـتحوذ علـى ما هو ليس مـن حقه...... فتلك عوالم قائمة بذاتها ولا شأن لنا بها."
- "ولكن لماذا؟ ألم تقل: إن في كل من تلك العوالم القائمة الست الأخرى، هناك مراد مثلي أنا؟"
- "مثلك، ولكن ليس بأنت؛ فمهما تقارب الأقران، يبقى كل واحد منهم قائماً بذاته..... شخص مستقل يا مراد، يعيش في عالمه كما تعيش أنت في عالمك، ولا ينبغي بأي حال من الأحوال المساس به، مهما كانت الأسباب!"

* * *

- "كيف لم تتنبه لأسئلته يا من وُصفتَ بأعلم أهل الأرض؟! كيف

لم ترَه على حقيقته؟! كيف استطاع أن يخدعك كما خدعني؟!!"

* * *

عاد مراد إلى مُخَيّم غانم الساعدي ليس كما غادره، وقد شعر بذلك..... بل كان على يقين منه. عاد له ذلك الشعور بالتمكن، الذي شعر به عندما عاد قبل ذلك إلى جسده بعد ميتة صادمة، ولكن هذه المرة الشعور لم يسبقه موت الجسد والعودة بالنفس مرة أخرى إلى الحياة..... هل هي نشوة القوة؟ أم نشوة المعرفة؟ أم شيء آخر تماماً لا يدركه إلّا أمثاله من القادرين؟! لم يفتقده أحد، فهو لم يغب سوى مدة بسيطة؛ وإن كان قد غاب مدة أطول، لم يظن أن أحداً من الموجودين كان سيهتم كثيراً. خطر على باله مغادرة المُخَيّم بعد أن نال ما جاء من أجله؛ فهو لم يأتِ إلى هذا المكان الثقيل على قلبه، من أجل اصطياد الطيور والظبيان، بل من أجل اصطياد شيء آخر، وقد فعل! ولكن أمراً آخر ملحّاً جعله يصرف النظر عن الذهاب على الفور؛ هناك حساب يجب تصفيته أولاً قبل الرحيل!

- "هل تعلم لماذا يفعص المرء الصرصار بحذائه إذا ما رآه مصادفة وهو يسير على قارعة الطريق؟ مع العلم أن الصرصار ما كان ليضره بشيء."

فوجئ حامد الزايد بمراد، الذي كان متوارياً عن الأنظار طيلة اليوم، في خيمته الخاصة يوقظه من النوم ليطرح عليه سؤاله الغريب! لم يشعر بنفسه إلّا وهو يصيح فيه من وقع المفاجأة......

- "ماذا تفعل هنا؟! كيف تتجرأ وتقتحم عليّ خيمتي؟! هل جننت؟!"

لكن مراد لم يعبأ لأسئلة غريمه المرتبكة، وآثر أن يجيب عن السؤال الذي طرحه هو حول فعص الصرصار......

- "لسببين في واقع الأمر.... السبب الأول: لأنه قادر على فعل

ذلك، والقدرة عادة ما تلح على صاحبها..... أما السبب الثاني فهو لا يقل بساطة: لأن الصرصار كائن قذر، لا يستحق سوى الدهس بالأقدام!"

لم يعرف حامد بماذا يجيب مراد..... تلعثم لسانه، وشعر برهبة شديدة، وكأن الذي أمامه ليس هو الفتى "الأخرق" نفسه الذي استمتع بوعيده كلمّا سنحت له فرصة! هذا الذي أمامه الآن حتماً لا يصلح معه الوعيد، بل هو الذي يتوعد، وهو القادر على إنجاز وعيده!

- "سأخبرك بسرٍّ..... عندما قدمتَ إلى شقتي ببوسطن، وهددتني لكي أبتعد عن سارة، ثم أخبرتني بأنك أنت من تسبب فيما جرى لأبي، أردتُ حينها قتلك! ولا أخفي عليك أني حاولت ذلك بالفعل، ولكني فشلت. ظننت حينها أن سر فشلي يكمن فيك، وهذا جعلني أشعر بالقلق تجاهك. بل وصل بي الأمر إلى الظن أنك قد تكون مثلي: من أصحاب القدرات؛ ولكن كم كنت مخطئاً في ظني. الأمر لم يتعلق بك أنت، بل بي أنا. الآن أصبحت أرى ذلك جيداً، فأنت لست صاحب قدرات، بل مجرد صرصار استطيع دهسه وقتما أشاء..... الغضب يا عزيزي الصرصار الغضب هو الذي تمكن منّي فأفقدني الاستطاعة. نعم، الغضب يُفرغ القدرة من الطاقة فلا تتحقق الاستطاعة، وهذا ما حدث معي؛ أمّا أنت فكنت مجرد صرصار محظوظ..... أجمل شيء في الحياة أن يفهم الإنسان كيف يعمل جسده، فيُطوِّعه كما يشاء، ووقتما يشاء، وهذا ما كنت أفتقده في السابق، وأصبحت أمتلكه الآن، لسوء حظك!"
- "عمّا تتحدث؟ أرجوك دكتور مراد....." حاول حامد باستجداء أن يتخلص من هذا الموقف العصيب، وقد رأى الموت يقترب منه؛

لكن مراد لم يمهله فرصة لمواصلة الحديث......

- "دكتـور مـراد؟؟" ضحك مراد بعدما كرّر اللقب الذي أضفاه عليه حامد متبوعاً باسمه.....
- "الآن أصبحـتُ دكتـوراً وقبلها كنت مجـرد ذلك الفتى الأخرق؟! تتوسـل إلـيّ الآن بـإذلال، بعدمـا توعدتنـي وهددتنـي؟ أنت أيها الحقير التافه تجعلني أنا أشك في نفسي وفي مقدرتي؟!"

حاول حامد أن يقفز من فراشـه ليهرب من الخيمة، فينادي من ينجده، ولكنه لم يستطع. كأن جسده أصبح لا ينصاع له. حتى صوته لم يُحسن الصريخ طلباً للنجدة. لم يجد أمامه فرصة للنجاة من براثن هذا الوحش الكاسر سوى أن يستعطفه!

- "أنا خادمك! أرجوك سـامحني! أرجوك! سـأفعل لك ما تشاء..... سأكون رهن أمرك..... أرجوك لا أريد أن أموت!"
- "ومـن قـال لك: إني قاتلـك؟! لا، الموت راحة لأمثالك..... هل لاحظـت أنـك غير قادر على تحريـك أطرافك؟ أمر غريب أليس كذلك؟ فهذا أنا! جسـدك الآن هو طوع لأمري، وباسـتطاعتي أن أفعـل بـه مـا أشـاء! أعلم ماذا يـدور بعقلك من سـؤال، والإجابة عنه: لا، أنا لسـت بسـاحر، ولا أتعامل مع الجن. أنا أعظم شـأناً مـن هـذا وذاك! أنـا من أصحاب القدرات التي لا يسـتطيع عقلك التافه إدراكها! أريدك أن تتذكر هذا الأمر جيداً إذا ما راودك عقلك المريض، يوماً ما، بأن تغدر بي!"
- "أنا؟! أنا أغدر بك يا دكتور مراد؟! أنا من اليوم فصاعداً خادمك المطيع حامد! مُرني فأستجيب!"
- "حسناً..... أريدك أولاً أن تُعْلمني بكل شيء عن غانم الساعدي وعن سر سطوتك عليه وعلى سارة، وحذارِ من أن تحاول إخفاء

أي شيء عنّي، فسأعلم، وحينها لن تلقى منّي ذرة من الرحمة!"
ما كاد يفرغ مراد من وعيده، حتى انفرط حامد الزايد بالبوح عن كل ما يعلمه عن مخدومه وزوجته الحسناء، دون أن يترك شيئاً.... وكان لديه الكثير.

* * *

فيرجينيا تبت! حفيدة تبتنكر..... شريكة وليام برمن..... اقترب الميعاد، شعر مراد! لم يعد يشغله شيء الآن سواها. لا بد أن يخضعها كما فعل مع حامد. ولكن مثلها لا يخضع بتلك السهولة. هي ليست كحامد، بل شيء آخر تماماً. لديها ما يريد ويحتاج من أجل الوصول إلى المنتهى، ولكن لا بد من ترويضها أولاً، ومفتاح ذلك شخصان..... أختها أليس، ومدير داربا الذي تعمل معه: وليام برمن!
الطريق أصبح واضح المعالم منذ أن شرح له عبدالرحمن ما كان يريد معرفته. لم يعد الآن ما يمكن أن يعرقل مسيره نحو الهدف الذي رسمه لنفسه، وستكون فيرجينيا هي الأداة الرئيسة!...... "انتهى دورك يا عبدالرحمن. لقد صَدَقتَ عندما قلتَ: إنك لست العارف، فأنت كما وصفت نفسك: أعور وسط عميان! أما البصير فهو أنا..... نعم، أنا من سيصل إلى المنتهى..... أنا الذي سوف يحقق ما حققه آصف بن برخيا...... أنا من سيصبح العارف!"

* * *

التحكم في الوعاء، ذلك أمر يسير؛ أما التحكم في قائد ذلك الوعاء، فذلك أمر آخر...... أراد مراد أن يكون مدخله إلى فيرجينيا تَبت عبر أختها أليس، لإدراكه مدى حبها لها. الموعد سيكون في حفل رأس السنة الجديدة..... عام 2000، أو بداية الألفية الثالثة كما تعتقد أليس. لم يتبقَّ على ذلك الميعاد سوى أقل من عام. وقت كافٍ

حتّى يوطد علاقته بأليس تَبت.... وقت كافٍ لكي يتمكن من التحكم في عقلها عبر قلبها!

قلوب العوام هي سر ضعفها، وأليس تبت من العوام، كما سبق وأخبرتـه فيرجينيـا قبـل أن تطلق عليه الرصاص. علاقتها الحميمة مع جيم، ستصعب من المهمة بعض الشيء، ولكن لا بأس..... فقليل من التحدي، كقليل من الملح في الطعام، يضفي عليه مذاقاً خاصّاً يجعله أكثر إمتاعاً وإشباعاً...... "نعم يا فيرجينا، لقد اقترب الموعد المنشود، وسيكون لقاؤنـا الجديـد عمّا قريب بشـقة أختـك العزيزة أليس! لكم أشتاق إلى رؤية ملامح وجهك وأنت تكتشفين حقيقتي، وكم توغلت في عالمك دون أن تشعري. أمّا وليام برمن، فذلك المسكين لا يعلم ما الذي سوف يلحق به هو الآخر! اقترب موعدنا يا وليام.... اقترب موعدنا يا فيرجينيا!"

* * *

رقصت كثيراً..... ضحكت كثيراً...... واسـتمتعت أكثر من أي ليلـة مضـت فـي رومَر، ذلك الملهى الليلي الواقع في حي المسـارح، الذي لا يسـتطيع دخوله أي أحد في بوسـطن إلّا إذا كان بثراء أليس تبـت ونفوذهـا، أو بمقـدرة مراد، وكل مـن هم دون ذلك ما كان لهم من خيار سـوى الاصطفاف أمام بوابته الداكنة، على أمل أن يشـملهم عطـف مديـر الملهـى فـي تلك الليلة. لم تكن هـذه هي المرة الأولى التي تلتقي فيها أليس بمراد، وإن كانت أول مرة من دون جيم بسبب مناوبته في المستشفى.....

- "يا لك من وغد!" لم تتمالك نفسها من الضحك، وهي تستمع إلى ما قاله مراد حول المقابلة الشخصية التي أجراها مع رئيس برنامج الجراحة بمستشفى ماساتشوستس العام حيث تتدرب هي.....

- "هـذه لـم تكـن مقابلة شـخصية، بل مخطط رحلتكمـا القادمة في قاربه الشراعي. أعتقد أنه سيقبلك في البرنامج فقط من أجل ألّا تترك بوسطن؛ فلن يجد مساعد ربان أفضل منك!"
- "هذا ما قلته لنفسي!" أجاب ضاحكاً معها.....

لم يصعب على مراد كسب ثقتها عبر أكثر من لقاء جمعهما في المستشفى وخارجها. معرفته بشخصيتها، وما تحبه وما لا تحبه، سهّل عليـه المهمـة حتـى أصبحـا صديقين، وإن لم تبلغ هـذه الصداقة بعد الدرجة الحميمة التي ينشـدها..... ولكن كل شـيء بقدر.... خطوة من بعد خطوة، كان يقترب من غايته في غفلة من جيم.....

- "أنـت تعـرف كيـف تجعلنـي أضحـك." أخبرتـه وهي تسـير نحو سيّارتها بعد سهرة حافلة امتدت إلى قرابة الفجر.....
- "لا أدري لماذا أشعر وكأني أعرفك منذ زمن بعيد."
- "لعلنـا التقينـا فـي حياة أخرى سـابقة." ردّ عليهـا بنبرة حاول فيها مزج الجدّ بالهزل.
- "هل تؤمن بهذا الأمر؟ أقصد تناسخ الأرواح."
- "لا.... لا أومن بتناسخ الأرواح.... فالأمر أعقد من ذلك بكثير."
- "أنتِ أيتها الجميلة.... لماذا لا تأتي معنا لكي نكمل السهرة في مكان آخر!" قاطع حديثهما ثلاثة شباب ظهروا فجأة، بدوا ثملين. اقتـرب مـن أليـس الشـخص الـذي تحدث، ثم حاول أن يمسـك بذراعها قبل أن يعترض مراد طريقه.
- "انصرف أنت ورفاقك الآن، وإلّا....."
- "وإلّا مـاذا أيهـا الأبلـه؟!..... نحـن ثلاثـة وأنـت واحـد.... ماذا ستفعل؟"

حاولت أليس إخراج هاتفها المحمول من حقيبتها، ولكن الشاب

الثاني سبقها إليه، ثم ألقاه على الأرض. في اللحظة نفسها ألقى مراد بلكمة خاطفة إلى وجه الشاب الأول الذي ترنح قليلاً، ثم اندفع مع باقي رفاقه إليه في صراع لم يستمر سوى أقل من دقيقة، تعالت فيها صرخات أليس طالبة النجدة، وسط لكمات ورفسات من كل جانب، قاوم مراد فيها ببسالة حتى غلبته كثرتهم، فوقع على الأرض بعد عراك مريرا لحظات قليلة قبل أن يفرّ الشباب الثلاثة، بعدما شعروا بمجيء عدد من المارّة.

- "ماذا جرى؟! هل أنتما بخير؟!" تساءل رجل جاء مع رفيقه توّاً، بعد سماعهما استغاثة أليس من بعيد، ثم اقترب من مراد الملقي على الأرض، ليساعده على الوقوف على قدميه....
- "هل أتصل بالإسعاف؟!"
- "نعم! " أجابته أليس شاعرة بالقلق، ولكن مراد قاطعها على الفور.....
- "لا داعي.... أنا بخير."
- "ولكنك تبدو منهكاً..... يا إلهي، ماذا فعلوا بك؟! لا بد من إبلاغ الشرطة على الأقل." قال الرجل الثاني.
- "لاحقاً سأفعل.... ولكني الآن أريد فقط الذهاب إلى المنزل."
- "لا أنصحك وأنت في هذه الحالة." أصرّ الرجل الذي كان بجوار مراد، ممسكاً بذراعه.
- "قلتُ لا أريد الذهاب إلى المستشفى!"
- "إذن سأذهب معك إلى المنزل، على الأقل حتى أضمد لك جراحك." تدخلت أليس بعدما سئمت من عناد مراد.
- "ولكن ألَيس من الأفضل أن يراه طبيب؟"
- "أنا طبيبة. أستطيع الاعتناء به." أجابته، ثم شكرته ورفيقه على

المجيء لمساعدتهما.

- "أليس.... حقيقة أنا بخير، أستطيع الذهاب بمفردي إلى..... "
- "ششششش..... لن أدعك تبيت بمفردك الليلة، فالأمر قد حسم، ولن أقبل منك أي اعتراض!"

لم يعترض مراد، وظل صامتاً حتى ركب سيارتها، مكتفياً بالاستماع إلى توبيخها له على تهوره الذي عرّض حياته للخطر ..... وإن كان التوبيخ أقرب إلى العتاب الممزوج بالإعجاب لما فعل من أجلها.

* * *

دخل شقته متكئاً عليها. لم تتركه أليس حتى وضعته على السرير، ثم ذهبت على عجل إلى المطبخ لتحضر له بعض الثلج حتى تضعه على المناطق المتورمة من وجهه، بعدما فحصت صدره وبطنه للتأكد من عدم وجود أي كسر في الأضلع أو إصابة للطحال أو الكبد من أثر الرفسات التي تلقاها بعدما سقط على الأرض......

- "أنت حقّاً مجنون..... ما كان يجب أن تعرض حياتك لمثل هذه المخاطرة، خاصة وأنهم كانوا ثلاثة!" قالت له وهي تضمد جراحه.
- "لولا أن..... باغتني ذلك الوغد الثالث من الخلف...... لتمكنت منهم." أجابها وهو يتأوه من الثلج الذي وضعته على تورمات وجهه.
- "أنت طالب طب، وعمّا قريب ستصبح طبيباً مقيماً بقسم الجراحة، ولست بروس لي..... وإن كنت تشبهه بعض الشيء." ردّت عليه مازحة، ثم ساعدته على خلع قميصه الملطخ ببقع من الدماء.
- "لعله لو كان الشبه ليس فقط في الشكل، ولكن كذلك في القوة، لما استضعفوني، وطرحوني على الأرض، ولربما تمكنت منهم

دفاعاً عنك." كانت نبرة صوته ممزوجة بشيء من الحزن.

- "لا تقل هذا...... أنت رائع كما أنت.... مراد، لا أدري كيف أشكرك على ما فعلته من أجلي.... كان يجب عليّ أن أشكرك من البداية بدلاً من تأنيبك على ما فعلت، ولكني بصدق خفت عليك.... لو كانت الأمور سارت بشكل أسوأ، ما كنت سأسامح نفسي أبداً."

دون أن تشعر وضعت يدها على خده، بعدما اغرورقت عيناها عندما استرجعت ما حدث.

- "لو كانوا ثلاثين وليس ثلاثة، لما سمحت لهم بأن يمسوا شعرة منك." وضع يداً على كفها الملامس لخده، ثم بأنامل يده الأخرى أخذ يتوغل في شعرها الأسود الحريري المنسدل على كتفيها. لوهلة لم تمانع، بل إن نظرات عينيها كانت تبوح بعطش إلى هذه اللمسات الحانية، ولكن فجأة قبيل أن يحدث ما كانت تتجه إليه الأمور، قامت أليس من موضعها، وكأنها استفاقت من حلم يقظة، قبل أن يأخذها إلى عالم مجهول لا تُحمد عقباه!
- "أنت في حاجة إلى الراحة...... سأتركك الآن...... و..... وأمُرُّك غداً في الصباح." لم تستطع مداراة تلعثمها، فشعرت بالخجل.
- "أليس....." صمت مراد ولم يكمل، فاكتفى بنظرة باحت بما لم ينطق به لسانه.
- "مراد.... أرجوك لا تفعل..... أرجوك.... لا أستطيع؛ أنت تعلم أني مع جيم."
- "أعلم.... صدقيني أعلم، وهذا ما يكاد يقتلني!"

اقتربت أليس منه، ثم على عجل أحنت رأسها وقبّلته، فغادرت المكان دون أي تعليق.....

انتظر مراد قليلاً حتى سمع صوت باب شقته يُغلق، قبل أن يقوم من فراشه دون أدنى عناء، وكأنه لم يُصب بأي أذى. ذهب إلى هاتفه الجوال الملقى على الطاولة المجاورة، ثم اتّصل برقم مسجل عنده.... لم يحاول إخفاء سعادته بما جرى توّاً..... دقات قليلة، ثم جاء صوت يردّ من الجانب الآخر.....

- "لوهلة ظننّا أنك اضطررت إلى الذهاب إلى المستشفى. خفنا أن نكون قد أثقلنا عليك بالضرب."
- "أنتم تضربون كالنساء..... أنا الذي خفت ألّا تصدق الفتاة، وتكتشف اللعبة." أجابه مراد ساخراً مما قاله.
- "أرجو أن تكون الأمور بينكما قد سارت كما تحب."
- "نعم، كل شيء جرى كما يجب.... شكراً، وسيصلكم كامل الحساب....."
- "حسابنا وصل بالكامل. لا تحمل أي هم، لقد سدّد السيد حامد..... بلّغه سلامنا، فنحن دائماً في خدمته، كما سنكون في خدمتك أنت أيضاً وقتما تحتاج إلينا."

أغلق مراد الخط ثم اتّجه إلى صالة الجلوس. شعر براحة كبيرة تركت أثرها في هيئة ابتسامة رضا تشكلت على وجهه، ليس فقط لأن خطته سارت كما رسمها دون أن تحيد قيد أنملة، بل أيضاً لأنه بعد كل الذي جرى من عملية خداع لأرق فتاة قابلها في حياته، لم يشعر بذرة تأنيب ضمير.... لأنه تحرر كُلّياً من الشعور بالذنب!

* * *

العامة والخاصة..... تصنيفان لا ثالث لهما.... هكذا أصبح مراد ينظر لكل من حوله. جميع الناس ما عدا قلة قليلة هم من العامة الدهماء، من لا وزن لهم ولا قيمة. هؤلاء مكانهم الطبيعي هو في

خدمة أمثاله من أصحاب القدرات، أو أهل الكشف كما أطلق عليهم جُلّاب المُبَخّر في كتابه الذي قرأ مخطوطته في مكتبة جامعة هارفارد. ولكن تبقى تلك الفئة من العامة التي تستحوذ على مكانة خاصة لقربها من أصحاب القدرات، كسارة القويت مثلاً بالنسبة إليه، أو أليس بالنسبة إلى فيرجينيا تَبْت. مثل هؤلاء يشكلون حالة استثنائية تضعهم فوق أقرانهم من العوام، فقط بسبب قربهم من الخاصة. فلو لم يقع في عشق سارة، لكانت مجرد امرأة جميلة مثل غيرها من الجميلات، ولو لم تكن أليس أخت فيرجينيا لما اهتم بها لكي يستخدمها من أجل التمكن من أختها! امرأتان في حياته من العوام، لكل منهما استخدامه. الأولى من أجل إشباع عاطفته، والثانية من أجل إشباع ولهه...... ولكن لكي يلتفت إلى العاطفة، كان لا بد له أولاً أن يفرغ من الوله..... كل شيء كان يقود إلى الحفل المنشود..... حفل بداية الألفية الثالثة، التي في واقع الأمر ليست سوى نهاية الألفية الثانية على خلاف ما يعتقد العوام..... حفل رأس سنة 2000 في شقة أليس تَبْت بعد أقل من عام!

* * *

تركت له رسالة مسجلة بأنها في بوسطن، وترغب في رؤيته في المقهى نفسه الذي شهد لقاءاتهما السابقة..... من الواضح أنها اشتاقت إليه كما اشتاق هو إليها. أكثر من عام مضى دون أن يراها، منذ أن كانت في بوسطن وأخبرته عن عبدالرحمن أبو الحمايل، ولكن أخبارها كانت تأتيه من حامد الزايد الذي أصبح يستأذنه في طلب أي شيء يخصها، فسارة أصبحت من مقتنياته، وإن كانت على ذمة رجل آخر..... حرص مراد على أن يوصل هذه الرسالة لحامد بشكل ليس فيه أي مجال للتأويل!

- "مبروك التخرج." قالت وهي تناوله هدية ملفوفة.....
- "كان بـودي حضـور حفـل تخرجـك.... ولكنـي لم أسـتطع." لم تفصح بأكثر من هذا، ولو أنه كان يعلم أين كانت ولماذا لم تأتِ، لكنه لم يرغب في إحراجها.
- "لا تشـغلي بالـك.... كان مجـرد حفل سـخيف ليس له قيمة.... ولكن دعك من هذا وأخبريني كيف تسير أمورك؟"
- "أنا... بخير..."

لاحظ مراد تردّدها في الإجابة، وكذلك نظرات حيرة لم يعتدها منها.... هناك ما يقلقها.....

- "ما بك يا سارة؟ هل كل شيء على ما يرام؟"
- "نعم، نعم، كل شـيء على أحسـن حال..... وهذا..... وهذا ما لا أفهمه. أقصد..... مراد، ما الذي جرى في مُخَيّم الصيد العام الماضي؟"

باغته السؤال.....

- "ماذا تقصدين؟"
- "أظنـك تعلـم قصـدي جيداً..... لماذا تَغَيّـر حامد فجأة تجاهك؟ لماذا أصبح يودك، وهو الذي كان لا يطيقك؟ وليس هذا فقط..... أقصد....." ترددت في حديثها، وكأنها خافت أن تبوح له بشـيء لا يعرفه فيفتضح أمرها.
- "سـارة.... لن أمتهن ذكاءك بالكذب عليك..... أو بالتظاهر بأني لا أعلم شيئاً عنك وعن غانم."
- "ماذا تقصد؟! ماذا أخبرك حامد؟!" فجأة ارتفع صوتها وشَخصت عيناها، وكأنها رأت فاجعة على ناصية الطريق!
- "اهدئي سـارة..... رجاءً، فأنا آخر شـخص من الممكن أن يفكر

في مضايقتك، أو إيذائك..... يجب أن تثقي بي، وتأكدي أني لن أفعل أي شيء قد يتسبب لك في أي مكروه."

- "مراد، أرجوك..... ماذا قال لك حامد؟!" أصرّت على السؤال.... بدا جليّاً من نبرة صوتها بأنها لن تتركه حتى يجيبها.
- "كل شيء..... أخبرني عن كل شيء."
- "الوغد! الحقير!" أرادت أن تقوم، ولكن مراد أمسك بذراعها.....
- "سارة، رجاءً اهدئي، فالناس ينظرون إلينا..... الأمر ليس كما تحسبين. أنا الذي أرغمته على الحديث. حامد لم يعد يشكل لك أو لي أي تهديد.... هو أشبه الآن بالكلب المطيع، وأنت لاحظت بنفسك تغير سلوكه نحوي ونحوك، فلم يعد يثقل عليك كما كان يفعل في الماضي، أليس كذلك؟"
- "نعم... ولكن..... ولكن كيف؟!" جلست مرة أخرى بعد أن قامت، عندما تغلب فضولها على قلقها.
- "هناك أمور من الأفضل لك ألّا تعلميها..... يكفيك علماً ما قلته لك بأن حامد أصبح كالكلب المطيع، أحركه كما أشاء."
- "مراد... لا تستهن بحامد! إنه كالثعبان، يقترب منك حتى يلتف حولك، وحينها لن يكون بمقدورك فعل أي شيء للإفلات منه! احذره يا مراد..... فهو ليس بالإنسان السهل!"

ابتسم مراد، واضعاً يده على يدها.....

• "لا تخافي عليّ، ولا داعي لكل هذا القلق. لن أسمح بأي مكروه يصيبك مرة أخرى، فلستُ على استعداد لكي أفقدك مرّة ثانية."

تعجبت سارة ممّا قاله.... عن أي مكروه أصابها يتحدث؟ ومتى قد فقدها من قبل؟! تنبه مراد على الفور بأنه أفصح بأكثر ممّا كان ينبغي.....

- "أقصد أنه لن يضطرك بعد الآن لكي...."
- "رجاءً لا تكمل." سحبت سارة يدها من يده، وأخذت تنظر إلى الأرض..... لم يكن مراد يتمنى أن يضطر إلى اللجوء إلى إحراجها على هذا النحو، ولكن شيئاً أهون من شيء، خاصة بعد قراره بعدم الإفصاح في الوقت الراهن عن حقيقته إلى أن يرى الوقت مناسباً ليبوح لها بكل شيء.
- "الحياة يا سارة تضطرنا بعض الأحيان إلى أن نفعل أشياء قد لا نرضى عن فعلها لو كانت الظروف مختلفة." حاول التهوين عليها، ولو بقول شيء لم يؤمن به قط.
- "ولكني لم أفعل شيئاً رغماً عنّي..... مراد هذه هي الحقيقة التي يجب أن تعلمها..... فأنا لست إنسانة فاضلة ولكن الظروف هي التي اضطرتني إلى أن أقوم بما قمت به من أعمال قد يعدّها البعض مهينة.... ما فعلته كان بمحض إرادتي. صحيح حامد ضغط عليّ في بعض الأحيان، ولكن كان بإمكاني الرفض، وأن أترك غانم، ولكني لم أفعل..... هل تعلم لماذا؟" أمعنت النظر إليه دون أن تنتظر منه إجابة عن سؤالها.....
- "لأني أحب الحياة التي وفّرها لي زواجي من غانم الساعدي..... نعم، هذه هي الحقيقة بكل بساطة يا مراد.... فأنا على استعداد لكي أفعل أي شيء.... أي شيء، من أجل أن أظل مستمتعة بحياة أشبه بحياة الأميرات.... طائرة خاصة تحت تصرفي تأخذني إلى حيث أريد..... غداء مع أهم المشاهير في العالم..... عشاء مع رؤساء الدول..... علاقات عامة لا مثيل لها..... أموال طائلة لا تنفد..... ثراء، جاه، سلطة! لا أريد فقدان أيٍّ من هذا يا مراد! من يتذوق طعم الشهد، لن يقبل بعد ذلك بطعم العسل مهما كان

حلواً....."

صمتت قليلاً، وكأنها توقعت أن يقول مراد شيئاً، رداً على كلامها، ولكنه آثر الصمت والاستماع إليها.....

- "أنا لست بلهاء.... عندما وافقت على الزواج من غانم، كنت أعلم جيداً على ماذا أنا مقبلة، فلم أكن أول زيجة له.... سمعت عن ولعه بالقاصرات، وعن شرائه لهن من أهاليهن في اليمن وغيرها من الدول الفقيرة، ودور حامد الزايد في تسهيل هذه الأمور له، وغيرها من الأمور من أجل إشباع رغباته. عندما خطبني حامد لسيده، كان صريحاً معي، ولم يحاول إيهامي..... دوري أن أكون واجهة جميلة للشيخ غانم الساعدي أمام الناس، وبالأخص علية القوم؛ ومع مرور الوقت، وجد حامد أن جمالي يمكن استغلاله في أمور أخرى لم يمانعها غانم طالما أنها تخدم مصالحه وتزيده ثراءً..... ولكني أظن أنك تعلم كل هذا الآن..... لا أدري ما الذي فعلته لكي تستحوذ عى ثقة حامد الزايد إلى هذا الحد الذي يجعله يفصح لك بالحقيقة كاملة، ولكن ثق أنه يخبئ من ورائه شيئاً لك..... فحامد لن يفشي بأسرار سيده دون مقابل أو غرض، ولا أدري ما الذي لديك لكي تقدمه لشخص مثله."
- "أملك حياته يا سارة! نعم، حياته تحت حذائي هذا، وأستطيع متى ما شئت دهسها! رجاء ثقي في كلامي، ولا تسأليني كيف؟ لأني لن أستطيع إجابتك، على الأقل الآن. كل ما عليك إدراكه في هذه اللحظة هو أنه لن يطلب منك بعد الآن معاشرة أي أحد من أجل مصالح سيده..... أنت حرة في إقامة أي علاقة مع أي شخص."
- "حتى لو كان هذا الشخص أنت؟"

- "حتى لو كان هذا الشخص أنا..... ولكن.... "
- "ولكن ماذا؟"
- "هناك أمر يجب أن أنهيه أولاً، ولا تسأليني ما هو؟ حتى لا أضطر إلى أن أكذب عليك؛ ولكن ثقي بأن أي شيء أفعله هو لمصلحتك، قبل أن يكون لمصلحتي."

لامست سارة خده بأناملها، ثم قالت مبتسمة.....

- "ثقتي بك ليس لها حدود.... منذ أول مرة رأيتك فيها، علمت أنك شيء آخر ليس له مثيل في هذه الدنيا، ومعك سيكون لحياتي مذاق خاصّ لا يوجد له وصف!"

* * *

استمتع بلعبة الشد والجذب التي لعبها مع أليس تَبْت. فتارة يقترب منها، وتارة أخرى يبتعد عنها. استمتع بمشاهدة حيرتها بينه وبين خليلها جيم، وعبر الأيام والأسابيع والشهور أخذت حصونها تتهاوى، الواحد تلو الآخر، ليتمكن من النفاذ إليها أكثر وأكثر، حتى وقع المحظور ذات ليلة عندما كان جيم غائباً لحضور مؤتمر جراحي بكندا، وجمعتهما المناوبة في المستشفى.....

كانت ليلة خريف هادئة، على غير العادة. لم تكن هناك عمليات جراحية طارئة، أو طلب استشارات من أقسام أخرى، وحتى المرضى المنومون في الجناح كانت أمورهم على ما يرام. أحضر مراد الطعام لهما، وكان حريصاً على الإتيان بأكثر طبق تحبه: الباد ثاي...... شكرته على هذه اللفتة اللطيفة، ثم دعته إلى حجرتها. ظلّا يأكلان في صمت، ولكن النظرات كانت تبوح بكل شيء؛ وعندما تيقن مراد أن اللحظة المناسبة قد أزفت، قام بالمبادرة المنشودة دون أن يلقى منها أي مقاومة تذكر..... أفرغ فيها شوقه الكبير لسارة التي ظلّ حارماً

نفسه منها، فكانت ليلة استمتاع لم تذق مثلها أليس من قبل، لتصبح حجرة المناوبة أولى محطات العلاقة المتدفقة بينهما، الّتي استمرت في الخفاء حتى جاء الموعد المنشود: حفل رأس سنة 2000 بشقة أليس تَبْت الفاخرة، الواقعة في الطابق الخامس من العمارة رقم 10 المُطلة على حديقة بوسطن، بإحدى أرقى أحياء المدينة.....

* * *

كانت سعادة أليس واضحة للعيان في تلك الليلة المشهودة التي ظن أغلب حضورها خطأً بأنها مقدمة الألفية الجديدة؛ كما كان واضحاً أيضاً اهتمامها المبالغ فيه بأحد ضيوفها دون غيره.....

- "فيرجينيا، دعيني أعرفك بصديقي مراد من السعودية؛ طبيب مقيم في قسم جراحة بمستشفى ماس جنرال؛ وهو مثلك يعشق الجدال الفلسفي الذي يُصَدِّع الرأس." ابتسمت وهي تقدم عشيقها السرّي لأختها.
- "أهلاً،" قالت فيرجينيا لمراد وعلى وجهها ابتسامة مصطنعة لاحظها كما لاحظتها أليس؛ ابتسامة لم تخفِ من ورائها شيئاً من الدهشة.....
- "هل قلتِ من السعودية؟"
- "حتى أنا لم أكن أعلم أن في السعودية أناساً من أصول آسيوية مثلنا. مفاجأة أَلَيس كذلك؟!"

مدّ مراد يده نحو فيرجينيا.... تعمد أن يشعرها بشيء من الرجفة عند ملامسته. ومضات كهربائية تبث فيها الشك عن حقيقته التي غابت عنها وعن داربا هذه المرة..... هل ما زالت تتذكر اسمه، أم أنها نسيت؟ هل ما زالت تتذكر ذلك الشاب العبقري الذي لفت انتباه وليام برمن، فأمر بمراقبته برهة من الزمن حتى ظنوا، نتيجة خداعه

لهـم، أنـه مجـرد عبقـري آخر، وليس من ذوي القـدرات الخارقة كما هو الحال مع فيرجينيا.....

- "لا تصدقيها؛ أنا لست من أهل الفلسفة، فهي لها أناسها وأنا لست منهم."
- "من أهل ماذا أنت إذن؟" جاء سؤالها بشكل مباغت..... هل بدأت تنتبه إلى حقيقته؟
- "أهل العلم والمعرفة، مثلك على ما أعتقد." أجابها رامياً لها دليلاً آخر، فلعلها تتيقن.
- "لـن تغلبيـه بالكلام يا أختي الصغيرة.... " قاطعت أليس بضحكة غنجة، واضعة يدها اليسرى على ساعد مراد الأيمن.....
- "أخبرهـا عـن ذلـك الذي حدثتنـي عنه ذات يوم فـي المطعم.... أقصد أحجية القطة في الصندوق."

كان علـى ثقـة بـأن أليس سـتفتح هـذا الموضوع أمـام فيرجينيا، لذلك ذكره لها ذات يوم.... كل شيء كان يسير كما يريد....

- "ولِـمَ لا؟ أخبرنـا عـن أحجيـة القطـة، أظـن أن أليـس تقصد قطة شرودنجر، ألَيْس كذلك؟" تساءلت فيرجينيا بنبرة ساخرة لم تحاول إخفاءها.

ابتسم مراد قبل أن يجيبها، ولكنها لم تكن ابتسامة حرج وإذعان، بل ابتسامة إعجاب بذاته ودهائه.

- "دعونا من أمر القطط والكلاب، فبعد سـاعتين من الآن سـندخل في....." حاول جيم أن يغير الموضوع، رغبة منه في إزالة الحرج عن صديقه، ولكن كان لمراد شأن آخر.....
- "أراد عالـم الفيزياء الشـهير إروين شـرودنجر الحاصل على جائزة نوبـل فـي الفيزيـاء، أن يُبَيِّـن مـدى غرابـة العالَـم الـذي تصفه لنا

نظريـات فيزيـاء الكـم؛ ذلـك العالَم الذي يختلف كثيـراً عمّا كان يعتقده البشـر منذ آلاف السـنين، خاصة إذا وضعنا في الحسـبان مـا اكتشـفه عالِـمٌ آخر حاصل علـى جائزة نوبل في الفيزياء، ورنر هَيسِنبرك، من خلال مبدأ عدم اليقين....."

بدت الدهشة واضحة على فيرجينيا الّتي لم تتوقع من مراد هذه البدايـة الدقيقـة، علـى العكس من أليس التي كانت تنظر إلى عشـيقها السعودي بإعجاب......

- "إذا وضعـتِ قطـةً فـي صنـدوق، وفي داخل هذا الصنـدوق قنّينة زجاجيـة بهـا غـاز سـام، وبجانب هذه القنّينة مطرقة يمكنها كسـر الزجاجة، فينتشر الغاز السام داخل الصندوق، قاتلاً القطة، ولكن المطرقـة مربوطـة بجهـاز يقيـس موضـع الإلكتـرون فـي ذرة من الذرات.... فلنقل ذرة الكربون مثلاً..... فتم تجهيز الأمر، بحيث إذا كان الإلكتـرون فـي مجـالٍ علـوي، على سـبيل المثال، يعمل الجهـاز فتكسـر المطرقـة القنّينة الزجاجية، فتمـوت القطة. أما إذا كان الإلكترون في مجال سفلي فلا يعمل الجهاز، وبذلك تعيش القطة..... وهنا يكمن السؤال: هل القطة حية أم ميتة؟ مع العلم أننا ندرك يقيناً أن الإلكترون، كما تنبأت نظريات فيزياء الكم وعلى رأسـها مبدأ عدم اليقين، موجود في كل مكان في ذات الآن إلى أن تتـم عمليـة الرصـد، وحينهـا فقط يتخذ الإلكتـرون له موضعاً محدداً، إما سفليّاً أو علويّاً....."
- "ولكن هذا أمر مستحيل....." قاطع جيم عاقداً حاجبيه الكثيفين، موجهاً نظره لفيرجينيا، وكأنه يطلب منها النجدة.....
- "الأحجية ليس لها جواب، أليس كذلك؟"
- "بل الأحجية لها جواب.... جواب واحد لا محالة." أجابته بتردد.

- "أن القطة، وهي في الصندوق المغلق، قبل أن تتم عملية الرصد، حية وميتة في الوقت نفسه! مَجمع النقيضين..... من غير ذاك لا يكون هذا، ومن غير هذا لا يكون ذاك!" أضاف مراد وكأنه يفصح لها عن حقيقته التي لم تكتشفها حتى الآن....

هزّت فيرجينيا رأسها، ثم استأذنت أختها ورفيقيها.... رغبت في تدخين سيجارة في الشرفة قبيل إطفاء أنوار العام الجديد.

لم تمضِ دقائق على ذهابها حتى استأذن مراد هو الآخر من أليس وجيم، فلعبة القط والفأر مع فيرجينيا تَبْت لم تنتهِ بعد....

- "يبدو أنكِ مثلي تحبين الهدوء." لاحظ التفاتتها السريعة نحوه، ثم تجاهلها..... علامة على الانزعاج من وجوده معها..... هذا وهو لم يخبرها شيئاً بعد، أخذ يفكر، فماذا ستفعل عندما تعلم الحقيقة؟!

- "المعذرة.... هل أزعجتك؟"

- "أخبرني، منذ متى وأنت تعاشر أليس من وراء جيم؟!" باغتته فيرجينيا بالسؤال..... لقد لاحظت إذن من تصرفات أختها..... وهذا ما كان يأمله.

صمت مراد قليلاً قبل أن يجيبها، بشكل تلقائي، وكأنه فوجئ بالسؤال....

- "لن أمتهن ذكاءك بالإنكار.... منذ نحو ثلاثة أسابيع."

- "اللعنة أليس!" سمعها تهمس مع نفسها....

- "لماذا تفعلين هذا بجيم؟! لم يفعل لك أي شيء سوى أنه أحبك وأخلص لك، وحاول إسعادك بشتى الطرق!"

فاجأه غضبها لجيم..... وكأنها..... وكأنها تحمل مشاعر نحوه!.... كارت جديد قد يستخدمه ضدها مستقبلاً!

- "لا تلومي أختك، فالذنب ليس بذنبها." قال مراد بهدوء وبساطة أثارتا دهشة فيرجينيا، ثم أكمل....
- "العاطفة مثلها مثل أي شيء في الكون، تَحْكُمها سنن، فمن يَعْلمها يستطيع التحكم فيها. أنا على أتم الاستعداد لإنهاء علاقتي مع أليس، إن كان هذا الأمر يرضيكِ."

استفزتها جملته الأخيرة..... فنظراتها له كانت مليئة بالدهشة والاشمئزاز، كما لاحظ تحرك يدها اليمنى وكأنها لوهلة رغبت في صفعه!

- "أختي ليست لعبة تلهو بها! فمن تحسب نفسك؟!"

مسح مراد الابتسامة التي كانت مرسومة على وجهه منذ حضوره الحفل، ليظهر من ورائها وجهاً آخر أكثر شراسة....

- "من تحسبينني أنتِ؟"

تراجعت فيرجينيا بضع خطوات للوراء، وكأنها بدأت تسترجع أين رأته من قبل...

- "من أنت؟ وماذا تريد؟!"
- "أظنك تعلمين جيداً ما الذي أريده..... أما سؤالك الأول، فقد أمضيتُ دهراً وأنا أبحث له عن إجابة! اسمحي لي بأن أقدم لك نفسي من جديد. اسمي قطز.... مراد قطز!"

صمت قليلاً لكي تهضم ما قاله لها..... إن لم تتنبه لحقيقته فحتماً ستتذكر ذلك الشاب السعودي الذي راقبته داربا لمدة بسيطة، عندما كان في برنستون منذ خمسة أعوام، فكم من شخص يحمل لقب عائلته تعرف؟!

- "يبدو وكأنك شربت كثيراً..... كلامك..... كلامك غير واضح، وغير..... وغير مفهوم." تلعثمت في حديثها.... بدأت تدرك!

- "إذن اسمحي لي بأن أوضح لك أكثر... الوسكا! أريد سر تركيبة الوسكا!"
- "لا أعلم.... لا أعلم عمّا تتحدث!" أجابته بإنكار مصطنع، غير مقنع.... وكأنها لم تجد شيئاً آخر في تلك اللحظة تقوله.
- "بل تعلمين، كما يعلم وليام برمن.... " فوجئت فيرجينيا عندما سمعته ينطق باسمه.....
- "كما كان يعلم ذلك الباحث المسكين في داربا الذي اصطحبتِه معك في رحلة عبر دخان الوسكا بقبو منزلك، فلم يتحمل وأصيب بالجنون."
- "مستحيل!..... كيف علمت؟! من الذي أخبرك؟!"
- "أنت يا فيرجينيا..... أنتِ من أخبرني عن كل هذا، كما أخبرتِني عن جدك الكاهن تبتنكر الذي وَرَّث سرّ الوسكا لأبنائه من أصحاب القدرات، حتى وصل ذلك السرّ إليك."
- "أنت تكذب! أنا لم ألتقِ بك قبل اليوم!"
- "حقّاً؟!.... لا، فأنت لا تؤمنين بذلك..... على الأقل في قرارة نفسك، حتماً تشعرين وكأنك تعرفينني من مكان ما؛ وبالمناسبة، أنا لا أتحدث عن تلك المدة التي راقبتني فيها داربا..... بل أقصد معرفة حقيقية عن قرب!"
- "ولكني..... ولكني لم التق بك.... "
- "بل التقينا، ولكن في حياة أخرى، ولكي أكون أكثر دقة في حديثي: في مسار قدرَي آخر غير هذا الذي نحن فيه..... في ذلك المسار تَعَرّفنا، ووثقت بك، وصارحتك، وشاركتك في بعض التجارب، ثم غدرتِ بي وقتلتني..... هذا باختصار ما حدث من غير أن ندخل في التفاصيل."

- "ما تقوله مستحيل! غير ممكن!"
- "بل ممكن، وقد حصل..... أنت ووليام برمن كنتما وما زلتما تبحثان عن أصحاب القدرات من أمثالك، ولكن الخطأ الفادح الذي وقعتما فيه، هو أنكما لم تبحثا عمن يفوق قدراتكِ بمراحل! عن شخصٍ مثلي أنا، استطاع بقدرته التي تفوق كل حد، أن يتغلب على الموت نفسه!"

دهشة عارمة أصابت فيرجينا أفقدتها توازنها، فلم تستطع أن تجيبه بشيء. لأول مرة في حياتها شعرت وكأنها على حافة ثقب أسود يكاد يبتلع كل شيء، ولا يبقي على أي شيء! لأول مرة لم تعلم ماذا تفعل!

- "أنتِ الآن أمام أحد خيارين لا ثالث لهما.... إما أن تنصاعي لي، فأجعل أختك أليس تبتعد عني كما جعلتها تقترب مني، فتعود حياتها كما كانت قبل أن ترتبط معي في علاقة حميمة جداً؛ أو ألا تنصاعي لمطلبي، فأكمل العلاقة مع أليس وأجعلها تترك جيم، فتسير الأمور نحو الزواج بعد حب جامح يربط قلبها بي، وفي اليوم الموعود الذي تنتظره كل عروس، أرسل لها خطاباً مع أحد أصدقائي يخبرها بأني لا أستطيع الزواج منها، لأني أعشق أختها الصغيرة فيرجينيا ولا أستطيع الارتباط بأحد غيرها، فينشطر قلبها أمام الملأ، وتكرهك بقدر ما كانت تعشقني، لأنك السبب في حرمانها من حب حياتها! فتاة رقيقة مثل أليس قد لا تتحمل كل هذا.... مثلها قد لا يجد غير الموت مفرّاً من هذا الألم! وهي ليست مثلي..... لن تستطيع العودة مرة ثانية إلى الحياة!"
- "أيها الحقير الواطي! سأقتلك قبل أن تمس شعرة من أختي!"

ضحك مراد لما سمع، غير مكترث بتهديدها الأجوف، حيث أدرك

أن يده هي العليا، وليس أمام فيرجينيا من خيار سوى الانصياع.....

- "إن أردت النجاة لأختك، فأنت تعلمين جيداً ما الذي يجب عليك فعله. مثلك لا يستطيع تهديدي.... لقد مضى ذلك القطار منذ زمن بعيدا!"

لم تتحمل فيرجينيا البقاء في الشرفة معه لحظة أخرى، خاصة أنها لم تعرف بماذا تجيبه.... اتجهت نحو الباب، ثم فتحته على عجل في اللحظة التي كانت فيها أليس على الجانب الآخر منه. لمح مراد وليام برمن بالداخل، وكأنه حضر توّاً للحفل. أمسكت فيرجينيا بذراعه، ثم سحبته إلى خارج الشقة.

- "ماذا جرى؟!" تساءلت أليس، شاعرة بالدهشة لتصرف أختها العجيب.

- "لقد علمت بعلاقتنا." أجابها مراد متظاهراً بالقلق.....

- "أظنها غضبت من أجل جيم..... يبدو وكأنها.... وكأنها تحبه!"

* * *

لكل حدث مقدماته التي تؤدي إليه وفق سنن كونية ثابتة لا تتغير، يعلمها من يعلم ويجهلها من يجهل.... كانت هذه العبارة أحد الأشياء التي تعلمها من عبدالرحمن أبوالحمايل في رحلته إلى تونس، وأن يصبح لاعباً في حدوث تلك المقدمات وليس فقط شاهداً عليها، ومن ثم التنبؤ بما سيحدث لاحقاً وفق خوارزميات واضحة تجعله في نهاية المطاف المتحكم في الحدث.....

عندما فتح باب شقته، كان مراد يدرك جيداً ما الذي ينتظره بالداخل. ما جرى في شقة أليس منذ ساعتين، ما كان ليَمُر هكذا دون عواقب. فيرجينيا حتماً أخبرت وليام، ووليام سيرسل رجاله للقبض عليه وأخذه لمكان آمن من أجل التأكد مما قالته فيرجينيا. لن يطلع

نهار يوم جديد من سنة جديدة، إلّا والأمر قد حسم، وهذا ما أراده مراد.....

دخل الشقة، ومن غير مقدمات شعر بصاعق كهربائي يلامس جسده، فتظاهر بالسقوط. تم وضع غطاء على رأسه، ثم حُمل إلى سيارة مظللة، وبعد مسافة نصف ساعة من السير، أُقتيد إلى مبنى منعزل بضاحية نائية لبوسطن، ثم وضع على كرسي وحيد بقاعة فسيحة خالية من الأثاث، وصُفِّدت يداه قبل أن يُرفع الغطاء الأسود من على رأسه.....

- "يبدو أنك بالغت بعض الشيء في وصف قدراتك، هذا إن كانت لديك قدرات." قال وليام برمن ساخراً من مراد، ثم وجّه باقي حديثه لفيرجينيا التي كانت هي الأخري موجودة في المكان....
- "كما قلت لك من قبل، لو كان لديه شيء لعرفناه.... هو مجرد شاب شديد الذكاء، وعلى ما يبدو أيضاً شديد الدهاء، لا أكثر ولا أقل..... انظري إليه الآن، لا حول له ولا قوة.... هل هذه من مواصفات أصحاب القدرات؟! لقد هالَك حديثه..... كان ينبغي لك ألّا تصدقيه."
- "ولكن كيف عرف عني وعنك وعن تجاربنا؟!" تساءلت دون أن تُخفي توترها.
- "حتماً أحد أخبره.... قلتِ لي: إنه على علاقة حميمة مع أليس؟"
- "أليس لا تعلم أي شيء عن هذه الأمور!" أجابته فيرجينيا على الفور، حاسمة الأمر؛ وما كادت تفرغ من قولها حتى تعالت ضحكات مراد بشكل ملحوظ، وكأنه أراد استفزازها.....
- "ما الذي يضحكك أيها الخسيس؟!" ذهبت إليه، ثم صفعته على وجهه، دون أن يكف عن الضحك.

- "اتركيه يا فيرجينيا.... عندما يفرغ منه رجالي، فسيكون هذا آخر عهده بالضحك!"
- "هل تظنين حقاً أنه سوف يترك أليس، طالما دخل في قلبه شكٌ تجاهها؟" قاطع مراد، موجهاً سؤاله لفيرجينيا.....
- "اخرس! لا تنطق باسم أختي على لسانك القذر!"
- "فيرجينيا....." حاول وليام تهدئتها.
- "كل إنسان لديه نقطة ضعف، ونقطة ضعفك هي حبك الشديد لأختك." واصل مراد حديثه غير عابئ بتهديدهما له.....
- "أما أنت، فنقطة ضعفك هي أنك من العوام، وتحاول الدخول إلى نادي الخواص." ما كاد مراد يفرغ من حديثه، حتى قام من على كرسيه متجاوزاً أصفاده وكأنها لم تكن أمام دهشة الجميع، ثم على الفور بنظرة سريعة أطاح برجال وليام الأربعة على الأرض، ليتهاووا جثثاً هامدة قبل أن يمسك برقبة وليام الذي امتلأ رعباً، غير مصدق هذا الذي كان يجري أمام عينيه!
- "هل تظن أنني أتيت إلى هنا رُغماً عني؟ مثلك لا يرغم مثلي على أي شيء! أنا هنا لأني أردت أن أمسك برقبتك هذه، نظير ما فعلت."
- "ولكني.... ولكني لم أفعل لك شيئاً قبل اليوم!"
- "أنا لا أتحدث عن نفسي أيها الأبله!"
- "عمّن إذن؟!" تساءل وليام، شاعراً بأنفاسه وهي تتثاقل عليه.
- "سارة القويت التي أمرتَ بقتلها!.... بتفجير طائرتها!"
- "عمّا تتحدث؟! سارة على قيد الحياة! وأنا لم آمر بقتلها!"
- "بل فعلت، ولكن في مسار قدري آخر، والأعمال بالنِّيات!" ما فرغ مراد من جملته حتى كسر رقبة وليام بكل يسر، ثم رماه على

الأرض دون اكتراث، فنظر إلى فيرجينيا التّي وقفت متسمرة في مكانها.....

- "والآن بما أنه لم يبقَ سوانا هنا في هذا المكان الموحش، لعلك تجيبيني على عرضي لك في شُرفة شقة أليس..... أرجو أن تحسني الاختيار هذه المرة، فصبري عليكِ ليس بلا حدود!"

* * *

شعور لا يوصف، ذلك الذي تملكه عندما انفصلت نفسه عن جسده، بعد مدة انقطاع طويلة! بعدما عرف سر الوسكا، بات يشعر مراد بأن لا شيء في هذا الكون يمكن أن يقف أمامه! وكلما تفجرت قدراته، بات متعطشاً للمزيد، خاصة بعدما أدرك أن للنفس قدرة، تفوق الوصف، للتعلم والتعرف على نسيج الكون وأسراره؛ ولكن الأنفس ليست كلها سواء، فما كان متاحاً له، لم يكن كذلك مع فيرجينيا التي شاركته بعض رحلاته. إمكانياتها كانت لا تقارن مع إمكانياته. قدرتها على التنقل كانت محصورة في الماضي الذي يخص سلالتها، على خلافه هو الذي كان يذهب حيثما يشاء؛ ولكن مع مرور الوقت، سئم مراد من ثبات الحال على المشاهدة دون التفاعل، وبات يحاول إيجاد طريقة للتفاعل مع ما كان يشاهده من أحداث. حاول أن يجد طريقة لكي يتشابك فيها مع أجساد أخرى غير جسده، ولكنه لم يفلح؛ فسرعان ما أدرك أن لكل جسد نفساً واحدة، لا يمكن تجاوزها. شعر وكأنه يبحر في عالم جديد ليس له دليل، يصوغ هو مفرداته ويشق طرقه الوعرة. حتى فيريجينا، على خبرتها وخبرة أجدادها من قبلها، لم تكن تعلم عن هذا العالم المحجوب سوى القليل. بل ما اكتشفته من خلال مراد تجاوز كل ما كانت تعلمه...... أقدار متعددة، بعضها فاعلة وأخريات خاملة، لكل منها زمنها الخاص. كانت تدرك أن هناك

عوالم متعددة متوازية، ولكن أن يكون لكل عالم أقداره المتعددة، هذا ما أدهشها! ولكن مراد قطز أصبح مثلاً حياً أمامها على هذه الحقيقة التي، إلى وقت قريب، كانت غائبة عنها. بل هو تجسيد واقعي لكيفية استخدام هذه الأقدار عبر الاختيار والتنقل بينها. بقدر ما كرهت هذا الفتى السعودي المتغطرس، إلّا أنها كانت معجبة بقدراته الفائقة التي لم ترَ أي شيء يماثلها، فارتضت لنفسها أن تسير في ركابه، تابعة له، خاصة بعدما أوفى بوعده لها وأنهى علاقته بأليس دون أن يجرحها. كما استطاع أن يوجد لها ولبحوثها مصدراً آخر للتمويل غير وليام برمن، الذي قُيدت جريمة قتله ضد مجهول بعدما فشلت الاستخبارات العسكرية التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية في التوصل لأي شيء يفك لغز مقتله العجيب هو ورجاله.....

كانت سارة هي همزة الوصل بين فيرجينيا وغانم الساعدي، ومن خلال لقاءات عدة جمعت بينهما، تبين لرجل الأعمال السعودي أن تمويل بحوث تلك الفتاة العبقرية الأمريكية، ذات الأصول الآسيوية، المتعلقة بتقنية النانو، أو الأجسام المتناهية الصغر كما فهم منها، قد تجني له المزيد من الأموال الطائلة على المدى المتوسط والبعيد. لم يكن يعلم غانم الساعدي، ولا حتى زوجته سارة، أن جزءاً من هذه الأموال كانت تصرف على البحوث الخاصة المتعلقة بمراد الذي حرص على ألّا يظهر في الصورة على الإطلاق، خاصة بعدما استعاد علاقته الحميمة مع سارة القويت. وهكذا استمر الخط القدري الجديد الذي اختاره مراد من حسن لأحسن عبر السنين..... قدراته كانت تزداد استطاعة، وغرامه يزداد ولهاً، وحياته المهنية تزداد تألقاً، فبدا له وكأن لا شيء في هذا الكون يمكن أن يقف أمامه ويعرقل مسيرته، ولكن.....

لكن مع مرور الوقت لم يصبح كل هذا كافياً له. فكان هناك شيء مفقود؛ شيء ظل يبحث عنه دون أن يصل إليه، حتى أصبحت رغبته في الحصول عليه أشبه بالهوس الذي جعله يفقد طعم كل ما هو دونه..... المنتهى!

- "ما تنشده هذا أمر مستحيل! أنا لم أسمع به من قبل!" قالت له فيرجينيا بعدما فاض بها الكيل من إلحاحه المستمر نحو أمر هي لا تراه ممكناً.....
- "قدرات البشر في نهاية المطاف لها حدود!"
- "ونحن أبعد ما نكون عن هذه الحدود! ما زال هناك الكثير..... أنت مثلاً، هل كنت تتخيلين أنه بإمكان شخص أن يعود بنفسه مرة أخرى إلى جسده بعدما يموت، عند لحظة اختيار حاسمة؟!"
- "لا، ولكن.... هذا أمر آخر." تلعثمت في إجابتها..... فبالطبع هناك أمور لا تدركها، وقد برهن لها هو على ذلك قبل سنين.....
- "بل هو الأمر نفسه..... آصف بن برخيا استطاع أن يصل إلى المنتهى، فصنع بمعرفته ما هو أكثر بكثير ممّا صنعته أنا."
- "ولكن هذه مجرد أساطير يا مراد..... لعلّها لم تحدث من الأساس!"
- "بل حدثت! أنا على يقين من ذلك، كما بتّ على يقين من الطريق الذي سيوصلني إلى ما أصبو إليه، بعدما جرّبنا كل شيء آخر."
- "ولكن ما تنشده هذا جنون! هل تفهم؟! جنون! وقد يدمرنا جميعاً! هذا ما يحدث عندما تجتمع المادة والمادة المضادة..... أبسط قوانين الفيزياء التي يَعْلمها أي طالب علوم في سنته الأولى!"
- "أنت تنظرين إلى الأمور من وجهة نظر تقليدية بحتة على الرغم من ذكائك الفائق..... ما يراه الفيزيائيون انفجاراً عظيماً لا مثيل

له، أراه أنا قوة هائلة..... طاقة كبرى قد تمكن صاحبها من التوحد مع نسيج الكون اللا مرئي."

- "مراد.... المادة اللا مرئية والطاقة اللا مرئية هما مجرد فرضيات لم يتم اثباتهما حتى الآن."
- "بل حقيقة قائمة، ووجودهما يفسران كل ما نعلمه أنا وأنت حتى الآن..... لا أفهم كيف لا ترين ما أراه وأنت مثلي من ذوي القدرات.... من أهل الكشف!"
- "ربما لأن قدراتي لا تكاد تقترب من قدراتك! لست في حاجة إلى أن تذكرني كلما اختلفت معك!" أجابته غاضبة، ثم اتجهت نحو باب منزله الجديد بحي الشاطئ في شمال جدة. لم تكن على استعداد لسماع المزيد حول هذا الحديث.
- "إلى أين؟! نحن لم نفرغ بعد!"
- "مراد.... الوقت تأخر، ولم أنتهِ بعد من تحضير العرض الذي سأقدمه بعد ساعات قليلة أمام غانم ومستشاريه في الرياض؛ والطائرة لن تنتظرني إن تأخرت عن موعد صعود الركّاب!"
- "حسناً،" أجابها على مضض، سامحاً لها بالانصراف.....
- "ولكن بالمناسبة، كيف تسير الأمور بينكما؟ متى سيتم الإعلان عن الشركة؟"
- "هذا يتوقف على العرض الذي لم أجهزه بعد!"

ضحك مراد لتذمر فيرجينيا..... في مثل هذه اللحظات كانت تبدي شعورها الصادق نحوه. هي لا تحبه، وهو يعلم ذلك جيداً، وتود التخلص منه اليوم قبل غد، ولكنها باتت تدرك استحالة ذلك الأمر.... فكيف تتخلص من شخص يبدو وكأنه غير قابل للموت؟!

- "أنا واثق من قدرتك على إقناعه، كما أنه لن يُفوِّت فرصة مثل هذه

مـن أجـل مضاعفة ثروته..... أخبريني بنتيجـة اللقاء فور انتهائك منه."

لـم تجبـه فيرجينيـا.... اكتفـت فقـط بهـزة رأس سـريعة، ثـم انصرفت..... لحظات قليلة، ثم هبطت سـارة من على درج المنزل، حيث كانت مختبئة في حجرة النوم. لم تكن مرتدية سوى أحد قمصان مراد. اقتربت من عشـيقها على الفور، ثم وضعت رأسـها على صدره بتغنج ودلال.....

- "لا أثـق بهـا هـذه اللئيمـة! لا أدري كيـف تثق بهـا أنت بعد الذي فعلته معك!"
- "أنا لا أثق في أي أحد سواك..... لا تخشي عليّ منها، فهي تدرك أنها لا تملك من أمري شـيئاً، وأنه بإمكاني أن أفنيها من الوجود متى ما شئت!"
- "رجاءً لا تتحدث هكذا.... أنت تخيفني!"
- "تخافين مني أنا؟! سارة.... كيف تقولين هذا؟!"
- "آسـفة حبيبـي..... لـم أقصدها بهذا الشـكل، ولكني..... ولكني بعض الأحيان أتمنى لو أنك لم تخبرني بكل هذه الحقائق! أنت وقدراتك وقدرات فيرجينيا، وما حدث بينكما...... وما حدث... " صمتت قليلاً قبل أن تكمل الجملة......
- "وما حدث لي في.... ماذا تسميه؟ مسار قدري آخر؟! عقلي يكاد يجن كلما فكرتُ فيما قلتَه لي! لولا أنّي رأيت بأم عيني ما أنت قادر على فعله، لحسبتك تهذي!"
- "كان يجـب علـيّ أن أصارحـك بالحقيقـة...... لا أتصـور أن أكـون معـك، وجـزءاً مـن حياتـك، وأخَبئ عنك حقيقتـي. يكفينا تلـك السـنوات التـي مضـت مـن حياتنا وأنا بعيـد عنك من أجل

حمايتـك مـن كل هـذا. ولكنّ الآن الوضع قـد اختلف.... بعدما أصبحت بهذه الاستطاعة، وبعدما تخلصت من تسلط وليام برمن، وأحكمـت سـيطرتي على فيرجينيا، وعلـى حامد الزايد من قبلها، فلا شيء بإمكانه الوقوف أمامنا الآن."

- "هل تظنها تعلم شيئاً عمّا بيننا؟"
- "فيرجينيـا؟ بالطبـع تعلـم، وإن كانت تتظاهر بخلاف ذلك..... لا تستهيني بها أبداً، حتى وإن كانت لا تمتلك القدرات نفسها التي أمتلكها."
- "يا إلهي!.... شيء مُحيّر.... مُحيّرا فكيف يمكن للعالم أن يكون على هذا الشكل، ونحن لا ندرك؟!"
- "لأن النـاس اعتـادوا أن ينظـروا دون أن يـروا..... وإن رأوا، فهم يرون فقط بأعينهم، وليس بعقولهم وجميع حواسهم..... ولذلك عامـة النـاس تعيـش وتمـوت كالأغنـام. تنسـاق وراء راعيها دون سؤال، وإن حادت عن الطريق المفروض عليها، تكفّلت بها كلاب الراعي بحجة أنها تحميها من الذئاب."
- "حبيبي فيلسوف كبير." قالت مبتسمة، ثم طبعت على شفتيه قبلة تشـتاق إلـى المزيـد، ثم سـحبته مـن يده إلى الـدرج المؤدي إلى الطابق الثاني، حيث يوجد أحب مكان إليها في منزل عشيقها..... غرفة النوم.

* * *

الأبيض والأسـود....... النور والظلام...... الخير والشر....... القـوة والضعـف...... الشـجاعة والجبـن...... الإلكتـرون والبوسـترون..... المادة والمادة المضادة. كل شـيء ونقيضه يعملان سوياً ليشكلا مفاهيم الحياة، بل وأسرار الكون بأسره ليكونا جزءاً لا

يتجزأ من نسيجه الغامض. بات مراد قطز على يقين بأن السر لا بد وأن يكمن في نقيضه الذي حتماً هو موجود وفق آليات الوجود التي بات يفهمها. هذا ما دفعه في الآونة الأخيرة لكي يبحث عن ذلك القرين المنشود، الذي يمتلك سر تطور قدراته، وإن كان لا يعلم عن ذلك شيئاً. شاهد أكثر من مراد وأكثر من اختيار في أكثر من عالم، حتى وجد ذلك المنشود في هيئته المحزنة الخانعة الخاضعة بلا قدرات تُذكر. عالمه شبيه إلى حد ما بعالمه، وإن كان به بعض الاختلافات. مراد ذلك العالم أبوه لم يمت، بل لا يزال على قيد الحياة، ولكنه طلّق أمه وتزوج من غيرها. أمه هي التي توفيت إثر حادث سير قبل أن تتزوج من وجيه ذكري. لم يرتبط مراد ذلك العالم بسوسن، ولم يدرس الطب في أمريكا، ولكنه ذهب إلى هناك لاحقاً لكي يتخصص في جراحة التجميل، ومن ثم هو لم يلتقِ سارة أو ناصر القويت، لأنهما كانا قد فارقا مدينة بوسطن قبل مجيئه إليها. حياته كانت حياة رتيبة مملة، كباقي حياة عامة البشر..... بلا قدرة وبلا استطاعة. تنفصل النفس عن الجسد فقط في أثناء النوم، ودون أي إدراك منه بذلك. يظن أنه سعيد بما توصل إليه من إنجاز، دون أن يدرك أنه لم يتوصل إلى أي شيء على الإطلاق! حتى عندما أراد أن يحب، أحب زميلة له في العمل اسمها هديل، دون أن يعلم حينها أنها في واقع الأمر أخت زوجة العشيق السابق لأمه، وجيه ذكري! مراد "طُز"، هكذا سمّاه بعدما أزاح حرف القاف عن اسم عائلته الذي لم يجده جديراً بحمله، بل مثله لا يستحق الحياة أصلاً... لأن "الخنوع لا جزاء له سوى الفناء!"

- "وجدتُها يا فيرجينيا.... وجدتُها!" أمسك بها من كتفيها، بعدما فتحت له باب حجرتها بالفندق، في حالة من النشوى لم تشهدها

عليه من قبل. كانت هذه أول مرة تلتقيه في الرياض بعد تعيينه في مستشفى الساعدي، بترتيب من سارة التي أقنعته أخيراً بأن يترك جدة لكي يستقر بجوارها في المدينة نفسها.

- "وجدتَ ماذا؟"
- "الطريقة التي سأصل من خلالها إلى مبتغاي!" أجابها بعدما دخل وأغلق الباب من خلفه.
- "مرادا.... أما زلت تفكر في هذا الأمر المستحيل؟! حسبتك نسيته، خاصة وأنّي لم أسمع منك منذ زيارتي الأخيرة لك في جدة."
- "لا شيء مستحيل! طالما فكرنا فيه، فهو من الممكنات! ولقد عثرت أخيراً على أول الطريق..... القرين النقيض. إن كنت أنا المادّة، فهو المادّة المضادّة!"
- "أنت تعلم أن هذا الأمر الذي تفكر فيه هو..... هو إن لم يكن مستحيلاً، فهو على أقل تقدير في غاية الخطورة! إن كنت تفكر فيما أظنك تفكر فيه، فأنت تريد أن تصنع قوة هائلة أشبه بالانفجار العظيم الذي أدّى إلى نشأة هذا الكون! قوة كهذه يمكن لها أن تدمر العالم بأكمله!"
- "عالمه هو، وليس عالمي أنا! سأقوم بالتجربة هناك، فقط من باب الحيطة، ولو أنّي على يقين بأن الأمر لن يكون بالسوء الذي تدعينه. هو فقط من سيتلاشى، وحينها سأستوعب الطاقة الهائلة التي ستنبع من نفسه الفانية!"
- "ما زلت أظن أن الأمر يحمل مخاطرة كبيرة لا داعي لها..... أنت تمتلك قدرات هائلة لم أرَ مثلها في حياتي! تبتنكر العظيم ما كان يحلم بمثلها! ألا يكفيك هذا؟!"
- "لا!! لا يكفي! ولن يكفيني إلّا شيء واحد فقط: المنتهى! لا بد

وأن أصل إلى ما وصل إليه آصف بن برخيا! وهذه هي الطريقة، أنا على يقين من ذلك!"

- "تريد أن تصبح العارف؟! أنت تبحث عن سراب لا وجود له إلّا في مخيلتك! هذا رأيي، وإن كنتُ على يقين بأن رأيي هذا لا يهمك في شيء..... ماذا تريد يا مراد؟ أنت لم تأتِ إلى هنا لكي تخبرني فقط بهذا الأمر، بل تريد شيئاً ما منّي..... فما هو؟"

لم يرُق له جسارتها في الحديث معه، وكأنها نسيت من يكون، وما هو قادر على فعله! لكن الوقت لم يكن مواتياً الآن لمصع الآذان.... هناك ما هو أهم!

- "لكي تنجح خطتي، وأحصل على ما أريد، لا بد وأن أتشابك مع نفس قريني النقيض. هذه هي الطريقة الوحيدة لكي أستوعبها، وحينها سيموت جسد مراد الآخر وتبقى نفسه بلا جسد يأويها، ولأني تشابكت معها فسأتمكن من استيعابها في جسدي هذا..... أعلم أنك تخشين من عاقبة هذا الالتقاء بين نفسينا، ولذلك سأقوم بالتجربة أولاً في عالمه هو، ومن خلال جسده. سأتشابك معه عندما ينام وتنفصل نفسه..... نعم، هو لا يزال ينام، لأنه بلا قدرات، وليس مثلنا..... سأتشابك مع جسده بنفسي، ثم أرى ماذا يحدث عندما يستيقظ وتعود إليه نفسه. أنا واثق بأن العالم لن ينفجر كما تظنين، ولكني سأقوم بهذه التجربة من باب الحيطة فقط لا أكثر؛ على الأقل حتى تتيقني من حسن تدبيري، وعندما تنجح سأقوم بالخطوة النهائية: التشابك الفعلي مع نفسه عبر جسدي أنا في عالمنا هذا، وهنا يأتي دورك أنت في هذه التجربة!"

- "وما دخلي أنا في كل هذا؟! من الواضح أنك خطّطت ورتبت دون الحاجة إليّ..... لماذا تحتاج إلي الآن، خاصة وأنه ليس

بمقدوري التنقل مثلك بنفسي إلى هذه العوالم المتوازية؟!"

- "ما أحتاجه منكِ لا يتطلب التنقل بين العوالم، بل العكس من ذلك. أريدك أن تبقي هنا في هذا العالم، حتى تضمني تباعده عن عالمه هو."

نظرت فيرجينيا إلى مراد، شاخصة العينين، في حالة من الذهول.....

- "ما هذا الهراء الذي تقوله؟! وهل بإمكاني أو بإمكان أي شخص على وجه الأرض أن يفعل هذا؟!"
- "الأمر أسهل بكثير مما تظنين. لقد راقبت عالم قريني النقيض. تنقلت عبر تاريخه ومستقبله الذي يسير نحوه. إنه مليء بالثورات والانقسامات والحروب والقتل....."
- "وهل عالمنا مختلف عن ذلك؟!" قاطعته باستهزاء.
- "ليس بذلك السوء، أؤكد لك هذا..... والسبب أن هناك لحظة اختيار مفصلية، هي التي ستغير كل شيء وتحدد المسار القدري الذي يسير عليه العالَم بأسره، ولكي تنجح خطتي، لا بد وأن يبتعد العالمَان عن بعضهما، عند تلك اللحظة على وجه الخصوص....."
- "وما هي تلك اللحظة العجيبة التي بإمكانها أن تغير وجه العالم بأسره؟ هل سيأتي رئيس جديد لأمريكا يقود حرباً نووية على روسيا أو الصين؟!"
- "بل رجل بسيط.... بائع متجول في مدينة فقيرة بتونس اسمها سيدي بوزيد؛ سيقوم بحرق نفسه من القهر واليأس، وسيحرق معه العالم بأسره."
- "مراد، أنت تمزح أليس كذلك؟! لأنه لا يمكن أن تكون جاداً فيما تقوله، فالأمر برمته أقرب إلى الهذيان.... لا أصدق أني ما زلت

أستمع إليك وإلى هذه التخاريف!"

- "ليست تخاريف، وستثبت لك الأيام بأني على حق! العالمان الآن يسيران بشكل متوازٍ إلى حد كبير ما سَيُسَهل عملية التشابك بين نفسي ونفس قريني النقيض عبر جسده وفي عالمه هو. في اللحظة نفسها لا بد للعالمين أن ينفصلا عبر لحظة الاختيار القدرية تلك. أي لا بد أن يكون اختيار ذلك البائع المتجول في ذلك العالم مخالفاً لاختياره في هذا العالم، فتنقسم الأقدار، وكل عالم يسير وفق قدر مختلف عن الآخر. حينها فقط أضمن أنه عندما أعود بنفسي إلى جسدي، سأتمكن من جلب النفس الأخرى التي سأتشابك معها، وأجعلها تنفصل تماماً عن جسدها في ذلك العالم الآخر!"

- "مراد، أرجوك فكّر ملياً فيما تقوله قبل أن تفعل أي شيء قد نندم عليه جميعاً..... أنت تريد التلاعب بعالم بأكمله! تحركه وفق أهوائك الشخصية، وهذا أمر يكاد يكون من المستحيلات! وحتى لو افترضنا جدلاً أنه من الممكنات، فهل من الحكمة أن تقدم عليه؟!"

- "عندما وحّد جنكيز خان قبائل المغول بمساعدة جدك الكاهن تبتنكر، وغزا العالم، مخلفاً من ورائه مئات الألوف من القتلى، فهل كان ذلك من الحكمة؟! بل فعل ما فعل لأنه امتلك القدرة والاستطاعة ثم عزّزهما بالإرادة! نحن الخاصة يا فيرجينيا! أمثالنا هم من يحق لهم تحريك العالم وفق هواهم، وليس وفق هوى العامة الدهماء!..... هذه التجربة سأقوم بها، بك أو بغيرك، ولكني أنصحك بأن تكوني معي، وإلّا فسأعتبرك ضدي، وأظنك تعلمين جيداً ما الذي أنا قادر على فعله مع من يعاديني!"

- "تهدّدنـي؟!" سـألته بتحـدٍّ، وقـد حاولـت إخفـاء اضطرابهـا ممّـا سمعت.
- "بل أوضح لك الصورة." أجابها بعد أن رسم على وجهه ابتسامة لا تخلـو مـن الخبـث والمكـر، ثـم اقتـرب منها واضعـاً يده على خدها.....
- "انظري للأمر من وجهة نظر المكاسب والخسائر المحتملة..... إن قمتُ بهذه التجربة من دونك ونجحت، فستفقدين أنت كل شيء، لأن عصيانك لن يمر هكذا دون عقاب، ولذلك من الأفضل لك أن تكوني معي. أمّا إن فشـلت التجربة، فلن يَمسـك أنت أو أي شخص يعز عليك في هذا العالم أي مكروه، بل أنا الذي سوف أتضـرر إلـى الأبـد، وربما حتى قد أفنـى من الوجود..... أنا على ثقة من أن هذا الأمر يروق لك.... أليس كذلك؟"
- "مـاذا تريدننـي أن أفعـل؟" سـألته بهـدوء، وكأنهـا اقتنعـت، على الأخص بحجته الأخيرة.
- "في السـابع عشـر من ديسـمبر القادم، سيقوم بائع متجول بمدينة سـيدي بوزيد التونسـية، اسمه محمد البوعزيزي، بإضرام النار في نفسه أمام مقر الولاية انتقاماً لكرامته المهانة نتيجة صفعة يتلقاها مـن شـرطية أمـرت بمصـادرة عربة خضار يرتزق منهـا؛ فعله هذا سيكون بمنزلة الشرارة التي ستشعل نيران الثورات التي ستغير كل شيء. هذا ما سيحدث في عالم قريني النقيض، وما لا يجب أن يحدث في هذا العالم. فقُبيل تلك اللحظة سـأنفصل عن جسـدي مسـتخدماً الوسـكا هنا بمنزلي في الرياض، وأتشـابك مع جسـد قريني النقيض ونفسـه. أريد العودة إلى جسـدي في اللحظة التي يتباعـد فيهـا العالمان عبر لحظة اختيار البوعزيزي. دورك أنت أن

تمنعيه في هذا العالم من اختيار حرق نفسه. بُثّي فيه الأمل من جديد. أعرضي عليه المال، أو حتى وظيفة..... أعتقد أن مطعم مستشفى الساعدي في حاجة إلى نادل؛ أظن بأن هذا خيار جيد، فعلى الأقل نضمن بقاءه بعيداً عن تونس ومشاكلها."

- "أهذا كل شيء؟"
- "نعم فيرجينيا، هذا هو كل دورك في التجربة..... منع محمد البوعزيزي من إضرام النار في نفسه."

* * *

أيام قليلة ويأتي الموعد المنشود من شهر ديسمبر الجاري للعام 2010. شعر مراد بتناغم عجيب، لم يشعر به طيلة حياته، وكأن نسيج الحياة يؤيد ما سيفعله في ذلك اليوم! كأن حياته التي عاشها ما كانت إلّا تمهيداً لتلك اللحظة التي ستتّحد فيها نفسه مع نفس قرينه النقيض، لتنتج شيئاً لم يشهده الكون من قبل! أي مقدرة هذه التي سيتمكن منها وأي استطاعة؟! فإن كان بنفس واحدة استطاع صنع الأعاجيب، فما بال نفسين منصهرين في قالب واحد؟!

- "بالك مشغول هذه الأيام..... ما الحكاية؟" سألته سارة، وهي تجلس على الكرسي المقابل له بالمطعم الذي تواعدا عليه تلك الليلة، بشارع التحلية.
- "لا شيء ذا بال..... أخبريني، كيف حالك أنت؟ وكيف تسير استعدادات حفلة رأس السنة القادمة؟" أجابها، ناقلاً الحديث من التساؤل عن حاله إلى أخبار عالمها البسيط.
- "على أحسن ما يرام..... ستكون الحفلة هذه السنة شيئاً آخر لم تشهده الرياض من قبل! من هنا ورايح، كل حفلة عندنا ستأخذ طابع حقبة تاريخية ما؛ هذه المرة مثلاً ستكون فترة السبعينيات!

ما رأيك؟!"

- "يا إلهي..... يعني يجب عليّ أن أطلق سوالفي؟!" سألها مازحاً، فرمقته بتغنج مصطنع......
- "لو سمحت لا تستهزئ بأفكاري." أجابته، فضحكا سوياً.....
- "حقاً، ألا تعتقد أن مثل هذه الحفلات ذات الطابع الخاص أجمل بكثير من الحفلات التقليدية السابقة؟"
- "هي أمتع لا شك، ولو أني كنت أفضل ربما فترة العشرينيات..... عصر الجاز."
- "أبشر يا روحي..... سأجعل حفل العيد القادم يحمل طابع العشرينيات، أما حفل رأس السنة فقد تم الترتيب له، ومن الصعب التغيير الآن."
- "حياتي، أنا أمزح معك..... فكل ما يهمني في الحفل هو أنت وليس أي شيء آخر."
- "الله يخليك لي يا بعد عمري." أرسلت إليه قبلة في الهواء بعدما خجّلها بأجمل ما تعشقه فيه... رقته المعهودة معها.....
- "مراد، عندي طلب وأرجو أن توافقني عليه دون سؤال."
- "أنت تأمريني يا روحي."
- "ما عليك أمر حبيبي." ترددت قليلاً قبل أن تكمل.....
- "أريدك أن تجري لي..... عملية بسيطة في وجهي...."
- "عملية؟! حبيبتي، أنت لست في حاجة إلى أي عملية تجميل! الكمال ليس في حاجة لكي يكتمل!"
- "يا روح قلبي، أنا عارفة أني في نظرك أجمل امرأة في الدنيا... ولكن..... هي من أجلي أنا حقاً... أشعر بأن الزمن يداهمني، ولم أعد سارة التي تعرفتَ عليها منذ ثلاث عشرة سنة في تونس.

هل تذكر كيف تقابلنا أول مرة، أقصد من وجهة نظري أنا، وليس كما أخبرتني، في حياة مختلفة..... يا إلهي، إلى الآن وأنا لست مستوعبة ما قلته لي!"

- "سارة...."
- "مراد أرجوك...... لا تعارضني. إن كنت تحبني فعلاً، فلا تعارضني في هذا الأمر، أنا فعلاً في حاجة إليه..... أنا لست مثلك..... لا أمتلك قدرات عجيبة. كل ما لدي هو ما تراه، ولا أريد أن أفقده بسبب الزمن الذي يمر عليّ وعلى باقي البشر بخلاف ما يمر عليك أنت! على الأقل ليس الآن. أريدك بمشرطك البارع، وبيديك الماهرتين أن تعيدني كما كنت عندما رأيتني أول مرة..... ممكن؟"
- "سارة....."
- "مراد..... ممكن؟" لم تمنحه فرصة لكي يثنيها عمّا باتت مصرة عليه.
- "حاضر يا سارة..... حاضر. أنا تحت أمرك."

رضخ لطلبها، وقد أيقن بأن الكلام لن يفيد معها بعدما اتخذت القرار، خاصة أنه يعلم جيداً أن كل صديقاتها أصبحن دائمي الزيارة لعيادته وعيادة زملائه من جراحي التجميل، بغض النظر عن حاجتهن الفعلية لمثل هذه العمليات؛ فكلهن يبحثن عن شيء ما في مخيلتهن، لا يعلمه أي أحد سواهن، بل بات يظن أنهن أنفسهن لا يعلمن ما هو ذلك الشيء!

- "شكراً حياتي." أجابته بتغنج مصطنع، بعدما حصلت منه على ما تريد.

* * *

شـيء مـا لـم يكن علـى ما يرام في تلك الليلة..... شـعر بذلك مـراد، بعدمـا غادرت سـارة منزله الذي عـادا إليه بعد المطعم، لقضاء باقي السهرة. شعور غريب ذلك الذي انتابه، وكأن أحداً يراقبه. فجأة تذكـر حدثـاً قديمـاً هاله حينها، وأثار فضوله، ولكن سـرعان ما أهمله وأزاحـه عـن بالـه مـع توالي الأحداث: الثلاثة أنفـس التي رآها عندما انفصل عن جسده بُعَيد قتل فيرجينيا له بمنزلها..... وكأن تلك الذكرى حُجِبت عنه حتى الآن..... امرأة عجوز، ورجل يشبه عبدالرحمن أبو الحمايل، وآخر يشبهه هو في مثل عمره الآن! مَنْ كان هؤلاء؟ ولماذا لم يحاول فهم تلك الرؤية؟ والأهم من ذلك، أخذ يفكر، لماذا تذكرها الآن؟!

- "ما كنت أحسـب أني سـأراك على هذا الحال؟ كذَّبتُ حدسـي، عندما رأيتك أول مرة، وفاءً لجدك أحمد، وتلك كانت خطيئتي."

التفت مراد على الفور، بعدما أغلق باب منزله خلف سارة، إلى صاحب الصوت المألوف الذي ظهر فجأة من ورائه.....

- "أنت؟!" لم يحسب أنه سيراه ثانية..... فكم مضى من الوقت منذ لقائهما في تونس؟ أكثر من عقد!
- "كأنك شـعرت بوجودي قبل أن تراني، ومع ذلك تفاجأت." قال عبدالرحمن مقترباً من مراد، بوجه يشوبه شيء من الأسى.
- "كيف تجرؤ على اقتحام داري؟! وهل كنت تتجسس عليَّ؟!"
- "مثلي ليس في حاجة للتجسـس على مثلك، فكلانا ضمن نسـيج واحد؛ نسيج لا يوجد فيه أسوار، أو أبواب مصفدة لكي تُقتحم، أم أنك نسيت؟"
- "أعترف بأني أزحتك عن بالي منذ زمن.... لم أعمل لك حساباً، ولعـل هـذه هـي خطيئتي أنا! ماذا تريد مني يا عبدالرحمن؟ أرجو

أن يكون هناك سبب وجيه لهذه الزيارة غير المرحب بها."

- "لماذا تسأل سؤالاً أنت أعلم بإجابته؟ لا يليق هذا بشخص مثلك."

ضحك مراد بصوت مرتفع، وكأنه سمع طرفة أعجبته. اتجه نحو أريكة بالجوار فجلس عليها، قبل أن يجيب على الضيف الثقيل.....

- "شخص مثلي؟ هل تعلم حقاً من أنا، وماذا أصبحت؟ لو أنك تعلم، لما تجرأت على المجيء إليّ حتى تُهينني في داري، فتصفني بأني خطيئتك! ألم تشعر بنسيج الكون وهو يلتف حولي؟! ألا تشعر الآن بالقوة التي تنبعث مني؟!"
- "بلى، لقد شعرت." أجابه عبدالرحمن بكل هدوء.
- "وكل هذا لا يعد شيئاً مقارنة بما سأصبح عليه عمّا قريب! قوة لم يشهد الكون لها من مثيل، تتجسد فيها القدرة والاستطاعة، كما لم تتجسد في أي مخلوق من قبل، ولا حتى آصف بن برخيا، وحينها ستدرك أنت من هو العارف!"
- "استبدلت غضبك بالغرور والخيلاء، حتى بتَّ لا ترى طريق الهلاك الذي تسير فيه. لو أن الأمر يتعلق بك وحدك، لما تدخلت لكي أثنيك عن فعلك، ولكنه تجاوز ذاتك إلى ذوات الآخرين. ارجع يا مراد عمّا أنت بصدد فعله، وكفى بك هذا الحد. الطريق إلى المنتهى لا يمكن اختصاره أو اختزاله، وهو حتماً لا يمر عبر جثث الآخرين."
- "وما أدراك أنت؟! أم أنك صدقت الناس الذين نعتوك جهلاً بالعارف؟! لكلٍّ منّا مسلكه يا عبدالرحمن، لكلٍّ منّا مسلكه، أم أنك نسيت؟! اذهب إلى حال سبيلك أيها الرجل، واتركني وشأني إن أردت لنفسك النجاة..... أعدك بأنه لن يصيبك مني أي مكروه

إن ذهبت الآن ولم تعد، وهذا عرفان منّي على ما علّمْتَني إياه منذ سنين."

- "أحقاً تظن أنني قادر على تركك هكذا تعبث بمصائر الآخرين؟ لا والله، ما على هذا جُبلت."
- "حسناً.... إذن أنت الذي جنيت على نفسك أيها الأحمق!"

ما كاد مراد يفرغ من جملته حتى بادر بالانقضاض على عبدالرحمن الذي كان بدوره مستعداً لمثل هذا التصرف من خصمه..... ومضة قوية من النور ظهرت، أضاءت المنزل والحي بأكمله، كادت تسقط مراد على الأرض، ولكنه استطاع أن يتمالك نفسه، وحاول الإمساك بعبدالرحمن من جديد دون جدوى......

- "أنت أقوى ممّا حسبت.... يبدو وكأنك أخفيت بعض الأمور عنّي أيها الشيخ الماكر!" قال له مراد باستخفاف، وهو يحوم حوله في محاولة للإمساك به، ثم في لحظة مباغتة لم يتنبه إليها عبدالرحمن، ألقى في الهواء الساخن، من حرارة ومضات الضوء، حفنة من مسحوق داكن.....
- "ولكن مهما بلغت قدراتك، فهي لن تكون إلّا بمثابة قطرة في ظُلمات بحري العميق!"

سقط جسد عبدالرحمن على الأرض وكذلك مراد، بعد أن انفصلتا نفسهما. لوهلة شعر عبدالرحمن بالتيه، حتى تيقن ممّا حدث توّاً. كانت هذه اللحظة هي كل ما يحتاج إليها مراد من أجل الالتفاف بنفسه حول نفس غريمه، محيطاً إيّاه بما هو أشبه بالهلام الداكن.....

- "أشكرك على الحرارة التي وفَّرْتَها ومضاتك لمسحوق الوسكا.... هي بالفعل ما كنتُ في حاجة إليها."
- "النفس لا تموت، فلا تحاول....." بدأ عبدالرحمن بالرد عليه،

ولكن مراد لم يمهله فرصة لإتمام الحديث......

- "ولكن الجسد هو الذي يبلى، وجسدك الفارغ هو كل ما احتاج إليه!"

على الفور، استطاع مراد أن يتشابك مع جسده، ثم أمسك بقنينة فودكا نصف ممتلئة، من مخلفات سهرته مع سارة، فألقى بمحتواها على جسد عبدالرحمن، ثم أحدث شرارة من أنامله ليُشعل بها جسد الشيخ!

ظل مراد ينظر إلى جسد عبدالرحمن وهو يحترق أمامه، مدركاً أنه بذلك قد سلبه القدرة على العودة إليه من جديد، كما فعل هو أكثر من مرّة، ثم قال بلهجة روسية متماشية مع قنينة الفودكا التي في يده، بعد أن رسم على وجهه ابتسامة رضا لما قام به من إنجاز في مدة وجيزة.....

- "دو سفيدانيا"...... مع السلامة!

* * *

شعور جميل ذلك الذي ينتاب المرء، عندما يدرك أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من أن ينال ما كان يصبو إليه منذ سنوات طوال..... هل هي نشوة الانتصار؟ أم لذة الانتظار؟ أم شيء آخر تماماً يصعب وصفه، وإن كان على شاكلة إنسان؟ دقائق معدودات، كانت هي الحد الفاصل بين مراد قطز وذلك الأمر العظيم الذي سعى إليه منذ أن علم به..... قدرة ليس مثلها قدرة..... استطاعة لا يمنعها شيء...... وقوة لا يضاهيها سوى قوة هذا الكون! إنها المنتهى وما أدراك ما المنتهى؟!

كل شيء كان في موضعه..... فيرجينيا في مدينة سيدي بوزيد بتونس، وهو في منزله بالرياض. مسحوق الوسكا كان في غرفة النوم التي شهدت صولات وجولات سواءً مع ذلك المسحوق العجيب،

أو عشق حياته سارة القويت. هذا المكان هو ذاته الذي سوف يشهد الآن تحوله إلى ما لم يشهده الكون من قبل!

أشعل مسحوق الوسكا ثم وضع ذلك الوعاء المسمى بالجسد على السرير. لحظات، ثم شعر بنفسه تنطلق إلى الأفق الآخر من الوجود، حيث يتجلى معنى النسيج الكوني الذي يستطيع الانصهار فيه. رأى مراد قطز العالم الآخر، قرينه النقيض كما بات يسميه. المسكين طُرد من الجامعة التي كان يعمل فيها في جدة، بعد أن دبر له وجيه ذكري مؤامرة خسيسة لأنه تجرأ ورغب في الزواج من أخت زوجته! حياته كانت مليئة بالضعف والهوان. مثله لا يستحق الحياة..... "أنا أولى بنفسه منه، فبها سأصنع الأعاجيب!"

انتظر مراد، حتى اللحظة المناسبة التي حددها بالساعة والدقيقة والثانية وما هو دون ذلك. تلك اللحظة التي سيضرم البوعزيزي النار في جسده في ذلك العالم الآخر البائس، فيقوم هو قُبَيلها مباشرة بالتشابك مع جسد قرينه النقيض، ومن ثم التشابك مع نفسه، قبل أن يعود إلى عالمه عندما ينفصل العالمان نتيجة لما ستفعله فيرجينيا. الأمر محسوب بدقة متناهية، فلا مجال هناك للخطأ، ولكن..... شعر مراد بشيء غريب في أثناء تشابكه مع جسد قرينه النقيض..... الأمر لم يكن بتلك السهولة التي حسبها..... حاول على عجل التشابك مع النفس الأخرى، ولكنه لم يستطع. حاول مجدداً..... حاول مراراً...... الأمر لم يكن يسير كما حسب!

– "مستحيل! هو أضعف من أن يقاومني!"

العالمان يتباعدان..... كان عليه أن يتشابك الآن مع نفس قرينه النقيض، حتى يتمكن من العودة إلى جسده الملقى على السرير بمنزله في الرياض، قبل فوات الأوان..... تشابك النفس بجسدين، حتى

وإن كانا لقرينين، أمر شاق.... بل شاق جداً! الأصعب من ذلك هو التشابك مع جسدين ونفس أخرى! حاول مرة أخيرة بكل ما أوتي من قدرة واستطاعة، باذلاً كل ما تمتلكه نفسه من قوة وطاقة، ولكن دون جدوى..... كان عليه أن ينهي المحاولة الآن إن أراد لنفسه النجاة! وفي اللحظة التي فك فيها ارتباطه بجسد قرينه النقيض، حدث ما لم يكن في الحسبان! ومضة عظيمة لم يشهد لها من مثيل..... الجسد الذي كان متشابكاً به قبل قليل، تلاشى وكل شيء من حوله، وكأنه لم يكن. أخذ ينظر إلى العالم الآخر من حوله..... كل شيء كان ينصهر بسرعة متزايدة تكاد تقترب من سرعة الضوء! أدرك مراد قطز لحظتها ما كان يخشاه...... فيرجينيا كانت على حق!

عندما فك تشابكه بجسد مراد العالم الآخر، تمكن في تلك اللحظة من التقارب مع نفس قرينه النقيض، التي بدورها خفف ارتباطها مع جسدها، حتى كادا ينصهران مع بعضهما، وتلك كانت لحظة الانفجار العظيم! حاول الابتعاد عن تلك النفس الأخرى، هذه المرة، لكي ينجو بنفسه..... ولكن الارتباط كان في غاية القوة..... السالب والموجب أرادا التكامل مع بعضهما..... عالمه كان يبتعد أكثر، في أثناء ما كان عالم قرينه النقيض يتلاشى من الوجود! كان عليه أن يفك ارتباطه بالنفس الأخرى الآن..... الآن، وإلّا تلاشى هو مع ذلك العالم الآخر الذي لا يخصه....... الآن، وإلّا ضاع كل شيء!..... الآن، وإلّا.....

فجأة حدث ما كان يريده: انفك ارتباط النفسين، وكأن هذه المرة النفس الأخرى هي من قامت بذات المحاولة، ولكن كيف؟! لم يفهم مراد قطز ما الذي حدث...... لا بأس، فالمهم أن الترابط قد زال، وبإمكانه الآن العودة إلى جسده القائم في عالمه.....

- "تباً لهذه المحاولة البائسة!" شعر بمزيج عجيب من الغضب لفشل التجربة، وبالراحة لأنه استطاع الإفلات في اللحظة الأخيرة بعد أن كاد يفقد نفسه! ولكن سرعان ما انتابه شعور آخر طغى على كل ما كان يشعر به قبل قليل...... الخوف!
- "مستحيل! لا يمكن، مستحيل!!"صرخ مراد قطز وهو ينظر إلى نفس قرينه النقيض أثناء ما كانت تتشابك مع جسده، كما فعل هو مع جسدها قبل أن يتلاشى ذلك العالم الآخر! ليس هذا وحسب، ولكن ارتباطه بجسده لم يعد قائماً، وكأن النفس الأخرى طردته بعدما تشابكت هي! لم يعد مراد قطز قادراً على العودة.... لقد أصبح نفساً هائمة بلا جسد!

8

استيقظ مراد، مدركاً أخيراً حقيقة ما جرى له، ولعالمه الذي لم يعد له وجود من جرّاء فعلة مراد الآخر! ألهذا لم يكن قادراً إلّا على تذكر الفتات من ماضيه؟ ألأن عالمه بماضيه وحاضره ومستقبله قد تلاشى من الوجود؟! ولكن على الرغم من فاجعة ما رأى وما سمع، إلّا أنه لم يتعجب بالقدر الذي كان يتوقعه، وكأنه في قرارة نفسه كان على علم بما جرى، أو على أقل تقدير، كان شاعراً بهول ما حدث.....

- "أخذتَ مني كل شيء! كل شيء!" أخذ يصرخ مع نفسه، وكأنه يخاطب قرينه الذي لم يعد يراه....
- "هل حصلتَ على ما تريد أيها الوغد؟! أين أنت الآن؟! هل عدتَ إلى جسدك الذي كان لوهلة ملكي بعد فعلتك المقيتة؟! هل عدت إلى عشيقتك سارة؟! وإلى حياتك البلهاء؟!"

استمر في صراخه..... لم يجد شيئاً آخر يفعله في تلك اللحظة أكثر ملاءمة، وكأن الصراخ يطفئ قليلاً من النار التي كانت تحرقه! ثم فجأة توقف...... نظر حوله إلى ذات المكان الذي نام فيه على إثر عزف سابح العوّاد..... تنبه إلى أمر عجيب. المكان قد تغير، وسابح لم يعد موجوداً فيه. أشجار صغيرة يتذكرها قد كبرت، وأعشاب لم تكن موجودة قد نمت! كأن المدة التي مضت عليه وهو نائم لم تكن لحظات كما كان يشعر، بل سنوات طوال بقدر السنوات التي

رآها من حياة مراد الآخر. هل كان نائماً طيلة هذه المدة؟ وهل تركه سابح العواد نائماً هنا وذهب عنه؟! لوهلة ظن أن هذا هو بالفعل ما قـد حـدث، حتى نظر إلى ملابسـه التي لم تبـلَ، ولـم تظهر عليها آثار السنين...... حينها أدرك حقيقة ما قد جرى! لم يصدق.... ولكن.... ولكن هذا هو الذي حدث بالفعل، ولا يوجد له أي تفسير آخر! لقد انتقل بجسده الجديد عدداً من السنين إلى الأمام!

- "أنا قادم إليك أيها الوغد النجس! عاجلاً أم آجلاً، أنا قادم إليك، حتى وإن كنتُ لا أعلم متى!"

9

امتلأ سوق النخاسين في عاصمة الخلافة بأجود البضائع التي لم تشهد المدينة مثلها من قبل..... الجواري الحسان والفتيان المخصيون من جميع الأعراق ومختلف الأعمار، جلبوا من شتّى بقاع الأرض، شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، بفضل الحروب التي لم تخمد نيرانها على وجه البسيطة؛ ولكن تحفة الناظرين في هذا العام، كانوا المماليك الذين تم بيعهم من قبل دار الخلافة لعدم حاجة دار السلام إليهم. هؤلاء الفتيان البواسل المدربون على حمل السلاح منذ نعومة أظفارهم، شكّلوا عنصر جذب لأمراء الجيوش من كافة الممالك الإسلامية، من أجل إضافتهم إلى تعداد جنودهم، لكي يتمكنوا بهم من الاستقواء على خصومهم.

شعر خالد الورّاق بالاختناق وهو يسير في وسط بغداد بعد عودته من مراكش، متجهاً نحو دار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي، حاملاً معه الكتاب الذي جلبه له من المغرب الأقصى بعد رحلة دامت أكثر من عام من أجل جمع الكتب التي أُنقذت من محارق القشتاليين بالأندلس، بعد استيلائهم على مدنها الواحدة تلو الأخرى..... أسرع تاجر الكتب في خطواته حتى يتفادى مواكب أمراء الجيوش ومماليكهم المتعنتين، فآخر ما كان يتمناه أن يدخل في سجال مع أحد منهم، وهم الذين اشتهروا بقلة حديثهم وسرعة سلّ سيوفهم!

استمر خالد الورّاق على هذا النحو حتى وصل إلى قصر الوزير

بجانب باب الفردوس لدار الخلافة، حينها فقط أخذ يلتقط أنفاسه، بعدما تعرف عليه قائد الحرس ودعاه للدخول إلى قاعة الزُّوّار حيث ينتظر سيده.....

- "حمداً لله على سلامتك يا خالد..... اشتقنا إليك يا رجل." رحّب الوزير ابن العلقمي بضيفه، قبل أن يتلقف منه الكتاب الذي ظلّ ينتظره على أحر من الجمر.
- "حمداً لله على سلامتي يا أبا طالب أم على سلامة هذا الكتاب؟ لقد جعلتني أبحث عنه في جميع أنحاء مراكش حتى وجدته عند أحد أحفاد المؤلف الذي دُهِش عندما عرف أن وزير الخليفة المستعصم يبحث عن كتاب من كتب جده من أجل اقتنائه وليس حرقه كما فعل الموحدون قبل عشرات السنين في إشبيلية..... والله إني رأيت عينيه تفيضان بالدمع لأن رجلاً في مكانتك يتذكر جده القاضي ابن رشد، بعدما نسيه الناس، وهو الذي كان حديث القاصي والداني بالأندلس."
- "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال. " قرأ محمد بن العلقمي عنوان الكتاب الذي كان بين يديه متفحصاً إيّاه.
- "وكأني أحدُث نفسي!"ردّد خالد الوراق بعدما أيقن أن لهفة الوزير جعلته لا يتنبه إلى كلمة ممّا قالها قبل قليل......
- "لأتركك إذن مع صديقك الجديد حتى تتسامرا، وأذهب أنا إلى حال سبيلي."
- "ماذا؟ المعذرة يا خالد، ولكني بحثت عن هذا الكتاب منذ سنين ولم أجده حتى كدت أيأس. ظننت أن جميع نسخه قد أُحرِقت، وأن أثره قد ضاع."
- "يبدو وكأن الرجل استطاع أن يختلس معه بعض كتبه بعدما نُفي

إلى مراكش، وقد توارثها أبناؤه وأحفاده من بعد."

- "وهل كلفك اقتناؤه الكثير من الأموال؟ فلا أحسب أن ذويه سيفرطون في مثل هذا الكتاب النادر دون المبالغة في ثمنه."
- "بل بضعة دراهم يا أبا طالب، لتكفيهم مؤونة يومهم."
- "بضعة دراهم فقط ثمناً لهذا الكتاب؟!" تساءل الوزير دَهِشاً، غير مصدق ما سمع.
- "والله إن الحال الذي رأيتهم عليه أخبرني بأنهم لم يروا تلك الدراهم القليلة منذ زمن."
- "بَخَستهم يا خالد."
- "والله لست أنا من بخسهم يا أبا طالب، بل من ذَلّهم من بعد عزٍّ هو من بخسهم، ولكن ربك بالمرصاد، فقد زالت دولتهم في الأندلس بعدما هزمهم القشتاليون في معركة حصن العقاب، وها هم المرينيون في المغرب يطبقون على ما تبقى لهم هناك، وحتى أهالي إشبيلية الذين هللوا للموحدين وهم يحرقون كتب قاضيهم ابن رشد، ثم باركوا نفيه من المدينة، قد جارت عليهم الدنيا اليوم بعدما سقطت مدينتهم في يد القشتاليين فساموهم سوء العذاب."
- "ويحك يا رجل! إشبيلية سقطت؟! متى حدث هذا؟!" ذُهل الوزير ممّا سمع. دهشته أظهرت عدم معرفته بهذا الخبر الذي فاجأه.
- "حسبتُ أن الخبر قد وصلك يا أبا طالب..... لقد سمعتُ به وأنا في طريق العودة إلى بغداد."
- "قرطبة قبل عشرة أعوام، والآن إشبيلية! ماذا تبقى من مدن الأندلس؟ غرناطة فقط! وأين كان بنو الأحمر، أقوى أمراء الأندلس؟! ألم يسعفوا إخوتهم في إشبيلية؟!"
- "بل سمعت أنهم أرسلوا مدداً لملك قشتالة لكي يعينوه على

إسقاط إشبيلية، وفاء للعهد المبرم بينهما."

لوهلـة، ظـل محمـد بـن العلقمـي واجمـاً في حالة مـن الذهول لما سـمع، ثم فجأة قام من مجلسه وأمر خادمه بتحضير فرسه على عجل...... إن لم يكن قد سمع بهذا الأمر الجلل حتى الآن، فحتماً الخليفة المستعصم، لم يسمع به هو الآخر!

10

- "وما شأننا نحن بما يجري في الأندلس يا أبا طالب، بالله عليك." أجاب المستعصم وزيره محمد بن العلقمي الذي طلب لقاءه على عجل ليقطع عليه خلوته المعتادة في مثل هذا الوقت مع قيناته، لكي يخفف من وطأة الحكم ومهام الخلافة التي لحقت به منذ توليه إيّاها بعد وفاة والده المستنصر قبيل ستة أعوام.
- "ولكن يا مولاي ما حدث في الأندلس من سقوط أهم مدنها بيد القشتاليين حتماً سيرفع من همم باقي النصارى في بلاد الفرنجة وروميـة...... أخشى أن يؤدي هذا إلى حث باقي الملوك على إقامة حملة صليبية جديدة لغزو بلاد المسلمين في الشام، وربما حتى مصر، خاصة بعدما استرد سلطانُها، الملك الصالح نجم الدين أيوب، القدسَ التي تنازل عنها أبوه الملك الكامل ناصر الدين لصديقه ملك صقلية وإمبراطور رومية المقدسة، فريدريك الثاني. ما فعله الصالح نجم الدين أيوب ترك مرارة عظيمة عند ملوك الفرنجة وكبير كهنتهم في رومية، وحتماً لن يَدَعوها تمر هكذا دون رد." جاء رد ابن العلقمي بلهفة لم تقنع الخليفة الذي أصرّ على موقفه.
- "يا أبا طالب...... يا أبا طالب، لو كان ملوك الفرنجة ينْوون إقامة حملة صليبية ردّاً على ما قام به سلطان مصر لفعلوها منذ ذلك الحين، وها قد مضت سنوات عدة، ولم تقم لهم قائمة؛ بل إني

أرى أنهم صرفوا جهدهم إلى الأندلس بعدما يئسوا من الشام، ولعلّ في ذلك خيراً لنا. لقد سئمتْ شعوبنا من الحروب. آن الأوان لكي نستريح!"

- "ولكن ألا ترى يا مولاي كيف أن ملوك مصر والشام من بني أيوب يجلبون المماليك من جميع أصقاع الأرض، ليُقَوّوا بهم جيوشهم، حتى إن أمير مماليك الصالح نجم الدين أيوب، عز الدين أيبك، قد حضر بنفسه إلى بغداد من أجل شراء المماليك الذين سَرَّحهم مولاي الخليفة، أطال الله في عمره."

فهم المستعصم إلى ماذا كان يشير وزيره، حيث لم تكن هذه هي أول مرة يحدثه في ذلك الأمر الذي أثار حفيظته وحفيظة قائد جيوشه الدويدار الصغير......

- "والله يا أبا طالب، إني ما رأيتك، منذ أن عرفتك، تتفق مع الدويدار الصغير في أمر؛ بل كنتَ دائماً في الطرف النقيض. ماذا جرى لك يا رجل؟! هل بتَّ تثق في الأتراك، وتتخذ من آرائهم رأياً لك؟! هل نسيتَ ما فعلوه مع أجدادي من خلفاء بني العباس بدءاً بالمتوكل؟! لقد قتلوا البعض منهم، وسملوا أعين البعض الآخر، ناهيك عن جعل الخلافة مجرد شكل بلا مضمون، حتى أصبحنا ألعوبة في أيديهم؛ فيخلعون من يشاؤون خلعه، وينصبون من كان على هواهم، إلى أن جاء جدي الناصر وتمكن من استعادة هيبة الخلافة من جديد، مستعيناً بالقائد الكردي نور الدين زنكي وأتباعه من بني أيوب الذين يحكمون الآن مصر وأغلب ممالك الشام، وهؤلاء لا خوف منهم فهم مشغولون في التنازع فيما بينهم، ولذلك هم يقيمون الجيوش، بل ويتحالفون حتى مع ملوك الفرنجة ضدّ بعضهم."

- "كمـا فعـل ملـوك الأندلـس يا مـولاي، وانظر مـاذا آل إليه الحال هناك."
- "لا، لا يـا أبـا طالـب، شـتان مـا بين هـذا وذاك! فبلادنا هي قلب الإسـلام وفيهـا أهـم حواضـره، وكما أخبرتك من قبـل مراراً بأن الخوف علينا هنا في بغداد ليس من ملوك الفرنجة أو حتى خانات المغـول، بقـدر مـا هو من هـؤلاء الأتراك الذين يريدون اسـتعادة سـالف أمجادهم مثلما كان الحال في زمن السـلاجقة الملاعين. أنسيت كيف أنهم بالأمس القريب، في زمن جدي الناصر، حاولوا غزو بغداد وفشلوا؟ ثم أعادوا الكرّة من جديد لولا أن سخر الله لنـا المغـول لكي يقضـوا على دولتهم في خـوارزم، فكانت نهاية السـلطان التركـي الخوارزمـي علاء الدين محمد فـي جزيرة نائية ببحـر الخـزر، ونهاية ابنه جلال الدين منكبرتي في شـمال العراق علـى يـد حلفائنـا الأكراد، بعدما عاد من منفاه في الهند واسـتعاد جزءاً من سلطان أبيه قبل أن يكرّ عليه المغول من جديد ويسلبوه ملكه."
- "صـدق مـولاي أميـر المؤمنين فيما قال، ولكن أليس من الحكمة عدم الإفراط في الجيش العظيم الذي بناه جدكم الخليفة الناصر، والذي حرص على الإبقاء عليه والدكم الخليفة المسـتنصر؟ هل تبقى بغداد بلا جيش يحميها يا مولاي؟"
- "مثل هذه الجيوش يا أبا طالب تتطلب الكثير من الأموال، ولكي نحافظ عليها فلا بدّ من رفع الضرائب التي أثقلت كواهل العامة، بعـد أن خَفَّضتُهـا عندمـا توليـت أمر الخلافة من بعد أبي. أترغب فـي رفـع الضرائب من جديـد، لكي نصرفها على المماليك؟! أما يكفي ما يحصل عليه الدويدار الصغير ورجاله؟!"

لـم يرغـب محمـد بن العلقمي في الاسـتمرار في هذا الحديث، خاصّة بعد ملاحظة آثار الغضب وهي تنتاب الخليفة المستعصم الذي بدا في غاية الحلم معه حتى هذه اللحظة، وإن كان لكل حليم حد.....

- "أدام الله عز مولاي أمير المؤمنين، وأبقاه وذُرِّيَّته ذخراً للمسلمين، يستظلون بظلهم إلى يوم الدين." قبَّل الوزير يد الخليفة، ثم تركه ليكمل ما فاته من جلسات الوناسة مع جواريه الملاح، وعاد هو إلى داره من حيث جاء.

11

"أيـن ذهبـت الشـمس؟! ولماذا اختفت؟!" حـدث فلكي عارض أثـار حفيظـة أهالـي مدينة سـراي، عاصمة باتو بن جوشـي بن جنكيز خـان، وقبيلتـه الذهبيـة..... فهـل مـات رجل ذو شـأن؟ أم أن عظيماً قـد ولـد؟! أم سـتحل كارثـة على الأهالي من جـرّاء عصيان باتو خان المستمر لأولاد عمومته، وعلى رأسهم جميعاً الخان الأكبر للمغول، گـويوك بن أُگـوتاي بن جنكيز خان! لـم تمضِ سوى أيام قليلة حتى جـاء الخبـر الذي كان ينتظـره الأهالي، لتتأكد لهم ظنونهم حول تلك الظاهرة الفلكية التّي عدّوها نذيرة حدث عظيم.... لقد مات گـويوك خـان! مـات وهـو فـي طريقـه على رأس جيـش جرّار لتلقيـن باتو بن جوشـي درسـاً في الخضوع والطاعة! مرة أخرى اسـتطاع باتو خان أن ينتصر على أعدائه! ولكن هذه المرة كان الانتصار يفوق أي وصـف، حتـى "كسـفت الشـمس من أجله!" هكذا ظـنّ الأهالي...... لن يقف بعـد اليـوم أي أحـد أمـام باتـو خان، بل قد يصبح هـو الخان الأعظم للمغول إن أراد، على الرغم من كونه ابن جوشي المشكوك في نسبه، وعلى الرغم من كونه شـقيق "الملعونة" التّي لا يجرؤ أحد على نطق اسمها..... قاتلة الكاهن الأعظم تبتنكر!

* * *

نظـرت ياسـمي من شـرفة حجرتها بقصر أخيهـا باتو خان، نحو السماء الداكنة التّي ذهب نور شمسها في لحظات، وكأن ظلمة الليل

تسللت إليها على غفلة فسرقت زرقتها. لم تكن خائفة كباقي العوام في المدينة، بل مشدوهة بقدرة هذا الكون العظيم على الإبهار...... في مثل تلك اللحظات كانت تسترجع كل ما شاهدته على مدى سنوات حياتها الّتي زادت عن الأربعين، من عجائب هذا الكون البديع وغرائبه، وكل من قابلتهم، وعلى رأسهم جميعاً زوجها الذي كان ولم يعد، بعد أن ترك بذرته في داخلها، الّتي أصبحت بعد تسعة أشهر أجمل مخلوق في محيط حياتها. عشرون عاماً ونيّفاً قد مضت، دون أن تنسى شيئاً ممّا حدث، وكأن تفاصيل تلك اللحظات الغابرة قد حُفرت في عقلها، لتصبح جزءاً لا يتجزأ منه..... ولكن شيئاً ما كان على خلاف المعتاد في هذا اليوم، بجانب كسوف الشمس النادر. شعور عجيب لم تنسَه، وإن كان ذكراه قد مضى عليه زمن، انتابها من جديد؛ ولكن هذه المرة، كان أثره أقوى بكثير من ذي قبل..... لحظة دهشة عابرة، سرعان ما تحولت إلى سعادة جامحة، عندما أدركت أنه قد عاد من جديد، بعدما ظنّت أنها لن تراه بعد تلك الأيام الغريبة.......

- "أنت؟!" قالت بعدما التفتت خلفها، لتجده واقفاً أمامها دون أن تفهم كيف؟!.....
- "لقد عدتَ إلى جسدك..... هنيئاً لك ما كنت تصبو إليه."
- "بل جسد آخر صنعته دون أن أعرف كيف." أجابها مراد، مُقْبِلاً نحوها، راسماً على وجهه ابتسامة باهتة، لم تخفِ من ورائها حزناً عميقاً من أثر علم موجع تلقاه بعد عناء......
- " هل كنت تعلمين؟ أقصد ما جرى لعالمي على يد ذلك الآخر؟"
- "نعم، ولست وحدي من كان يعلم." أجابته واضعة كفها على ساعده.

- "عبدالرحمن..... أم الوفا....."
- "وحيدر الكاشف." أضافت ياسمي.....
- "جميعهم كانوا يعلمون، ولكنهم آثروا أن تكتشف الحقيقة بنفسك، عندما يحين أوانها.... ولكن.... " صمتت قليلاً قبل أن تكمل العبارة......
- "ولكن لا أحد كان يتوقع أنك ستتجسد من جديد..... جميعهم ظنوا....."
- "أنني قد انتهيت؟!" أكمل لها مراد ما كانت تريد قوله ولم تفعل......
- "ولكنكِ لم تُبدِ دهشة لرؤيتي، بل لم تشكي حتى في شخصي، وكأنك على يقين أنني لست هو."
- "صحيح ما تقوله، وهذا لأني لم أفقد الأمل قط، حتى في أحلك الظروف. شيء ما في داخلي حينها، أخبرني بأنك ستجد مرادك ولو بعد حين."
- "مرادي لن يتحقق حتى أعود إلى زمني، وأقضي عليه، ذلك الوغد الخسيس! بيني وبينه ثمانية قرون، ولا صبر لي على الانتظار! نعم صنعت لنفسي جسداً، ونعم تنقلت عبر الزمان والمكان، ولكن دون أن أعرف كيف، وكأني ما زلت شاهداً على الأحداث ولست صانعاً لها..... لا يا ياسمي، فمرادي لم يتحقق بعد، وفي المعرفة الخلاص."
- "ولكن يبدو لي كأنك أصبحت تعرف أموراً أخرى كثيرة، وكأنك تعلمت ما لم تكن تعلمه."
- "نعم، لقد أصبحت أعلم كل ما يعلمه هو، دون أن أفهم كيف ولماذا حدث ذلك؟"

- "إذن حلقتك لم تكتمل بعد..... لا بد لها أن تكتمل." ردّدت العبارة نفسها الّتي سمعتها منذ سنين.
- "حيدر الكاشف..... ترددين ما قاله ذلك المعتوه."
- "لم يكن معتوهاً، بل كان على دراية بمجريات الأمور، ولكنه لم يتحمل وزر معرفته. إدراك الحقيقة ليس بالأمر السهل، وأنتَ خير من يعرف ذلك."

صمت مراد، متأملاً ما قالته ياسمي. اقترب من النافذة التي كانت تطالع من خلالها نحو السماء وقد أخذت تستعيد نورها وزرقتها بعد أن حجبهما كسوف الشمس..... ما من شيء يدوم، حتى سواد الليل وإن سلب النهارَ ضياءه على حين غفلة، وكأن حياته تمثلت في هذا الحدث العارض.....

- "هل تعلمين أن عبدالرحمن لا يختلف عنّي كثيراً. هو أيضاً من ذات الزمان، ووقع ضحية الشخص نفسه..... مراد الآخر، وتجسد مثلي في زمن غير زمنه. كنت أحسبه مختلفاً عنّي كل الاختلاف، وإذ بي أكتشف أن الكثير يجمعنا. كنت إلى وقت قريب ألومه على كتمانه، وقلة حديثه، ولكنّي أدركت أنه غير ملوم على ما فعل، فما الذي كان يدريه بأنني لستُ مثل قريني.... بأنني لن أخونه كما خانه بعدما علّمه..... هل تظنين أن عبدالرحمن هو الآخر كان يسعى لإكمال حلقته؟ بأنّ كل ما فعله كان لذلك الغرض؟"
- "بل أنا على يقين من ذلك. لذلك لم ألمه عندما....." صمتت قليلاً قبل أن تكمل، حابسة أكثر من دمعة أرادت أن تختلس طريقها إلى وجنتيها.....
- "عندما باع محمود لتجار الرقيق."

- "ألـم تحاولـي البحـث عنـه، خاصـة أنـك قـد عدت إلـى أهلك، وبإمكانك أن تطلبي منهم أن يجدوه لك؟"
- "لا، لم أفعل، ولن أفعل..... لأن حلقته لم تكتمل بعد."
- "ولكـن الأقـدار يا ياسـمي ليسـت محتومـة، فنحن مـن نختارها، وليست هي من تختارنا."
- "نعـم، نحـن الذيـن نختـار أقدارنـا، ولكننا لا نملـك اختيار أقدار الآخرين...... قليل من الشر.... نعم، قليل من الشر يا مراد، قد يغني عن الكثير منه."
- "لطالمـا أحببـت فيـكِ قـوة إرادتك..... ليتني كنـت مثلكِ، ولكن يبدو وكأنني لم أرث منكِ هذا الأمر."
- "تـرث منـي؟!" تسـاءلت باسـتعجاب، حيـث لم تفهـم القصد من عبارته الأخيرة.
- "لا عليك، فهذا أمر يطول شرحه..... أخبريني، كيف حال ابنك؟ وماذا سميتِه؟ فالتاريخ مع الأسف لم يذكر لنا تلك التفاصيل."
- "ومن قال لك إني أنجبتُ ذكراً؟ بل فتاة جميلة، وعنيدة مثل أبيها، سميتها نوران على اسم جدتها."
- "فتـاة؟" تعجـب مراد، فلم يكـن هذا ما توقعه، فالفتيات لا يُوَرِّثن لقب عائلتهن لنسـلهن، ومحمود بن ممدود الذي أصبح قُطُز لم يَرِد أنه أنجب من أي امرأة أخرى، بل لم يرد حتى أنه تزوج من ياسـمي، وما كان لمراد أن يعلم بالأمر، لولا أنه شـاهد الحدث بنفسه...... فكيف إذن تواصل النسل؟!
- "أخبريني، هل أنجبت نوران طفلاً سمّته على اسم أبيها..... قُطُز؟"
- "نـوران أرملـت ثـلاث مـرات، ولـم تنجـب مـن أيٍّ منهـم، حتى انتشـرت عنهـا الشـائعة نفسـها التـي انتشـرت عنّي فـي وقت من

الأوقـات: لعنـة تبتنكـر قد حلَّت عليها...... كأن العوام ينسـجون الخرافات بأيديهم من أجل أن يصدقوها؛ ولكن ما سر اهتمامك بمثل هذا الأمر؟"

- "عجيب....." أخذ مراد يردد مع نفسه دون أن يلتفت إلى سؤال ياسمي له......
- "إذن كيـف تحققـت السُـلالة؟ هل أنجب من امـرأة أخرى؟" أمراً وجده محيراً، خاصة أن مراد الآخر عندما ظهر له في خيمة تبتنكر بعدمـا قتلتـه ياسـمي، أخبره بأنهـا جدته، فهل كان يكذب عليه أم أنه حسب الأمر خطأً؟
- "سـأبحث عـن قُطُـز..... هذا مـا يجب عليّ فعلـه حتى أفهم من أكون، فهل سـتأتين معي؟!" سـألها وقد امتلأ بالحماس، إذ شـعر بأنه وجد طريقاً جديداً يجب السير فيه، ولكن هذه المرة باختياره، لا باختيار غيره.
- "مـراد..... مكانـي هـو هنـا في سـراي، بجوار أخـي باتو، وأخي بركـه. لـم يعـد طريقـي هو طريقه، على الرغـم من كل ما أكنّ له من حب، ولكن هذه هي الحقيقة التي تقبلتها منذ زمن عندما كُنّا على مشارف أترار. ابحث أنت عنه، لعلّ هذا هو طريقك، ولكن لديّ طلب، أرجو أن تلبيه."

بقدر ما لم يكن يتمنى أن يسمع تلك الإجابة منها، إلّا أنّه كان مدركاً في قرارة نفسه أنّ ما قالته هو الحق الذي يجب أن يتقبله..... مصيـر محمـود بن ممدود بعدمـا أصبح قُطُز لم يعد مرهوناً بمصيرها هي......

- "اطلبي منّي أي شيء، وأنا رهن أمرك."

نظرت ياسمي إليه بعينيها السوداوين، وبنظرة امتلأت بمزيج من

الإصرار والترجّي قالت:

- "أريدك أن تصطحب نوران معك. "

فوجئ مراد من هذا الطلب.... آخر ما كان يتوقعه منها.....

- "ولكن....."

لم تمهله ياسمي فرصة للاعتراض، فسارعت.....

- "لم يعد لها مكان هنا. إن بقيت ستظل نظرة الكل إليها بأنها الخوارزمية الّتي حلَّت عليها لعنة تبتنكر، كما حلَّت على أمها من قبل..... خذها يا مراد لكي ترى أباها، ولكي يراها قبل أن....."

لم تستطع إكمال الجملة، ولكن مراد أدرك قصدها...... أدرك ما لم يستطع لسانها النطق به.

- "وهل هذا ما تريده هي؟" تساءل وإن كان يعلم الإجابة مسبقاً، فلن تكون البنت إلّا مثل أمها، خاصة عندما تكون الأم هي ياسمي.

- "نعم، هو ما أريده." جاءته الإجابة من خلف ستار يفصل ردهة عن الحجرة، أزاحته فتاة مليحة في منتصف عقدها الثالث، تقدَّمت نحوه بإصرار طالما رآه في عيني ياسمي منذ أن عرفها. علم مراد على الفور من تكون هذه الفتاة القادمة نحوه بخطوات ثابتة. لم تفضحها فقط ملامحها الّتي لم تبتعد كثيراً عن ملامح أمها، ولكن حتى رعونتها التي ورثتها عن أبيها......

- "انتظرناك طويلاً، حتى كدتُ أفقد الأمل، على الرغم من يقين أمي الذي لم أرَه يتزعزع قط بقدومك."

استغرب مراد من جملة نوران الأخيرة، فنظر على الفور إلى ياسمي وقد بادرته بابتسامة وهي تقول له:

- "لقد أخبرتها عن كل شيء، بما فيه أنت."

- "أهي أيضاً....." بدأ مراد بالسؤال، ولكن ياسمي قاطعته قبل أن

يكمل......

- "لا، هـي ليسـت مـن أهـل الكشـف. لـم تـرث عنّـي هـذا الأمر، ولكنها ورثت شجاعة آبيها، وقوته، وعناده أيضاً." قالت محتضنة ابنتها التي تفوقها طولاً، وإن كانت ملامحها الأخّاذة ذات البريق الواضح تدل على أن هذه الثمرة وقعت من تلك الشجرة......
- "لقد تعلمتْ من عمها بركه الفروسية وفنون القتال، وهو تعلم منها مبادئ دينها ودين آبائها، الإسلام."
- "وكلانا خرجنا رابحين." قاطعت نوران مرة أخرى، رغبة منها في أخذ ذمام الحديث......
- "لو كان الأمر بيدي لما انتظرتك، فأنا قادرة على البحث عن أبي بمفردي، ولستُ في حاجة لأحد لكي يصطحبني معه، ولكن أمّي أصرّت، وطاعة الأم واجبة."

حتماً هي ابنة محمود بن ممدود..... لم يكن لدى مراد أي شك!

- "مـاذا تقـول فـي طلبـي؟ هل تلبيـه؟" نظرت إليه ياسـمي نظرة لم يستطع ردها، وكأنها تستجديه من أجل ابنتها......
- "دون شك..... الأمر كما تشائين." أجابها، ثم قبل أن تبادر نوران بمقاطعته، أضاف.....
- "وكما تشاء نوران بنت محمود بن ممدود!"

12

تعمد عز الدين أيبك أن يظهر في موكب لم يُشهد له مثيل، في أثناء مروره بدمشق وهو في طريق عودته من بغداد إلى مصر، بعد رحلة موفقة من أجل زيادة عدد فرسانه من المماليك، يضاهي بها أقطاي ومماليكه البحرية. أراد أن يظهر أمام الجميع، من دمشق وحتى مصر، أنه أمير الجيوش الأقوى في النواحي، وأن لا أحد يفوقه مكانة بعد السلطان.....

آثر أن يدخل دمشق دخول الفاتحين، خاصة أنها المرة الأولى منذ أن هزم جيشه جيش الصالح إسماعيل الأيوبي، الذي كان إلى وقت قريب يحكم المدينة وما حولها. صراعات بني أيوب كانت لا تنتهي، خاصة بعدما استقل كل واحد منهم بإمارته، ليحولها إلى مملكته الخاصة؛ وجميعهم كانوا يستقوون بفرسان من المماليك الأشاوس الذين نشؤوا منذ نعومة أظفارهم على القتال وفنونه. من كان له العدد الأكبر والأمهر، كان هو الغالب في الحروب، ولم يكن أحد لديه مثل ما لدى الملك الصالح نجم الدين أيوب، سلطان مصر، من أعظم الفرسان المماليك، مثل فارس الدين أقطاي، أمير المماليك البحرية، وساعده الأيمن بيبرس البندقداري؛ وعلى رأسهم جميعاً، أمير المماليك الصالحية، عز الدين أيبك الصالحي التركماني!

* * *

الجميع حاول مخاطبة وده، فور دخوله من بوابة دمشق على

رأس موكبـه الحافـل؛ فمـا من كبير إلّا وكان يدرك قدره العظيم الذي جعل منه الرجل الثاني، بعد سلطان مصر. لم تكن شهرته تكمن فقط في قوته ورباطة جأشه، ولكن حتى في كرم عطائه، خاصة عندما يجد مراده، والكل كان يعلم عمّا يبحث عنه الأمير أيبك......

- "لا شيء يسر يا أبا علي...... جميعهم كبار، ولا تبدو عليهم الهمة المرجوة." جاء معاونه بلبان بخبر لم يكن يرغب في سماعه، بعد يوم واحد فقط من نزوله دمشق.
- "هل أنت واثق مما تقوله يا بلبان؟ بحثت جيداً؟"
- "دون شك يا أبا علي..... لقد أخذ الصالح إسماعيل معه جميع مماليكه الأقوياء، ولم يبقَ هنا في دمشق سوى من لا رجاء فيهم."
- "حسناً، فلتعدوا الرحال إذن، حتى نتحرك صباح الغد إلى مصر." أمـر عـز الديـن أيبـك معاونه بلبان، حيث لم يعـد راغباً في البقاء بدمشق، خاصة أنه لم يجد طلبه.
- "ولـمَ العجلـة أيهـا الأمير؟ ألم تجـد راحتك هنا في قصري؟ هل قصّرنا معك في شيء؟" سارع الوالي في السؤال والترجي، فآخر ما كان يتمناه أن تنتشـر شـائعة بأن والي دمشـق قد قصّر في حق أمير المماليك الصالحية، وأتابك الجيش، عز الدين أيبك!
- "لم نجد سـوى حسـن الضيافة يا أبا عبدالله، ولكن جئنا من أجل غاية ولم تتحقق، فلم يعد للبقاء من معنى." قال أيبك في محاولة منه للتخفيف من هلع الوالي.
- "خـذ مـن مماليكـي مـن تشـاء..... والله إنه لشـرف لـي ولهم أن يخدموك."
- "لو كنت أبحث عن الخدم يا أبا عبدالله، لما ذهبتُ إلى بغداد ثم أتيت إلى هنا بنفسي."

- "المعذرة يا مولاي الأمير، لم أقصدها بهذا المعنى......."
- "لا عليك يا أبا عبدالله، لا عليك." خفَّف مرة أخرى من هلع الوالي بعد تلعثمه في الحديث، مشفقاً عليه من الريبة والتَّوَجُّس......
- "المملوك الواعد أيها الوالي يُشترى عبداً ولكنه ينشأ فارساً مغواراً يسابق الريح بجواده، ويقطع الأعناق بسيفه البتّار. يأكل من أفضل الطعام، ويلبس أفضل اللباس، ويسكن أفضل الديار. لا يبخل عليه سلطان البلاد في شيء، حتى والله إنه يُعامل كولد من أولاده، فينشأ وهو على أتم الاستعداد لكي يبذل نفسه في سبيل إرضاء مليكه، وإرضاء أميره ومعلمه. لذلك ليس كل عبد مؤهلاً لكي يكون مملوكاً تحت إمرتي، في جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب."
- "بالتأكيد، بالتأكيد أيها الأمير الفارس المغوار، والقائد المُلهم المُحنك..... دون شك!"

13

خلع الوالي أبو عبدالله ملابسه، فألقى بها على الأرض غاضباً، ثم دخل بجسمه السمين إلى بركة الماء الدافئ التي أُعدت من قبل جواريه، بعدما طَيَّبْنها بأوراق الورود من جبل قاسيون المطل على دمشق، وقطرات ماء الزهر المجلوب من الهند.....

- "أي زمن هذا الذي نحياه؟! أي زمن هذا؟!" صرخ في وجه المحظية من بين جواريه التي وقع عليها الاختيار لكي تشاركه ما تبقى من ليلته، في البركة وفي الفراش.
- "من ذا الذي تجرأ وأزعج مولاي الوالي، لكي أريك فيه؟!" قالت الجارية الحسناء وهي تمد يدها نحو صدر مالك أيمانها، حتى ترفع عنه غضبه وتخفف من هموم يومه.
- "والله يا جُلنار إني أشعر وكأن الساعة قد حان أوانها، فماذا تبقى بعد الآن ولم نرَه؟! أي زمن هذا الذي يجعل من العبيد أسياداً على الأحرار؟! أنا أبو عبدالله سعد بن خالد المُضري، أقف ذليلاً مترجياً أمام عبد مملوك مثل أبيك؟! أبيك الذي اشتراه الصالح نجم الدين أيوب من سوق النخّاسين!!"
- "ما عاش وما كان الذي يقف أمامه مولاي وتاج رأسي ذليلاً..... أنت الذي يترجاه جميع أهالي دمشق، ولستَ ممّن يترجون الناس."

قَبّلته في صدره، قبل أن تضع عليه رأسها، وهي تلف ذراعيها

حول خصره الممتلئ.

- "يظن ذلك العبد النجس أنه لا يوجد في دمشق من هو كفء لأن يكون في جيشه من العبيد! ثم يتحدث عن هؤلاء العبيد وكيف ينشؤون كأبناء الأسر الكريمة! يا للوقاحة! أي زمن هذا بالله عليك يا جلنار الذي نحياه؟! والمصيبة يا زهرتي أنه يتعمد التقليل من شأني، بمغادرته غداً، بعد أن لبث يومين فقط في دمشق! ماذا سيقول الملك الصالح؟! ماذا سيقول أعيان المدينة؟! الوالي لا يستحق أن يبيت في قصره ذلك الملعون سوى يومين فقط!"
- "هَوِّن عليك يا تاج رأسي، فزهرتك لا تحب أن تراك على هذا الحال...... الموت عندي والله أهون من هذا!" أجابته بتغنج مصطنع، فأخذت تدلك له ظهره بأناملها الدقيقة الملساء، ثم واصلت حديثها.....
- "ولكن عندي لك الحل يا مولاي، الذي تستطيع من خلاله صيد أكثر من عصفورين برمية واحدة."
- "وما عساه أن يكون ذلك الحل السحري؟!" سألها الوالي، غير مقتنع بأنها ستأتيه بما عجزت عنه حاشيته.
- "مسابقة في الفروسية والمبارزة يا مولاي، تقام غداً وعلى مدار أيام عدة تراها مناسبة، وتدعو جميع من يرغب في المشاركة من فرسان دمشق وفرسان أيبك. إن رفض أيبك الدعوة بحجة سفره، تستطيع حينها أن تنشر بين الناس أنه غادر مبكراً خوفاً من افتضاح أمر فرسانه أمام فرسانك يا مولاي، وإن لبّى الدعوة، فخير وبركة، إذ يعني هذا أنه لن يغادر غداً، وسيمكث بضعة أيام أخرى، فلا يُحرج مولاي بمغادرته المبكرة."

صمت الوالي متأملاً ما اقترحته عليه جاريته...... وجده حلاً

وجيهاً، وإن كانت هناك معضلة بسيطة أرَّقته......

- "ولكن ماذا لو تغلب فرسانه على فرساني؟! قد تكسر هذه هيبتي أمام العامة والأعيان."
- "على العكس من ذلك يا مولاي...... إن خسر فرسانك، معاذ الله أن يحدث هذا، تنشر حينها بين الأهالي أنك أصدرت الأوامر لهم بأن يتعمدوا الخسارة من باب إكرام الضيف، وإن حدث وفازوا، وحتماً يا مولاي العظيم هذا ما سوف يحدث، فحينها سيلقن ذلك المغرور درساً قاسياً لن ينساه، فيدرك أن فرسانك لا يقلُّون عن فرسانه شيئاً، بل هم الأفضل!"

أمسك الوالي برأس جاريته الهيفاء من وجنتيها، ثم قبَّل شفتيها المكتنزتين.......

- "يا لك من جارية داهية! والله إنك لأتيت بما عجز عنه الرجال!"

قام الوالي من مغطسه على عجل، ثم ركض عارياً نحو الباب، وقد نسي من لهفته ارتداء ملابسه. أخذ ينادي خادمه مسعود الذي كان ينتظره بالخارج......

فتح الخادم الباب، ليلبي أوامر سيده، فهاله ما رأى!...... نظر في الأرض من الحرج، دون أن يبالي الوالي.....

- "اذهب على الفور إلى الحاجب، وقل له إن يأخذ ما يحتاج إليه من الرجال ويذهب إلى ديار حاشيتي ليجلبهم على الفور دون أدنى تأخير، حتى ولو اضطر إلى أن ينزعهم من على فراشهم!"

لم يكن هناك الكثير من الوقت..... حيث أراد الوالي أن يتم كل شيء قبل بزوغ النهار..... قبل أن يغادر عزالدين أيبك إلى مصر.

14

لـم تبلغ شـمس دمشـق الـزوال، حتى أصبحـت حديث الأهالي تلك المسابقة العظيمة خارج أسوار المدينة، الّتي تم الإعداد لها بين عشـية وضحاها، والتي سـيتبارز فيها أعظم فرسـان دمشق ومصر، من أجل نيل الجائزة الكبرى التي وعد بها الوالي: سيف دمشقي نادر، لا يوجد مثيل له في جميع أصقاع الأرض، هو أفضل وآخر ما صنعه عز الدين السيوفي قبل أن يموت!

كانـت جائـزة ثمينـة كفيلـة بأن تُبقي عز الدين أيبك في دمشـق، من أجل أن ينالها أحد مماليكه، ولكي يبرهن للدمشقيين وللوالي قوة وبأس فرسانه الأشاوس الذين لم يهزموا في معركة قط، وبالتأكيد لن يهزموا في مبارزة كهذه مع من هم دونهم شأناً.

نُصبـت الخيـام الفاخـرة حـول سـاحة المبـارزة من أجـل أعيان المدينـة، بجـوار خيمـة الوالي وضيفه الأمير عز الدين أيبك، و افترش العوام جانباً من المكان، بعيداً عن خيم الأعيان. الكل أراد أن يشاهد ذلك السـجال العظيم بين أفضل الفرسـان، بل أخذ بعض الحاضرين كلٌ يراهن على فارسه المفضل، حتى تجاوزت قيمة المراهنة الواحدة المئة دينار في بعض الأحيان، ما شكّل مصدراً للثراء السريع لقلة من الناس، وإن كان ذلك على حساب الآخرين.

انتقلت الأسـواق مع أهالي المدينة من داخل أسـوار دمشـق إلى خارجهـا، فـي هـذه الأجواء الاحتفالية العظيمـة، ولأول مرة أصبحت

الأزقة والطرقات شبه خالية من المارة، بعد أن كانت دائماً مكتظة بالناس، حتى أصبحت مدينة دمشق في ساعات النهار لا تحوي إلّا على من لم يستطع الذهاب من أجل مرض أو عرض أصابه، وبعض الجواري والعبيد الذين لم يُسمح لهم بالذهاب إلى ساحة المسابقة من أجل رعاية المنازل الخاوية من سادتها حتى يعودوا في المساء.

* * *

- "محمود.... محمود..... لقد شاهدت الفارس قلاوون وهو يقفز بفرسه من على الحاجز ويسدد سهمه في قلب الشاة!" جرت الصبية نحو مملوك سيدها الذي لم يحضر المسابقة. أرادت أن تحكي له كل ما شاهدته مع أمها، في صحبة سيدها موسى بن غانم وزوجته وأبنائه.
- "دعي محمود وشأنه يا عائشة.... لا تزعجيه بقصصك الآن." نهرت عاتكة ابنتها الصغيرة الّتي رمت نفسها بين ذراعي المملوك، فرفعها في السماء دون أن تتوقف عن رواية كل ما شاهدته في ذلك اليوم الحافل، من أعاجيب الفرسان!
- "دعيها يا عاتكة.... هي تعلم أنّي لا أملّ أبداً من سماعها."
- "كما تحب، ولكن لا تلمني إن لم تجعلك تنام الليلة من ثرثرتها." هزّت عاتكة رأسها، ثم انصرفت لقضاء حاجتها، تاركة ابنتها ذات السبعة أعوام مع المملوك الذي كان رفيق زوجها في يوم من الأيام عندما جاهدا الصليبيين تحت إمرة غانم المقدسي، والد مخدومها، وشاهد استشهاده، وحمل وصيته إليها بعد أيام من ولادتها لابنتها.
- "هيا اخبريني يا عائشة، من فارسك المفضل حتى الآن؟"
- "أنت طبعاً يا محمود!" أجابته الفتاة بعفوية أضحكته.

- "أنا أتحدث عن المشاركين في المسابقة؛ ثم إنّي لم أعد فارساً منذ زمن بعيد."
- "ولكنك لو شاركت، لغلبتهم جميعاً، بمن فيهم قَلاوون، أليس كذلك؟!"
- "لا أعلم من هو قَلاوون الذي تتحدثين عنه، ولكن يبدو لي، من حديثك عنه، أنه فارس عظيم. هل تعتقدين أنه من سيربح المسابقة؟"
- "قلاوون فارسي المفضل بعدك أنت!"

ضحك محمود لما قالته عائشة، فاحتضنها بقوة. براءتها كانت الشيء الوحيد الذي جعله يتحمل عيشته التي كانت تزداد سوءاً سنة بعد سنة منذ أن توفي سيده السابق، المجاهد غانم المقدسي، وورثه من بعده ابنه الفقيه موسى، فتحول من مملوك مقاتل يجاهد الصليبيين، إلى عبد ذليل يخدم في دار سيده الجديد، مثله كمثل باقي عبيد وجواري المدينة الذين جلبهم النخاسون من جميع أنحاء المعمورة!

* * *

- "إنهم والله كالجن! علمتُ الآن لماذا لم يستطع جيش الصالح إسماعيل الصمود أمامهم...... ومن ذا الذي بمقدوره الصمود أمام هؤلاء؟! حسرتي على فرساننا الذين بدوا أمامهم في المسابقة أشبه بالصبيان! وأسفي على الوالي الذي بدا على وجهه الاستياء في أثناء ما كان يرى فرسانه ينهزمون الواحد تلو الآخر أمام مماليك عز الدين أيبك!" قال ابن الزعيم الفرّاش، بعدما أخذ رشفة من كوب اللبن الذي أحضرته الخادمة، مخاطباً صديقه صاحب الدار.
- "كأنك تبالغ بعض الشيء..... حتماً الوالي أمر فرسانه بالسماح

لهـؤلاء أن يفـوزوا، مـن بـاب إكرام الضيف، وفـي نهاية المطاف جميعهـم يخضعـون لسـلطان الملـك الصالـح نجـم الدين أيوب بمصـر." أجابـه موسـى بـن غانـم، مدافعـاً عن ولي أمـره الجديد الذي وضعه سلطان مصر على دمشق بعد هزيمة الصالح إسماعيل الأيوبي.

- "هـل حقـاً تؤمـن بهـذا الهـراء الـذي تقولـه؟! الوالي أمر فرسـانه بالهزيمـة أمـام المماليـك الصالحيـة؟! يا رجل! يـا رجل!! قل لي كلاماً يدخل العقل!"

لم يرغب موسى بن غانم في الاستمرار في هذا الحديث، واكتفى فقـط بهـزة رأس ورفعـة حاجبين تنمّان عن اسـتهزائه بما قيل، قبل أن يتناول بعض العنب الذي جلبه الخادم إلى المجلس.

- "أبوك لو كان حيّاً لهزمهم جميعاً..... رحمة الله عليه كان فارساً عظيماً يرتعد الجميع لسماع اسمه، لم يهزمه سوى المرض."
- "لعله كان كذلك."

تعجب ابن الزعيم من هذا التعليق البارد على ما قاله، وكأن في النفس شيئاً لم يفصح عنه اللسان......

- "كل ميسر لما خلق له يا صديقي، وأنت خلقت من أجل العلم، هذا ما رآه فيك أبوك......"
- "وذلك العبد المغولي الذي كان أبي دائماً يصطحبه معه، هو الذي خُلق من أجل الفروسية والجهاد؟!" قاطع موسى ضيفه ابن الزعيم الفرّاش بحدة جعلته يتراجع قليلاً في موضعه من الدهشة.
- "من تقصد؟..... محمود؟"
- "قُطُز! اسـمه قطز، وليس محموداً! محمود هذا اسـم اخترعه كما اخترع تلك القصة البلهاء التي صدّقها أبي عن كونه أميراً خوارزمياً

بيع في الأسر هرباً من المغول الذين كانوا يلاحقونه!"

- "علـى رسـلك يا رجـل..... محمـود.... قطز..... كلها أسـماء."
حاول التهدئة من غضب مضيفه الذي انفجر في وجهه.

- "أي هـراء هـذا الـذي أطلقـه على نفسـه، فصدقتمـوه؟! أيعقل أن يكون ذلك العبد المغولي الذي اشـتراه أبي من سـوق النخاسـة، في الأصل أميراً من أمراء خوارزم؟! والله إنها لأشبه بقصص ألف ليلة وليلة!"

- "ومـا الضيـر فـي أن أصـدق قصتـه كمـا صدقها أبـوك وهو الذي كانت لا تفوته فائتة..... أراك متحاملاً على الرجل، في حين أنه لم يفعل لك شـيئاً ليسـتحق منك كل هذا البغض؛ ثم إنّي لسـت وحدي من صدق قصته بعد أبيك......"

- "رجاءً يا ابن الزعيم..... رجاءً لا تستشـهد بذلك الأفّاق!" قاطعه مرة أخرى موسـى، قبل أن ينطق باسـم خصمه الذي ما كره على وجه الأرض أكثر من قُطُز إلّا إياه!

- "ويحك يا ابن غانم! إلى يومك هذا وأنت تتحامل عليه هو الآخر، بعدما ترك لك دمشق، منذ عهد الصالح إسماعيل؟!"

- "بـل قـل: بعدمـا فـر من بطش ولي أمـره الـذي أراد معاقبته على خيانته وخروجه عن طاعته! وأي بلاء أعظم من أن يخرج العالم عن طاعة ولي أمره؟! أم أن هذا الأمر أيضاً لا يعني لك شيئاً يا ابن الزعيم؟!"

- "العز بن عبدالسـلام نقض بيعته للصالح إسـماعيل عندما تحالف مـع الصليبييـن من أجـل محاربة الصالح أيوب، ولـم يخن الأمانة كما تدّعي، بل الذي خان الأمانة هو ملك دمشـق السـابق الذي فـرّ هاربـاً عندمـا خذله حلفاؤه الصليبيـون.... يا رجل، لا تجعل

خصومتـك مـع ابن عبدالسـلام تمنعك من قول كلمة الحق......
لا تظلمه كما ظلمت محمود من قبله!"

- "قُطُز! قلت لك مراراً: اسـمه قُطُز!!" أصّر موسـى بن غانم بعدما عجـز عـن الـرد علـى حجـة رفيقـه فيمـا يخـص مسـألة العز بن عبدالسلام..... أمّا مسألة قُطُز تحديداً، فلن يتنازل عنها أبداً!

15

لم يستغرق الأمر سوى يومين حتى أدرك الجميع أن المسابقة لم تعد بين فرسان دمشق ومماليك مصر، بل أصبحت فيما بين المماليك أنفسهم. الأمر أصبح جلياً للعيان..... لا أحد يستطيع مجابهة هؤلاء الذين تدربوا على القتال، وحمل السلاح، وركوب الخيل منذ نعومة أظفارهم. من كان قد سمع عن المماليك وبأسهم، فقد شاهدهم بأم عينه في تلك المسابقة، ومن لم يشهد حروبهم مع خصومهم، فقد شهد أقرب شيء إلى ذلك وهم يستعرضون مهاراتهم مع النبال والسيوف والرماح من على صهوات جيادهم...... ولم يكن هذا هو كل ما شاهدوه، بل أيضاً غطرستهم من بعد هزيمة خصومهم من الدمشقيين دون عناء يذكر، ليسيروا داخل أسوار المدينة بزهو وخيلاء بعدما كانوا على وشك مغادرتها، لولا تلك المسابقة "اللعينة"!

- "يتساقطون كالجراد! ألا يوجد في دمشق من يستطيع الصمود أمامهم ولو حتى ساعة؟!" صرخ الوالي من الغيظ، مخاطباً وزيره أبا الوليد بن الحسن.
- "مولاي كان يعلم منذ البداية أن الأمر سيسير لمصلحتهم على الأغلب."
- "نعم.... نعم! ولكن ليس على هذا الشكل المخزي! ماذا تقول باقي الممالك عنّا؟! سنكون لقمة سائغة لهم أجمعين، فور مغادرة أيبك ومماليكه! ناهيك عمّا يفعله هؤلاء المماليك الملاعين من

إثارة أهالي دمشق كلمّا ساروا في أسواقها..... أخبره يا شيخ التجار!" نظر الوالي إلى رجل مسن على يساره، ثم أشار إليه بمواصلة الحديث.

- "مولاي الوالي محق فيما قال..... كثير من التجار باتوا متذمرين من تصرفات هؤلاء المماليك كأخذهم لكل ما تشتهيه أنفسهم دون دفع مقابل له..... ويا ليت الأمر توقف عند هذا الحد، بل وصل حتى إلى التعدي على المحارم والعياذ بالله!"
- "هل سمعت أيها الوزير؟! هل سمعت ما قاله شيخ التجار؟! نهب التجار، والتعدي على محارم الأهالي! هنا في دمشق! وكأننا أصبحنا من سبايا الحرب!" قام الوالي من على مجلسه، واضعاً يديه على عمامته المطرزة بخيوط الذهب، مردداً عبارة "سبايا حرب" أكثر من مرة وهو يدور حول نفسه في القاعة.....
- "ليتني لم أستمع إلى مشورتها، وتركتهم يرحلون عنّا...... أردت إطفاء الحريق، فزدتُها شرراً حتى أصبحنا مثل سبايا الحرب!"
- "على رسلك يا مولاي..... لا تفعل بنفسك هذا! " قال الوزير....
- "صحتك يا مولاي!" أضاف شيخ التجار، ولكن دون جدوى، حتى فُتح باب المجلس من غير سابق إنذار، ليدخل منه عز الدين أيبك، ومعاونه بلبان. حينها فقط توقف الوالي عن نحيبه، متجهاً على الفور نحو ضيفه الذي فاجأه بقدومه على حين غفلة.....
- "أهلاً بالأمير عز الدين أيبك..... لماذا لم ترسل أحداً ليخبرني بقدومك إلى المجلس حتى أهيِّئه لك بما يليق بك؟!"
- "لم آتِ إليك من أجل الطعام أو الشراب، بل لما هو أهم...... لقد توارد إلى مسمعي قبل قليل أن بعض المماليك قد تجاوزوا حدودهم بين الأهالي، أصحيح ما سمعت؟!"

- "معاذ الله يا مولاي الأمير.... معاذ الله أن يصدر أمر كهذا من مماليكك الكرام!" أجابه الوالي على الفور، ثم التفت برأسه المستدير نحو الوزير وشيخ التجار.....
- "هل توارد إلى مسمع أحدكما أي شيء من هذا القبيل؟!"
- "معاذ الله...." جاء رد الوزير سابقاً على رد شيخ التجار.
- "معاذ الله.... بل جميع التجار في قمة السعادة لوجودكم يا مولاي الأمير...... فلم تَرُج لهم بضاعة كما هو الحال منذ مجيئكم إلى دمشق!"
- "إذن ما معنى هذا القول الذي وردني عن بعض مماليكي؟!" أصّر عز الدين أيبك، غير مقتنع بما سمع.
- "إنها الوشاية يا مولاي الأمير..... وشاية بعض أصحاب النفوس المريضة، أعاذنا وأعاذك الله!"
- "أي والله!" ردّد الوزير.
- "أي والله إنها الوشاية!" أيده شيخ التجار.

تأمل أيبك ما قاله الوالي ووزيره، وشيخ التجار، ثم نظر إلى بلبان، وكأن حِملاً ثقيلاً قد انزاح من على عاتقيه، وإن ظلّ شاكّاً بعض الشيء فيما سمع..... فآخر ما كان يتمناه أن يصل إلى مسامع مولاه الملك الصالح نجم الدين أيوب أن نفراً من مماليكه قد أحدثوا شغباً في أسواق دمشق! مثل هذا الأمر قد يُنقص من أسهمه عنده، ويرفع من أسهم أقطاي ومماليك البحرية!

- "حسناً..... فقولك عندي يكفي." ما كاد أيبك يكمل الجملة حتى سُمعت خطوات متسارعة من خلف باب المجلس، مصاحبة لأصوات متعالية تُصرّ على الدخول!
- "ما الخطب؟!" تساءل الوالي ناظراً إلى وزيره......

لحظات، ثم فُتح الباب على عجل، فولج منه قائد الشرطة مُهرولاً نحو صدر المجلس، غير آبه بمن فيه، ليخاطب الوالي المشـدوه بما كان يجري، دون إذن......

- "مولاي!" لهث، وفي عينيه فزع عظيم......
- "مصيبة يا مولاي..... مصيبة!"

16

حدث جلل لم يتوقعه أحد من الدمشقيين في ظهيرة ذلك اليوم البائس، بعدما هُزم جميع فرسان المدينة أمام مماليك مصر..... ما حسبوها مسابقة بين طرفين، تبينت أنها في واقع الحال مسابقة بين طرف واحد، واحد فقط لا غير، هو الأقوى..... هو الأشرس...... هو الأمهر على الجواد..... وهو أيضاً الأكثر تعالياً على المهزومين، أو هكذا بدا الأمر فيما يخص بعض المماليك!

بدأ الحدث بثلاثة من المماليك يتجولون في السوق الكبير. يأخذون ما تشتهي أنفسهم دون أدنى تفكير في دفع أي مقابل، على مضضٍ من الباعة..... لم تشتهِ أنفسهم مجرد السلع الساكنة، بل تجاوزتها إلى السلع الحيّة.... هكذا كانت نظرتهم إلى نساء المهزومين!

- "أنتم لستم بفرسان! محمود بإمكانه أن يهزمكم جميعاً!"

جاءت صرخة الطفلة عائشة التي كانت تتجول في السوق ذلك اليوم، مع أمها وفارسها المفضل....... ذهل الأهالي من جرأتها..... فخافوا من بطش المماليك، حتى بلغت قلوبهم حناجرهم!

- "اصمتي أيتها الفتاة الحمقاء!......"

- "هل جننت؟!......."

توالى التأنيب من الناس، وتوالت خطوات المماليك الثلاثة إلى الفتاة.....

- "ماذا قلتِ؟" سألها أحد المماليك، ليتأكد ممّا سمع.
- "إنها فتاة صغيرة يا مولاي...... اعذرها!" قالت عاتكة باستجداء، على أمل أن تنقذ ابنتها من بطش المملوك.
- "أنتم لستم بفرسان! محمود أفضل منكم جميعاً!" أصرّت الصبية، مشيرة إلى محمود الذي كان يتجول بعيداً، ولم ينتبه إلى ما كان يدور من حديث بينهما.....

ضحك المماليك الثلاثة، مستهزئين بما سمعوا من هذه الصبية الحمقاء، ثم التفت أحدهم إلى عاتكة.....

- "أهي بنتك؟"
- "نعم يا مولاي."
- "بكم تبيعينها لنا، حتى نأخذها فنعلمها الأدب عند مخاطبة الأسياد؟!"
- "أنا فتاة حرة، ولست للبيع مثلكم!" أجابت عائشة قبل أن ترد أمها، وكانت هذه هي القاضية التي جلبت لها صفعة مدوية من المملوك، أردتها على الأرض فاقدة للوعي، فتعالى الصراخ، وجاء محمود راكضاً نحو الفتاة، ومن ثم بدأت الأحداث التي لم تخطر على بال أحد......
- "أأنت محمود الذي يستطيع هزيمتنا؟" سأل أحد المماليك الثلاثة.
- "أي فارس هذا الذي يضرب فتاة صغيرة؟!" أجابه محمود بسؤال عن سؤاله، متفحصاً عائشة وقد بدأت تستعيد وعيها.
- "الفارس الذي سيقطع لسانك القذر ليعلمك كيف ترد على أسيادك!"

أشهر المملوك خنجره، وما كاد يفعل حتى وجد يده تلتوي على إثر مسكة خاطفة من غريمه "العبد الوقح"، فوقع الخنجر من يده،

ليصبح في يده هو، وما هي إلّا لحظات حتى أصاب نصل الخنجر إبطه الأيمن، ليجد يده التي صفع بها الفتاة، وقد شُلَّت!

صرخ المملوك واقعاً على ركبتيه، ودماؤه على الأرض تسيل. أسعفه أحد رفاقه، بينما سل سيفه الآخر في وجه محمود الذي أحنى ظهره متفادياً نصل السيف، ثم سحب على الفور سيف المملوك الذي كان يسعف رفيقه، فصد به ضربات المملوك المبارز، الواحدة تلو الأخرى أمام دهشة الدمشقيين الذين لم يصدقوا ما كانوا يشاهدون أمام أعينهم!

لم يبدُ على محمود أنه كان يبذل جهداً كبيراً في مبارزة المملوك الذي كان مع كل لحظة تمر ولا يجد سيفه رقبة خصمه، يزداد غضباً على غضب!

- "لا رغبة لي في إيذائك....... بإمكانك أن تنهي الأمر الآن، وتسير أنت ورفيقاك إلى حال سبيلكم." حاول محمود إنهاء الأمر دون المزيد من إراقة الدماء، ولكن دون جدوى.
- "تهددني أيها العبد الذليل؟!"

ما زاد استجداء محمود المملوكَ إلّا غضباً، فأخذ ينهال بالسيف عليه مرة تلو الأخرى، ولكن دون أن يصيبه بأي أذى، فنادى على رفيقه الذي كان يسعف الجريح، لكي يعينه...... للتحول المبارزة إلى اثنين على واحد!

ظن الجميع أن هذه هي النهاية..... فلن يتمكن العبد المسكين من مجابهة اثنين من فرسان المماليك..... ولكن محمود كان له رأي آخر!

ما تَمَّت مشاهدته في اللحظات التالية لم يشاهده أحد من قبل..... فلم يكن قتالاً مألوفاً بقدر ما كان أشبه بالرقص على

الإيقاع...... خطوات للعبد بين الفارسين سريعة كالبرق، متصاحبة مع دوران وانحناءات إلى الأمام والخلف، ليتفادى بها محمود جميع الطعنات، ثم بحركتين سريعتين وعلى غفلة من الجميع، قطع معصم أحد المملوكين، وطعن فخذ الآخر، لينهي المبارزة بعد أن أسقطهما، وكان بإمكانه بكل يسر، لو أراد، أن يقتلهما وثالثهم الملقى على الأرض، ولكنه لم يفعل!

تعالت الصيحات من قبل الأهالي الذين شهدوا هذه المعجزة العظيمة! فأخيراً هُزم المماليك، وأي هزيمة نكراء كانت هذه؟ ومن قبل من؟! من قبل أحد عبيد الفقيه موسى بن غانم المقدسي! دمشق باتت في عرس بعد أن كادت تبيت في حزن، وقد انتشر خبر ما جرى في السوق الكبير، وأصبح محمود، الذي لا يعرفونه إلّا باسم قُطُز، حديث الساعة، وإن لم يعبؤوا كثيراً لما جرى له بعد ذلك، عندما التف حوله عدد من رجال الشرطة برماحهم الطويلة، ليقتادوه إلى السجن بعدما ألقى سلاحه، حتى ينظر في أمره الوالي، فيعاقبه نظير ما فعل من تعديه "السافر" على ضيوفه وضيوف المدينة الكرام!

17

وكأن قهر الناس أصبح غاية عند النافذين..... أم أنِ الاستكانة والخضوع هما من مكّنا المتجبرين؟ ولكن الحياة ما كانت لتقف عند أحد؛ ولكل جبارٍ متسلطٍ من يسخره الله ليتسلط عليه؛ أوليس هذا ما شاهده بأم عينيه عبر عقود حياته الأربعة؟ ألم يسحق جده السلطان علاء الدين محمد الممالك المجاورة ويشرد أهلها، ليأتي بعد ذلك من يشرده وأهله، لينتهي بهم المطاف على تراب جزيرة نائية ملقيين، أو في سوق العبيد مهانين! وأي إذلال أعظم من أن يصبح عزيز القوم أرذلهم؟!

لم تكن هذه شكوى، بقدر ما كانت مناجاة لربه..... فكم من الناس ظلم؟ وكم من الناس برّر الظلم الذي وقع عليهم من قبل أهله الذين طغوا في البلاد؟ إن كان ما جرى له كفارة تلك السنوات، فلم يمانع محمود بن ممدود، وإن كانت نهايته في هذا السجن الموحش المظلم بين الحشرات والفئران، فيكفيه أنه جزاء دفاعه عن تلك الصبية المسكينة التي استأمنه عليها والدها الذي مات وهو يجاهد معه، عندما كانا في خدمة سيده السابق، غانم المقدسي...... حزنه الوحيد أنه لن ينال شرف الاستشهاد وهو يقاتل أعداء الدين، ولكن قوته وبراعته في القتال التي تعلمها عبر سنوات الأسر عند المغول، ومن بعد ذلك عند غانم المقدسي، منعتاه من ذلك، بل جاءتا به إلى هذا المكان!

- "لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ..... فلا يُغرُّ بطيب العيش

إنسـانُ...... هـي الأيـامُ كمـا شـاهدتها دُولٌ...... مَن سَـرَّهُ زَمنٌ سـاءَتهُ أزمانُ...... وهذه الدار لا تُبقي على أحد...... ولا يدوم على حالٍ لها شـان...... يُمزق الدهر حتمًا كل سـابغةٍ...... إذا نبت مشْرفيّاتٌ وخُرصانُ...... وينتضي كلّ سيف للفناء ولوْ...... كان ابنَ ذي يزَن والغمدَ غُمدان....... أين الملوك ذَوو التيجان من يمنٍ...... وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ؟...... وأين ما شـاده شـدَّادُ في إرمٍ؟........ وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ ؟..... وأين ما حازه قارون من ذهب؟....... وأين عادٌ وشـدادٌ وقحطانُ؟...... أتـى علـى الـكُل أمـر لا مَرد له....... حتى قَضَـوا فكأن القوم ما كانوا....... وصار ما كان من مُلك ومن مَلِك...... كما حكى عن خيال الطَّيفِ وسْنانُ...... دارَ الزّمانُ على دارا وقاتِلِه....... وأمَّ كسرى فما آواه إيوانُ....... كأنما الصَّعب لم يسْهُل له سببُ..... يومًا ولا مَلكَ الدُّنيا سُـليمانُ..... فجائعُ الدهر أنواعٌ مُنوَّعة..... وللزمـان مسـرّاتٌ وأحـزانُ..... وللحوادث سُـلوان يسـهلها..... ومـا لمـا حـلّ بالإسـلام سُـلوانُ..... دهـى الجزيرة أمـرٌ لا عزاءَ له..... هوى له أُحدٌ وانهدّ ثهلانُ..... أصابها العينُ في الإسـلام فامتحنتْ..... حتى خَلت منه أقطارٌ وبُلدانُ..... فاسأل بلنسيةً ما شـأنُ مُرسـيةٍ؟..... وأينَ شـاطبةٌ أمْ أينَ جَيّانُ؟... وأين قُرطبة دارُ العلوم فكم..... من عالمٍ قد سما فيها له شانُ؟..... وأين حمصُ ومـا تحويـه مـن نزهٍ... نهرهُـا العَذبُ فياضٌ ومـلآنُ؟..... قواعدٌ كـنَّ أركانَ البـلاد فمـا..... عسـى البقـاءُ إذا لم تبـقَ أركانُ؟..... تبكـي الحنيفيـة البيضـاءُ مـن أسـفٍ..... كمـا بكى لفـراق الإلفِ هيمانُ..... على ديار من الإسلام خالية..... قد أقفرت ولها بالكفر عُمـرانُ..... حيـث المسـاجد قد صارت كنائـسَ ما..... فيهنَّ إلا

نواقيسٌ وصُلبانُ..... حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ..... حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ..... يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ...... إن كنت في سِنَةٍ فالدهرُ يقظانُ..... وماشيًا مرحًا يلهيه موطنهُ..... أبعد حمصٍ تَغرُّ المرءَ أوطانُ ؟..... تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدمها..... وما لها مع طولَ الدهرِ نسيانُ..... يا راكبين عتاق الخيلِ ضامرةً..... كأنها في مجال السبقِ عقبانُ..... وحاملين سيُوفَ الهندِ مرهفة..... كأنها في ظلام النقع نيرانُ..... وراتعين وراء البحر في دعةٍ..... لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطانُ..... أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ..... فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ؟..... كم يستغيث بنا المستضعفون وهم..... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان؟..... ماذا التقاُطع في الإسلام بينكمُ..... وأنتمْ يا عبادَ الله إخوانُ ؟..... ألا نفوسٌ أبياتٌ لها هممٌ..... أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ..... يا من لذلةِ قومٍ بعدَ عزّهمُ..... أحال حالهمْ جورُ وطُغيانُ..... بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم..... واليومَ هم في بلاد الكفرِ عُبدانُ..... فلو تراهم حيارى لا دليل لهمْ..... عليهمُ من ثيابِ الذلِ ألوانُ..... ولو رأيتَ بكاهُم عندَ بيعهمُ..... لهالكَ الأمرُ واستهوتكَ أحزانُ..... يا ربَّ أمَ وطفلٍ حيلَ بينهما..... كما تفرقَ أرواحٌ وأبدانُ..... وطفلةٌ مثل حسنِ الشمسِ إذ طلعت..... كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ..... يقودُها العلجُ للمكروه مكرهةً..... والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ..... لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ..... إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ"

هاله الصوت الذي أنشد دون أن ينتبه لوجود صاحبه في ركن مظلم بذات الزنزانة، كان فيه ألفة غريبة، وكأنه جاء من زمن بعيد......

- "هذه الأبيات..... أهي من نظمك؟" تساءل محمود.

- "لا، بل حفظتها من صاحبها..... شاعر أندلسي، التقيته في غرناطة، اسمه أبو البقاء الرندي. تعرفت عليه في سجن كهذا...... شيء عجيب، على اختلاف المدن التي زرتها، وقد زرت الكثير عبر تجوالي، إلّا أن سجونها جميعاً تتشابه، وكأنها نفسها. لا أدري إن كانت هذه مجرد مصادفة، أم أن في الأمر سرّاً لا أعلمه." ردّ عليه الرجل بنبرة وإن بدت ساخرة بعض الشيء إلّا أنّها لم تخلُ من الأسى.
- "وما الذي أتي بك إلى هذا السجن؟"
- "والله ما بت أعلم من كثرة ما سجنت.... لعلّي أغضبت وزيراً، أو رفضت أن أغني في مجلس والٍ، أو ربما أحد رجال الشرطة لم تعجبه هيئتي، ولعلّه لا هذا ولا ذاك؛ تعددت الأسباب والسجن واحد...... ماذا عنك أنت؟ لماذا سجنوك؟"
- "بارزت ثلاثة مماليك، وأصبتهم."
- "بارزت ثلاثة مماليك؟! أنت حتماً لا تقصد المماليك الصالحية الذين قدموا إلى دمشق؟!"
- "بل هم من أقصد." أجاب محمود الرجلَ الذي تساءل مشدوهاً.
- "بارزتهم من دون سلاح؟!"
- "بل بارزتهم بأسلحتهم بعد استيلائي على بعضها."
- "أنت بمفردك، ودون مساعدة أحد؟!"
- "نعم."
- "ولكني لا أرى عليك أي خدش!"
- "لم يتمكن أحدهم من الوصول إليّ بسلاحه. كنت أسرعهم."
- "وماذا عنهم؟ ماذا أصابهم؟"
- "لن يتمكنوا من حمل السلاح والقتال بعد اليوم."

- "ولماذا فعلت هذا؟! هل تعدوا عليك؟"
- "بل تعدوا على طفلة صغيرة، اؤتمنتُ عليها."

ضحك الرجل متعجباً ممّا سمع، ثم قال بنبرة لا تكاد تخلو من الفرح......

- "والله إنّي ما دخلت سجناً إلّا وجدت فيه رجلاً لا يقل عجباً عن الذي قبله..... لا أظن أن سيرتك ستنتهي عند هذا الحد. خذها مني، فأنا أعلم بالرجال."

ما كاد سابح العوّاد ينهي حديثه حتى سُمعت أصوات أقدام تطأ الأرض، وكأن سرباً من الثيران قادم نحوهما.... لحظات قليلة، ثم فُتح باب الزنزانة، ليدخل منها رجل طويل القامة، قوي البنيان، دون أن يصطحب أحداً معه. من هيئته بدت عليه الإمارة..... نظر إلى محمود الذي وقف احتراماً له، ثم سأله:

- "أأنت قُطُز؟"
- " بل اسمي محمود بن ممدود." أجابه بنبرة متحدية، رافضاً الاسم الذي كان الجميع، عدا عاتكة وابنتها عائشة، يُطْلِقُه عليه.
- "محمود؟! لو كنت أبحث عن شخص اسمه محمود، لوجدته بين الذين شاهدوك تقاتل ثلاثة فرسان، مدججين بالسلاح، دون أن يحركوا ساكناً من أجل نصرتك..... لا حاجة لي إلى مثل هؤلاء، بل أبحث عن قُطُز: رجل لا يهمني من أين جاء، أو من كان أبواه. أبحث عن قطز الذي قاتل ببأس وشجاعة من أجل نصرة صبية ظُلمت؛ فهل هذا أنت؟ أم أني أخطأت وجهتي؟"
- "نعم، أنا." أجابه محمود الذي أصبح قُطُز، بعد لحظة صمت لم تدم طويلاً.
- "حسناً، هذا ما ظننته..... هيّا، تعالَ معي."

- "إلى أين؟ وماذا تريد منّي؟!"
- "لقد اشتريتك من مولاك موسى بن غانم. مثلك لا مكان له في هذه الزنزانة القذرة، بل ضمن مماليكي، وفي خدمة الرجل الوحيد من بني أيوب الذي يستحق لقبه: الملك الصالح نجم الدين أيوب، سلطان مصر والشام."

18

أرادت أن تذهب إلى المكان الذي بيع فيه أبوها إلى تجار الرقيق المغول؛ المكان الذي شهد آخر لقاء جمع بينه وبين أمها. أرادت أن تستشعره، وتسير على خطاه، وإن كانت تعلم مسبقاً أين سينتهي به الحال، فهذه إحدى ميزات مصاحبة شخص كمراد حيث الحاضر بالنسبة إليه هو جزء من الماضي.....

كأنها بالسير على خطى أبيها كانت تتقرب منه ومن آلامه وأشجانه فتتعرف عليه أكثر؛ لتصبح جزءاً من حياته، بل من كيانه، وإن لم تلتقِه بعد.

السير إلى أترار شكّل تحدياً في حد ذاته، إذ أصبحت مملكة المغول العظيمة تدب في صراعاتها بين أحفاد جنكيز خان بعدما مات الخان الأعظم الثالث في سلالة الحكم، گويوك خان، فضاع الأمن بين أطماع المستفيدين من النزاعات، وكأن حال البشر هو نفسه لا يتغير ما بين شرق الأرض وغربها!

- "أهذا هو المكان؟" تساءلت نوران بنت محمود وسط قرية تضج بالحياة على مشارف مدينة أترار.
- "نعم..... هنا التقت ياسمي أباك أول مرة، وهنا أيضاً فارقته..... هو المكان نفسه الذي وجدتُني فيه عندما انتقلتُ إلى هذا الزمان والتقيت عبدالرحمن قبل أن ننضم إلى قافلة أمك، وهو كذلك الذي تجسدت فيه. كان خالياً في السابق؛ لم تكن توجد هذه

القرية..... وكأن لا شيء يبقى على حاله؛ كل شيء يتغير."

أخـذت نـوران تتجول بين الخيـام المنصوبة والحوانيت القائمة. أرادت أن تتحسـس بقدميهـا الأرض التـي وطئهـا أبوهـا قبـل سـنين عـدة..... فـي هـذا المكان تم بيعه إلى تجار الرقيق؛ أُقتيد إلى أسـره، عبداً يُدعى قطز..... هل يا ترى الذي اشتراه لا يزال على قيد الحياة؟ أخذت تتساءل...... هل لا يزال يأتي إلى هنا؟ العبيد والجواري كانوا فـي كل مـكان، يُباعـون ويشـترون وكأن القرية أصبحت مركزاً لتجارة الرقيق. جميع الوجوه كانت موجودة، من عربية وتركية وصينية، كلها تبحث عن بضاعة تشتريها من التجار المغول الذين استعبدوا أسراهم من الحروب...... محمود بن ممدود، لم يكن سوى فرد وسط قبيلة! في كل ركن من القرية كان يوجد صنف من أصناف العبيد والجواري، فمنهم من كان لخدمة البيوت، ومنهم من كان للهو والسـمر، ومنهم من كان للغناء والطرب. في مكان آخر كان يوجد العبيد المخصصون للعمـل فـي الحقـول، ولكن أبرز ما في السـوق على الإطلاق، كانت خيمة كبيرة محاطة بالجنود، يتوافد عليها كبار الفرسان من كل حدب وصوب.....

- "خيمة المماليك." قال مراد، وكأنه يجيبها عن سـؤال كانت على وشك أن تسأله.

تحركـت نحوهـا، دون مراعـاة للأعيـن التـي كانـت تنظـر إليها متعجبـة، وهـي تسـير بخطـوات ثابتة إلى الخيمة التي لا يُسـمح لأي شخص بدخولها، والّتي حتماً لم تدخلها امرأة قَط!

- "هـذه ليسـت خيمـة الجـواري والفتيـان." وقـف أمام نـوران أحد الحراس، مانعاً إيّاها من الدخول.
- "ومن قال لك إني أبحث عن الجواري أو الفتيان؟ ما أبحث عنه

هو في داخل هذه الخيمة." أجابته ممسكة بخنجرها المندس بين ثيابها.

- "المعذرة،" قاطع مراد الحديث بعد أن أمسك بيد نوران قبل أن تسل الخنجر من غمده.....
- "يبدو أننا ضللنا الطريق."

سحب نوران جانباً، ثم قال لها بصوت هامس.....

- "ماذا تفعلين؟ نحن لم نأتِ إلى هنا من أجل أن نتقاتل مع هؤلاء."
- "هؤلاء الحثالة يتاجرون في الناس وكأنهم يتاجرون في الأغنام!"
- "هذا هو الحال مع الأسف، ونحن لسنا في مهمة خاصة من أجل القضاء على تجارة الرقيق. طلبت مني أن آخذك إلى المكان الذي بيع فيه محمود، وقد فعلت. علينا الآن أن نكمل طريقنا، إن رغبتِ في ملاقاة أبيك."

صمتت نوران قليلاً حتى هدأت، ثم هزّت رأسها بالموافقة على ما قاله مراد، قبل أن تتجه نحو الحظيرة التي تركا فيها فرسيهما......

* * *

- "هل تفكر فيه كثيراً؟ أقصد عبدالرحمن...... ماذا تظن حلّ به بعدما باع أبي للمغول؟"

باغته السؤال في أثناء سيرهما غرباً على طريق الحرير الممتد من الصين حتى بغداد، مروراً بأترار وبخارى وسمرقند. في صوتها كانت تكمن مرارة شعر بها، وإن حاولت إخفاءها..... هذه الفتاة كانت تعاني من وحدة لا تقل عن وحدته. ألهذا أرسلتها ياسمي معه؟

- "لا أعلم ماذا حل به، ولكن ما أعلمه جيداً أن مصابه لا يقل عن مصابي..... كلانا تجرعنا من ذات الوعاء." أجابها بهدوء، وكأنه أراد أن يخفف من نقمتها على عبدالرحمن الملقب بذي العمامة

الخضراء.... أو عبدالرحمن أبو الحمايل، كما علم مؤخراً.

- "تقصد قرينك، مراد الآخر؟ بين كل الأمور التي حكت لي عنها أمي، وجدتُ هذه الأغرب.... كيف يمكن للإنسان أن يكون خصماً لنفسه؟! لا... لا أظن أن مصابك كمصاب عبدالرحمن، بل أسوأ بكثير، وتقبلك له على هذا النحو، لهو أمر مثير للدهشة!"

ابتسم مراد لِما سمع، مستعيداً لوهلة كل ما حدث له..... كم من سنوات مضت؟ وكم من أحوال تبدلت؟ وكم من مشاعر تغيرت؟

- "أنا لست خصماً لنفسي، وإن ظننتُ ذلك ذات يوم مضى. هو ليس بأنا وإن تشابهت أجسادنا. هذا الذي ترينه ليس إلّا مجرد وعاء يحمل حقيقة صاحبه.... كُنْهَه الذي يشكله. مَثَلي وإيّاه كمثل التوأم؛ هل هما شخص واحد أم شخصان؟ لكل منّا اختياراتنا يا نوران، وهي التي تحدد من نكون، والجسد أبعد ما يكون عن هذا..... نعم، في السابق كان صراعي مع نفسي حتى بدأت أفهمها، ولكن الآن أصبح صراعي مع شخص آخر يشبهني ولكنه ليس بأنا."

- "وكيف استطعت فهمها..... أقصد نفسك؟" تساءلت وكأنها تبحث عن إجابة لسؤال لطالما حيرها.

- "فهمتها عندما تخلصت من غضبي...... من نقمتي على الحياة وعلى من حولي...... الشر موجود من حولنا في كل مكان، وكذلك الخير. مهما فعل الإنسان، فلن يمكنه التخلص لا من هذا ولا من ذاك، لأن الحياة لا تستقيم من دونهما معاً."

- "الشر؟! الحياة لا تستقيم من دون الشر بجانب الخير؟!"

- "نعم، ولكن هذا لا يعني أننا يجب أن نتقبله أو نرضى به، ولكن بعض الأحيان قد يكون القليل من شر واجباً لكي نتفادى الكثير

منه."

- "ولكن كيف للشخص أن يحدد هذا القليل الواجب؟"
- "هذا سؤال ما فتئت أسأله لنفسي، وما زلت أبحث عن إجابة له."

صمت مراد قليلاً متأملاً ما قاله لنوران، ثم أضاف.....

- "من يدري؟ لعل في الإجابة عن هذا السؤال يكمن خلاصي."

صمتت ابنة ياسمي ومحمود، دون أن تعلق على ما قاله مراد...... هذا الشخص الذي يرافقها، لم يعد هو نفسه الذي وصفته لها أمها منذ زمن، عندما حكت لها عن كل ما جرى لها من أحداث مضت. كأنه تغير.... كأن حاله تبدل.... كأنه أصبح مراداً آخر!

19

خرج في ظلمة الليل بمفرده داخل أسوار القلعة التي ظل حبيساً فيها منذ سنين، حاملاً معه جسد طفل هالك، لا يتجاوز العام. ذهب إلى ساحة خالية تحفها أشجار الصنوبر، ثم عند حافة أطول شجرة وضع الجثة الصغيرة الهامدة بعد أن جلس على ركبتيه، فأخذ يحفر بيديه الخاليتين......

- "يا بُنيَ...... في اليوم الذي ولدتَ فيه، شهدت سماء قلعة ألموت حدثاً ظنه الناس أنه نذير أمر عظيم. عندما غابت الشمس في أعلى بزوغها، ظهرتَ لتضيء لي حياتي التي كانت قد أظلمت لظُلم من فيها..... أعلم يا بُنيَ أن الشمس والأجرام لا تغيب عن مسارها لمولد إنسان أو لموته، ولكنّي أعلم أيضاً أن رؤيتي لك في ذلك اليوم كانت عندي أعظم شأناً من أي حدث قد يظهر في سماء هذه البلاد الغارقة في بؤسها وجبروت أهلها وسادتها الذين حمّلوك مقتل أمك وأنت الطفل الضعيف الذي لا يقوى على إيذاء أحد غير نفسه. لقد وَهَبَتْ لك حياتها من أجل أن تعيش أنت، فارتضت أن ترحل عن الدنيا حتى تأتي أنت إليها. يا بُنيَ، يوم مولدك لم يكن شؤماً عليَ، بل الشؤم كان في عقول الناس من حولك الذين أبت قلوبهم أن تُشفق عليك، فرغبوا أن ترحل عن دنياهم، ولا أبالغ إن قلت لك إني وجدت في الحيوان شفقة لم أجدها عند الإنسان، عندما لم أجد لك غير ظبية بيضاء ليكون شأنك كشأن

حـي بـن يقظـان..... هل أقص عليك يا بُنيّ قصتي لكي تعرفني؟ أفلست راحلاً عنّي إلى جنة لا أدري إن كنتُ واردها حتى ألقاك ثانية؟ لقد رأيتُ من الدنيا التي رحلتَ عنها عجائبها؛ رأيتُ خيرها وشـرها. رأيت كلمة الحق التي تؤدي بصاحبها إلى الهلاك، كما رأيـت فيهـا العلو الذي يـؤدي إليه النفاق.... يا بُنيّ لقد صاحبتُ في هذه الدنيا أعاظم الناس وأرذلهم، وتعرفتُ على أشرف الناس وأحقرهـم، فتبيـن لـي أن العبـاد فـي كافة البلاد هم سـواء؛ عامة دهمـاء، حياتهـم رعنـاء، وبدينهـم بُلَهاء، وللمسـتبدين ضعفاء.... وقلة خاصة تبحث عن الحق في كل مكان، وتصدح به أيّاً كان. يا بُنَي لقد جئت إلى هذا المكان بحثاً عن الحق فوجدته أبعد ما يكـون عنـه، ووجدت أهله على حال ملوكهم، إن صلحَ صلحوا، وإن فسد فسدوا، وكأنهم قطيع ماشية خالية من العقول..... لَكَم سـألت نفسـي عبر الزمان، من هم الأسـوأ، المستبدون أم العوام؟ ولكنّ الإجابة عن هذا السؤال لهي أمر عقيم، لأن جميعهم يا بُنَيّ في السوء سواء. أفلا يستحقون بعد ذلك الذبح كلهمُ، كما تُذبح النعاج السمان؟ لقد سئمت يا بُنَيّ من الناس أجمعين. سئمت من كذبهم ونفاقهم.... سئمت من غشهم وخداعهم، حتى تمنيت لو أن يرسل لهم خالقهم عاصفةً، فتزيحهم عن مكانهم! ولعلّ عزائي الوحيد في رحيلك عنّي، أنك لن تكبر معهم، فتصبح مثلهم...... وداعاً يا بُنَيّ..... ولا تنسَ عندما تلقى بارئك بنفسك الطاهرة التي لم تدنسـها الذنوب، أن تطلب منه أن يجمعني بك يوماً في كنفه بعد أن يصفح عني، فسبحانه العالم ما في القلوب."

أخذ يواري محمد الطوسي جسد ابنه الضئيل الثرى، حابساً كل دمعـة حاولـت الولوج من بين دفّات جفونه المنتفخة.... أفيبكي على

من ترك الحياة الدنيا إلى ما هو خير وأبقى؟

قام من موضعه، وما كاد يخطو بضع خطوات حتى توقف على الفور عندما لمح شيئاً يتحرك بين أغصان الشجر..... توجس الريبة عندما بدأ يتشكل أمامه، في ظلمة الليل الذي كان يضيئه قمر غير مكتمل، جسد ممشوق القوام؛ لوهلة ظن أنه قد يكون أحد العسس قدم باحثاً عنه، بعدما ترك داره من دون إذن، ولكن سرعان ما تبين له خطأ ظنه عندما اقترب الرجل، وبانت ملامحه..... تعرف الطوسي فوراً عليه، وحتماً لم يكن أحدَ العسس!

20

استيقظ خليل الفرّان كعادته قبيل الفجر من أجل الذهاب إلى المسجد، ثم إلى الفرن. سنوات عمره التي اقتربت من الستين جعلته يتثاقل بعض الشيء عند قيامه من على الفراش. بصره لم يعد قادراً على الرؤية في ظل ضوء خافت، فأخذ يتحسس بقدميه نعليه اللذَين كانا بالقرب منه، حتى ارتداهما..... لم يطرأ شيء جديد على ما اعتاده منذ سنين. حياته كانت تسير كما بات يعرفها. لحظات ويدق على باب منزله المتواضع، ابنه سلمان ومعه حفيده عمر فيصطحبانه في رحلة يومه المعتادة بقلعة ألموت في أعلى جبال الديلم، التي ولد فيها كما ولد أبوه وجده من قبله.....

- "صبّحك الله بالخير يا أبي."
- "صبّحك الله بالخير يا جدي."

الجملة نفسها التي اعتاد سماعها منهما كل يوم، لم تنقطع منذ سنين، ليبدأ بها مسيرته، التي أخذت هي الأخرى تتثاقل بسبب آلام ركبتيه، نحو المسجد من أجل أداء الصلاة.

- "صبّحكما الله بالخير يا أحبابي." والإجابة المعتادة نفسها.....

ولكن شيئاً ما بدا له على خلاف المعتاد عندما اقترب من المسجد، فرأى جمعاً من الناس واقفين خارجه..... أبواب المسجد كانت مغلقة..... بل مصفدة!

- "ما الخطب؟" سأل خليل صديقه صالح الدبّاغ الذي كان هو

الآخر واقفاً مشدوهاً مع الآخرين......

- "هل تأخر خادم المسجد في النوم أو أن مكروهاً أصابه لا سمح الله؟"
- "والله علمي علمك يا خليل...... أتيت قبل قليل فوجدت الحال على ما تراه، ولا أحد يعلم أي شيء."
- "ماذا عن الشيخ أبي بكر إمام المسجد؟..... أين هو؟ لا أراه."
- "لعله تأخر في النوم هو الآخر." أجاب صالح، ممازحاً صديقه.
- "يا رجل!..... يا رجل!..... الشيخ أبوبكر لم يتأخر يوماً عن الصلاة منذ قدومه من بغداد."
- "الشيخ أبوبكر ليس في منزله..... " قاطع عبدالله بن صالح الدبّاغ حديث والده مع خليل الفرّان، وقد عاد توّاً من بعد تحريه للأمر الذي حيّر روّاد المسجد. نبرة صوته لم تخلُ من القلق.....
- "أخبرتني زوجته بأن نفراً من العسس أخذوه قبل قليل!"
- "أخذوه؟! إلى أين؟!"
- "لا أحد يدري..... ولكن هذا ليس كل شيء...."
- "خيراً يا عبدالله... ماذا هناك؟" تساءل الفرّان، وقد شعر هو الآخر بالقلق من هذا الذي كان يجري.
- "المعذرة يا عم خليل..... لم أسلم عليك أو على سلمان وعمر."
- "دعك من هذا الآن يا ولدي، وأخبرنا ماذا حدث بعد؟!" لم يتحمل خليل الفرّان كل هذا الغموض. أراد أن يفهم ويستريح.
- "وأنا عائد إلى هنا من بيت الشيخ أبي بكر، التقيت عليّ بن عبدالملك الإسكافي، وأخبرني بأن مسجد حَيِّهم هو الآخر مصفد، وإمامه أيضاً قد اختفى!"
- "مستحيل.... مسجدان مغلقان في يوم واحد؟! لا يمكن أن تكون

هذه مجرد مصادفة!"

- "ماذا تظن قد جرى يا أبي؟" تساءل سلمان، بعد أن أقلقه هلع أبيه.

أخذ خليل الفرّان يفرك رأسه من الحيرة، حيث لم يعرف كيف يفصح لابنه عن شكّه دون أن يُخطئ في القول، فَيَصل الأمر إلى مسمع بصّاصٍ قد يكون ضمن الموجودين! لعلّه من الأسلم أن يدع الأمر يَتبَيَّن من تلقاء نفسه، فحتماً كل شيء سيتضح عمّا قريب.....

- "لعلّه من الأفضل لنا يا ولدي أن نذهب إلى الفرن الآن لكي نعد الخبز للناس الذين سينهالون على المحل بعد قليل."
- "وماذا عن صلاة الفجر يا أبي؟"
- "كلها أرض الله يا ولدي، وتجوز عليها الصلاة..... نفرش الفرن ونصلي هناك."

لم يرغب خليل في البقاء أكثر ممّا ينبغي، فألقى التحية على صالح الدبّاغ وابنه عبدالله، ثم انصرف على الفور، ساحباً معه ولده البكر سلمان وحفيده عمر.

* * *

لم تشهد قلعة ألموت، وباقي القلاع والقرى التابعة لها، يوماً كهذا اليوم "العظيم"! فما إن بزغت الشمس حتى كان الدعاة في كل حارة منتشرين يبشرون الأهالي بما منّ ربهم عليهم من خير على يدي مولاهم إمام الزمان علاء الدين محمد بن الحسن......

- "أيها الناس! لقد حقق الله وعده الذي بلّغه لنا على لسان نبيه المصطفى: (لن تقوم القيامة حتى يظهر في الديلم رجل من نسلي، يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم سبطي؛ يملأ الدنيا عدلاً ونوراً؛ علامته ذهاب الشمس عن سماء النهار، فتعود بإذنه،

وتحتكم لأمره)...... أيها الناس، اسمعوا وعوا، لقد تحقق المراد، وظهرت الآية! وقد جعل الله أمر هذه الدنيا رهناً لإرادة مولانا إمام الزمان! وإنّ الإمام علاء الدين محمد بن الحسن، ليبشركم بأن القيامة قد قامت، والتكاليف قد سقطت؛ فلا صلاة ولا صيام ولا حج بعد اليوم؛ وأنه ما حُرِّم عليكم بالأمس، قد أصبح حلالاً مباحاً لكم اليوم! وكل شيء يجوز إلّا معصية إمام الزمان! أيها الناس، من سمع فأطاع واتَّبع، فله الجنة خالداً فيها؛ ومن سمع فعصى، فسيصلى لظى!"

ظل الدعاة يرددون الجُمل نفسها، من حارة لأخرى دون توقف، ومن حولهم العسس يمنعون كل من يحاول أن يقترب منهم للاستفسار، أو تساوره نفسه على الاعتراض!

* * *

- "يا خليل! يا خليل!" دخل صالح الدباغ الفرن منادياً على عجل، في حالة من الذهول، رغبة منه في مشاورة صديقه القديم في هذا الأمر الجلل......
- "لقد عادوا يا خليل! لقد عادوا من جديد!"
- "ويحك يا رجل! من هم الذين عادوا؟!" ألقى خليل بالعجينة التي كانت في يده، ثم اقترب من صالح الدبّاغ بعد أن جلس على الأرض يلهث من فرط التعب.
- "الحشّا..... الحشّاشون، ومن غيرهم؟!"
- "اصمت! اصمت قبّحك الله!" صرخ خليل في وجه صديقه، ثم أمر حفيده عمر بأن يغلق أبواب المحل.....
- "ومن قال لك إنهم غادروا لكي يظهروا؟! اصمت!..... ألا تعلم أنهم لا يحبون هذا اللقب؟!"

أغلق عمر الأبواب كما أمره جده دون أن يفهم السبب، ثم التفت إلى أبيه سلمان، متسائلاً بصوت خافت عن الحشّاشين هؤلاء الذين ذكرهم العم صالح، فلم يتلقَّ منه غير رفعة يدين مصاحبة للحاجبين، إيماءة على عدم فهمه هو الآخر لما كان يجري من حوار بين أبيه وصاحبه!

- "ماذا تقول يا خليل؟! مولانا الإمام السابق الحسن بن محمد، رحمه الله، كان قد قطع دابرهم عندما فتح أبواب القلاع لعلماء الشافعية؛ وكذلك سار على نهجه ابنه الإمام الحالي، إلى أن فاجأنا بتنصيب نفسه إماماً للزمان!"
- "مثل هؤلاء لا يختفون،" أجابه خليل هامساً بعدما جلس بجواره.....
- "هل تذكر ابن أحمد النجّار الذي اختفى منذ سنوات؟"
- "نعم أذكره، ولكن ما علاقته بالأمر الذي نتحدث فيه الآن؟"
- "كان في العاشرة من عمره، وإن بدا أكبر من سنه بكثير لقوة بنيانه.... لقد رأيتهم..... رأيتهم عندما خطفوه من داره!"
- "خطفوه؟! تقصد أنه خُطف من قبل الحشّا....."
- "قلت لك لا تستخدم هذا الاسم!" قاطعه خليل، ثم أخذ يتلفت من حوله قبل أن يكمل......
- "آذانهم في كل مكان، وهم يكرهون أن يطلق عليهم أحد هذه التسمية!"
- "ويحك يا خليل! كنت تعلم كل هذه السنين ما الذي جرى لابن النجّار، ولم تخبر أحداً؟! أبوه انفطر قلبه من الحزن عليه، ومات بحسرته!"
- "وما شأني في كل هذا؟! أنا رجل مسكين على باب الله..... هل

سينفع زوجتي أو عيالي أحد إن قتلوني عقاباً على الوشاية بهم؟!"

- "ولكن...."
- "ليس هناك ولكن! اسمعني جيداً يا صالح..... نحن مجرد رعايا هذه البلاد، ولا حول لنا ولا قوة، والناس على دين ملوكهم. إن أرادوا لنا أن نَتَسَنَّن، تسنّنا؛ وإن أرادوا لنا أن نَتَشَيّع، تشيّعنا؛ وإن أرادوا لنا......"
- " أن نكفر، كفرنا؟! أوَصَل بنا الحال إلى هذا الحد يا رجل؟!"

قام صالح الدبّاغ من موضعه غاضباً ممّا سمع، متكئاً على حائط الفرن، متبوعاً بخليل الفرّان.

- "أخفض صوتك! أخفض صوتك أيها الأخرق! ستقتلنا جميعاً!"

لم يأبه صالح الدبّاغ بتحذير صاحبه، وانصرف غاضباً من الفرن نحو داره، ضارباً يداً بيد، بعد أن ترك صديقه الفرّان يدور حول نفسه من فرط القلق..... لحظات قليلة، ثم نادى خليل ابنه سلمان الذي شاهد ما دار من حوار بينه وبين الدبّاغ دون أن يفهم شيئاً.....

- "أغلق الفرن، ثم انصرف أنت وعمر إلى المنزل."
- "إلى أين أنت ذاهب يا أبي؟" سأله ابنه متعجباً.
- "سأذهب إلى دارة العسس..... يجب عليَّ أن أبلغ عن ذلك المعتوه، قبل أن يَشْتَمّوا خبر ما قاله في الفرن، فنذهب جميعاً إلى الجحيم، ضحيةً لجنونه!"
- "ولكن يا أبي، ما الذي سيدريهم بما دار من حديث بينكما، وأبواب الفرن كانت مغلقة، ولم يوجد في المكان أحد غيرنا؟"
- "اسكت يا ولدي، فما أدراك أنت؟!..... إن لم أبلغ أنا عنه، أخشى أن يبلغ هو عنّي، بعدما يستعيد عقله!"

21

انتشر الخبر انتشار النار في الهشيم: لقد ظهر إمام الزمان ومعه جاءت القيامة! لم تكن هذه المرة الأولى التي تقوم فيها القيامة في دولة الحشّاشين، حيث جاء قبل ذلك أحد أجداد الإمام بمثل هذا الأمر، وسارت عليه باقي القلاع إلى أن ألغاه الإمام السابق الحسن بن محمد، معلناً توبته من هذا الهراء، وسار على نهجه ابنه علاء الدين محمد، حتى أعاد سيرة السلف. جميع كبار قلعة ألموت كانوا على دراية بهذا التاريخ الفاضح، ولكن أحداً لم يستجرِ على ذكره علانية، خوفاً من بطش إمام الزمان ورجاله الحشّاشين الذين ظهروا من جديد وعلى رأسهم جميعاً الحسن المازندراني الذي نصَّب نفسه حاجباً للإمام؛ هو فقط من يحق له رؤية صاحب الزمان والتحدث معه، ونقل أوامره إلى جميع الوزراء، والأمراء، وباقي القائمين على شؤون الدولة..... ولم تمض الأيام حتى بات الجميع يتحدث عن أول ظهوره في القاعة الكبيرة بقصر الإمام، عندما جيء بقاضي الشافعية جابر بن الأصمع وباقي القضاة والفقهاء وأئمة المساجد، من أجل محاجتهم جميعاً من قبل كبير الدعاة علي بن صيحون النزاري، لكي يقرّوا بإمامة علاء الدين محمد بن الحسن، وبقيامته التي جاء بها.....

كان رفض قاضي الشافعية قاطعاً، وكل من كان معه!

- "لا، والله.... إن هذا لهو الكفر البواح!"
- "بل الكفر هو إنكارك لحديث صحيح لرسول الله!" أصرّ كبير

الدعاة.

- "عن أي حديث تتحدث؟! هذا أنتم الذين وضعتموه!" جاءت إجابة جابر بن الأصمع.
- "بل هو صحيح السند، أخرجه الشيخ هارون بن مسكويه في صحيحه، ورواه عن علي بن الأبطح مسنوداً إلى رسول الله، وجميع رجاله ثقات."
- "أنا لا أعترف بهارون بن مسكويه هذا، ولم أسمع قط عنه أو عن راوٍ للحديث يُدعى علي بن الأبطح!"
- "جهلك ليس شفيعاً لك، ولقد أجمع علماء الأمة على صحيح هارون بن مسكويه! إنه أصدق كتاب بعد القرآن!"
- "أعوذ بالله، ماذا تقول يا رجل؟! كيف أجمع علماء الأمة عليه ونحن أمامك لا نعترف به؟!"
- "أنتم لستم من علماء الأمة، وقولكم لا يعتد به!"

استمر الحوار هكذا بين كبير دعاة الحشّاشين وقاضي الشافعية دون أن يصل أحد منهما إلى مراده؛ حتى عندما طلب القاضي الاحتكام إلى كتاب الله، أملاً منه في الاحتجاج به على ادعاء خصمه، قلب الآخر الطاولة عليه......

- "هل تؤمن أنت وباقي أهل السنة بظهور المهدي والمسيح الدجال، وعودة عيسى بن مريم في آخر الزمان؟" سأل علي بن صيحون جابر بن الأصمع، عندما فشل في التحدي بأن يأتي له بآية صريحة تبشر بقدوم إمام الزمان وقيامته المزعومة.
- "نعم أومن، ولكن ما علاقة هذا بما نتحدث فيه؟!"
- "إذن آتني بآية واحدة من القرآن ليس فيها لبس تؤكد هذه الأخبار."
- "لا يوجد.... هي من الأمور التي وردت في الأحاديث الصحيحة

عن رسول الله، عليه الصلاة والسلام."

- "إذن أنت تقر بأنه يجوز الاحتكام إلى الحديث الصحيح فيما يخص أحداث آخر الزمان، وإن لم ترد في القرآن! لماذا إذن تطالبني بحجة من القرآن على مسألة أنت تحتج بها من الأحاديث؟!"
- "الله أكبر!"
- "الله أكبر!"
- "العزة لإمام الزمان!!"

علَت هتافات الحشّاشين في القاعة الكبيرة معلنين انتهاء المناظرة التي تناقلتها بعد ذلك الأخبار، لينتشر أمرها بين الأهالي مع بعض التصرف في محتواها، لتتناسب مع الدعوة الجديدة القديمة. أمّا فقهاء السنة الذين جيء بهم إلى قلعة ألموت وملحقاتها منذ عقود عدة، فلم يُسمع لهم بعد تلك المناظرة من حس ولا خبر، وانقطع دابرهم من البلاد الّتي عادت إلى سالف عهدها كما كانت وأراد لها مؤسسها الحسن الصبّاح، أول الحشّاشين من الطائفة الإسماعيلية النزارية.

22

كم أشبه اليوم بالبارحة، وكأن الحياة ساقية تدور في مكانها، دون أن تبرحه..... كأن لا شيء يتغير، أخذ محمد الطوسي يخالج نفسه.... الناس يأبون إلّا أن يكونوا أذلة للمتكبرين وأعزة على الضعفاء! هكذا كان حالهم في مملكة خوارزم، وهذا هو حالهم في دولة الحشّاشين التي عادت من جديد بعدما ظن خطأ أنها قد زالت مع مجيء الإمام الحسن بن محمد إلى الحكم، وجعله من قلعة ألموت منارة للعلم والمعرفة بعدما كانت منشأ القتل وسفك الدماء. ما الذي جعله يأتي إلى هذه القلعة الواقعة في أعالي الجبال، غير مكتبتها التي أصبحت تضاهي مكتبة بغداد، وإمامها الذي فتح أبوابها لجميع العباد؟ لقد جاء إلى هنا منذ عدة أعوام، بعدما بدأ اسمه يلمع في شتى البلاد من بخارى إلى أصفهان، مروراً بسمرقند وطاشقند وتبريز ومراغة، ومسقط رأسه طوس. قدم إلى هذه البلاد عالماً من علماء الفلك والحساب، وفيلسوفاً يبحث عن الحقيقة المطلقة للكون وأسراره، وهو الذي شاهد في حياته ما لم يشاهده أغلب العباد. جاء إلى هذه البلاد محسناً الظن في إمامها الجديد، الذي بدا له أنه يسير على نهج أبيه الحسن بن محمد، وقد وجد بالفعل مبتغاه في أول الأمر، قبل أن يقوى نفوذ الحسن المازندراني، حاجب الإمام علاء الدين محمد بن الحسن..... وشتان ما بين الحسنين!

كيف لم يفطن إلى العاصفة القادمة من بعيد؟ كيف باغتته فجأة،

وآثارها كانت تلوح له في الأفق المديد؟! لقد كان قريباً من علاء الدين محمد بن الحسن كقرب وزيره وحاجبه إليه، ومع ذلك تغافل عن الواقع المحتوم، أو لعله لم يرغب في رؤيته..... فهل تغافل عنه عنية؟! هل أخذته حياة اللذة والنعيم هو الآخر، فتقاعس عن مشورة كان يجب أن يمنحها، أو رأي سديد كان من المفترض أن يدلي به؟ أم أن وفاة زوجته، وسقم ابنه الرضيع، قد جعلاه فاقداً للبصيرة، أو غير راغبٍ في الحياة.... أياً كان الأمر، فقد شعر في تلك اللحظة اليائسة بعدما فرغ من دفن ابنه البكر، وهو يرى شبح حياته السابقة يتمثل أمامه، بأنه قد أصبح أقرب إلى الذين يبغضهم، وأبعد بكثير مِمَّن كان يحب!

لم يكن في حاجة للتحدث أو البوح بأي شيء، فنظرته الثاقبة التي لم ينسَها محمد الطوسي قط، كانت كفيلة بالإفصاح عن أمر جلل سوف يكون..... كم من السنين قد مضت، وهو على ذات حاله دون أن يتغير، كما رآه أول مرة في بخارى، وكأن أنامل الدهر لم تتمكن منه فتركته وشأنه. عجيب هذا الرجل في ظهوره واختفائه. من أين يأتي وإلى أين يذهب؟ هو حتماً لغز من ألغاز هذا الكون؛ لغز لم يتمكن بعد من فك طلاسمه، وإن حاول في السابق أن يفعل دون أن يفلح.....

- "أنت!" كلمة يتيمة تمكنت من الخروج من فيه، تبعتها لحظات من السكون التام، وكأن كل شيء من حوله قد تبخر ولم يبقَ غيره في حضرة عبدالرحمن!
- "لله ما أخذ ولله ما أعطى." جاءت العبارة بصوته الهادئ النافذ، الذي يأبى إلّا أن يفرض نفسه على أي شخص يسمعه.
- "أنت!" كرّر محمد الطوسي الكلمة اليتيمة نفسها، وكأن باقي

مفردات اللغة قد تبخرت من ذاكرته.

- "إن كنت تسـأل، فنعم هذا أنا؛ وإن كنت تتعجب، فلعل هناك ما هو أدعى للتعجب من مجيئي."
- "بعد كل هذه السنين؟!" استطاع أخيراً أن يستعيد بعض الكلمات، لكي يعبر بها عن ذهوله في تلك الليلة القاتمة.
- "الزمن ليس إلّا كلمة يمتد أثرها على حسب قائلها. قد تعني لك الكثير، وقد تعني لغيرك القليل. هذه السنون التي تستكثرها أنت، هي بالنسبة إلي ليست سوى ومضة ما بين طرفة عين وانتباهتها."

هو عبدالرحمن..... ولم تكن ملامحه فقط الّتي لم تتغير بفعل السـنين، ولكن حتى حديثه المقتصد، الذي كانت كل كلمة فيه تُغني عن جُمل بَيّنة.... نعم، هو عبدالرحمن بلا شك، ولكن.....

- "ما الذي أتى بك إلى هنا الآن؟"
- "هل نسيتَ ما قلته لك قُبيل الفراق، على ضفاف نهر السند؟"

جـاءت الإجابـة فـي صيغـة سـؤال جعله يسـترجع ذكرى تسـعة وعشـرين عامـاً..... كيـف ينسـى لقـاءه الأخيـر معه، ومـا دار فيه من حديث لم يفهمه حتى هذه اللحظة؟!

- "بـل أتذكـره جيـداً..... قلت لـي: إن قدر الإنسـان ليس محكوماً باختياراتـه وحـده، بـل بمجمـوع اختياراتـه واختيـارات الآخرين، ولكنّ اختيار صاحب العزيمة الأنفذ تميل له باقي الاختيارات."

هز عبدالرحمن رأسـه، راضياً بما سـمع، ثم أدار ظهره لمحمد الطوسي، وكأنه رغب في الانصراف إلى حيث جاء....

- "إلـى أيـن؟! هـل جئت فقط لكي تسـألني عمّا قلتَـه لي منذ ثلاثة عقود؟!" تسـاءل محمد الطوسـي دَهِشاً لتصرف الرجل الذي ظهر في حياته فجأة ذات يوم، فرافقه، وتعلم منه الكثير قبل أن يفترقا.

- "بل جئت لكي أذكرك بأمر قد تناسيتَه، وإن كنت لم تنسَه." ما كاد ينهي عبدالرحمن جملته حتى توارى عن نظر تلميذه..... اختفى في جنح الليل فجأة كما ظهر!

23

تـوارى الإمـام عـن الأنظـار، وأصبح الحاجب هـو الآمر الناهي فـي قلعـة ألمـوت وتوابعهـا، بعدمـا فـرض نفسـه متحدثـاً وحيداً عن علاء الدين محمد بن الحسـن، الذي ما عاد يريد مقابلة أي شـخص وهو في خلوته المقدسة، ولا حتى باقي حاشيته. هكذا أفهم الحسن المازندراني الجميع، مسـتعيناً بسـطوة الحشّاشـين ودعاة الإسـماعيلية النزارية الموالين له؛ وهكذا بقوة السـلاح وسـطوة الدين اسـتطاع أن يتغلب على جميع خصومه، والسـيطرة على العامة من أهالي البلاد. من لم يقنعه خطاب الدعاة، كانت خناجر الحشّاشين كفيلة به من أجل إتمام المهمة..... فليس من حق أحد أن يفارق الجماعة التي فرضت واقعها على الساحة من جديد، أو أن يثير ما قد ينتج عنه الفتن! الكل يجب أن يكون على ذات الوتيرة..... صوت واحد لا ثاني له.

لكـن علـى الرغم من تلك السـيطرة المحكمـة، والواضحة جليّاً للعيان، إلّا أن أمراً واحداً ظل يؤرق الحسن المازندراني، ويقضّ عليه مضجعه..... العلاقة الوطيدة التي ظلت تربط الإمام علاء الدين محمد بن الحسن بعالم الفلك، وخصمه اللّدود، محمد بن محمد الطوسي!

* * *

- "ولمـاذا لا نقتلـه، فنسـتريح منـه ومـن ترهاتـه العقليـة؟! والله إنّ خنجراً مسـموماً من أحد أتباعنا في جنح الظلام، لكفيل بالأمر!" قال كبير الدعاة، علي بن صيحون النزاري، مخاطباً الحاجب في

قاعة الحكم بالقصر الكبير.

- "لو كان الأمر بتلك البساطة، لفعلتُها قبل أن تشير بها عليّ،" أجابه الحسن المازندراني بحنق لم يحاول إخفاءه، أو التظاهر بخلافه.....

- "ولكن الإمام لا يريد أن يمسه أحد بسوء، ولا نستطيع عصيان أمره."

أطلق ابن صيحون ضحكة مدوية، مستهزئاً بما سمعه توّاً من الحاجب وكأنها مزحة أعجبته، ثم قال:

- "ومنذ متى كان الإمام يملي عليك ما يريد؟! أتحسبني أبلهَ مثل باقي العوام، ولا أعلم بما يدور في كواليس القصر يا حسن؟!"

- "ويحك!! كيف تتجرأ وتخاطبني على هذا النحو؟!" انتفض الحاجب وقام من مجلسه بعد أن اشتاط غضباً ممّا قاله كبير الدعاة، ثم وضع يده على سيفه، وكأنه على وشك أن يسله من غمده، ناظراً إلى وجه رفيقه الذي ظل في مكانه غير آبه بمظاهر الثورة والغضب التي أبداها.

- "هيّا..... سل سيفك واضرب به عنقي، هيّا..... دع الحماقة تُنهي ما ظَللنا نُخطط له على مدى الأعوام المنصرمة، ونجحنا فيه أخيراً!"

عاد الحاجب إلى موضعه، وكأن بركان غضبه أخمدته كلمات كبير الدعاة الناجزة..... ثم بنبرة خلت من الرعونة أخذ يشرح له......

- "سطوتي على الإمام ليست بلا حدود يا ابن صيحون....."

- "والطوسي هو حدها؟" قاطعه كبير الدعاة ساخراً.

- "نعم..... الملعون لديه تأثير عجيب في الإمام، وكذلك في عدد كبير من كبار الحاشية، خاصة بعدما تنبأ بدقة بالغة بموعد كسوف

الشـمس الـذي حدث العـام الماضي..... باتـوا يعتقدون أن لديه قدرة عجيبة على قراءة النجوم والطالع، واستشراف المستقبل."

استرسـل كبير الدعاة مرة أخرى في الضحك لما سـمع، وكأن الأمر برمته لم يكن سوى مزحة أعجبته....

- "تقول لي: إن الكسوف الذي استخدمناه لتمرير النبوءة المزعومة هو نفسه ما يمنعنا الآن من الطوسي؟!"
- "نعم.... شيء كهذا." أجاب الحاجب بعد تردّد.
- "وماذا عنك أنت؟"
- "وماذا عنّي؟"
- "هل تظن أنت أيضاً أن الطوسـي يسـتطيع قراءة الطالع عبر النظر إلى النجوم؟"

بُهـت الحسـن المازندرانـي، فلـم يعلم كيف يجيب عن السـؤال الذي باغته من حيث لم يحتسب.... تردّد قليلاً، ثم قال:

- "إنـه غريـب الأطـوار.... منـذ قدومه إلـى ألموت، وأنـا حائر في أمـره. لا أعلـم لـه ملـة ولا صنعة. تارة تجـده يهتم بالفقه ويحاجّ بـه الشـافعية والاثنـا عشـرية، وتـارة أخـرى يهتم بالعقائـد فيحاجّ الإسماعيلية؛ هذا بجانب اهتمامه بالفلسفة والعلوم والفلك، ولكن كل هـذا قـد تغيَّـر، كمـا تعلم، بعدما توفيـت زوجته وهي تلد ابنه السقيم. لقد اعتزل الجميع منذ ذلك الحين، وخفتَ أثره، وإن بقي الإمام يحتفظ له ببعض الود.... وهذا ما يقلقني!"
- "ويقلقني أنا أيضاً.... دعوتنا لن تبقى إن تراجع الإمام عن موقفه منها. إن كان سيسـتمر الطوسـي في عزلته، فلا خوف منه علينا، ولكن إن عاد إلى سالف عهده.... فأنت تعلم ما الذي قد يحدثه من ضرر على الدعوة!"

- "نعم يا ابن صيحون.... أعلم جيداً ضرر عودته على الدعوة، وكذلك أعلم ضرر قتله من غير إذن الإمام!"

هز كبير الدعاة رأسه متأملاً ما قاله الحاجب.... هناك أكثر من طريقة للتخلص من شخص غير مرغوب فيه، فالقتل ليس الحل الوحيد، خاصة في مثل ظرف كهذا.....

- "حسناً، فلنقضِ عليه بطريقة أخرى دون أن نُزهق روحه."
- "فيما تفكر يا ابن صيحون؟" لوهلة شعر الحاجب بشيء من الريبة لجملة كبير الدعاة الأخيرة التي لم تخلُ من نبرة ماكرة.
- "أفكر في اللجوء إلى حيلة قديمة دائماً ما تنفع مع أمثاله من أصحاب الحُجَج: الطعن في شخصه أمام العامة!"
- "وهل تظنهم سيصدقون، خاصة عندما يكون الطعن من قبل خصومه؟"
- "صدقت، ولذلك لن يأتي الطعن من قِبَلي أو من قِبَل باقي الدعاة، بل من قبل البصّاصين المندسّين بين العامة. هم من سيزرعون بذور الشك في أمره بين الناس بعيداً عنّا، كما فعلوا مع مولوده عندما ماتت زوجته في يوم الكسوف."
- "ماذا؟ ذلك الأمر كان من تدبيرك؟!" فوجئ الحاجب ممّا سمع..... لطالما ظن أن التِهاء محمد الطوسي خلال العام المنصرم، بابنه العليل الذي رفضت كل مرضعات القلعة إرضاعه، كان من حسن الطالع الذي مكّنهم من الانفراد بالإمام علاء الدين محمد بن الحسن وإقناعه بتجديد الدعوة عبر إعلان القيامة!
- "وهل حسبت حقّاً أن دعوتنا علا شأنها بفضل المصادفات؟! نحن من نصنع طالعنا، وإلّا فما الفرق بيننا وبين العوام؟..... ولكن هذه المرّة الأمر قد يستغرق بعض الوقت، فأثر الطوسي في نفوس

الناس ليس كأثر مولود جديد، لا يألفه أحد، تسبب في موت أمه. المشكلة لا تكمن هنا، فالعوام أمرهم سهل، ولكن العلاقة الوطيدة التي لا تزال تربط الإمام علاء الدين بالطوسي هي ما أخشاها..... لذلك علينا أن نعمل من الآن على تهيئة إمام جديد ليس بينه وبين ذلك الملعون أي وئام."

- "تقصد خورشاه، ابن الإمام علاء الدين؟"
- "ومن أفضل منه؟ فلا يزال عوده طرياً وبالإمكان تشكيله كما نشاء بعيداً عن الطوسي وأشكاله؛ وفي اللحظة السانحة، نجعله يستبدل أباه. حينها فقط تكون دعوتنا قد وطّدت أركانها في جميع أنحاء الدولة!"

24

ماذا لو أنه استغل علمه بمجريات الأمور لتغيير الأحداث؟ أوليس بوسعه فعل ذلك: أن يصحح الخطأ ويجعله صواباً؟ ما الذي يمنع أن يصنع تاريخاً جديداً، أنصع بياضاً، وأزهى بريقاً، فتسير الأمور في مجرى آخر أفضل من ذلك الذي من المفترض أن تسير فيه؟!

- "ولمَ لا؟!" مرة أخرى أصرّت نوران دون أن تقتنع بأي من إجابات مراد. إصرارها في طرح تلك التساؤلات كان يزداد بشكل مطّرد مع سيرهما غرباً في طريق الحرير من أترار حتى بغداد، وجهتهما التالية التي من المفترض أن يجدا فيها مبتغاهما، ما جعل مراد يشك في براءة تلك الأسئلة، وكأنها أرادت أن تمهد الطريق حتى تطلب منه أن يساعدها لغرض ما يدور في خاطرها. جعله ذلك يفكر: إلى أي مدى كانت نوران على دراية بمآل أبيها محمود؟ هل أخبرتها ياسمي بكل شيء، أم أنها أغفلت بعض التفاصيل المؤلمة، حفاظاً على مشاعر ابنتها؟ انتابت مراد رغبة في تلك اللحظة بأن يسأل نوران مباشرة عن مدى درايتها بمآل أبيها، حتى يدرك حدود علمها، ولكنه تراجع في آخر لحظة...... آثر أن يبقى ذلك الباب مغلقاً، وإن بدا له وكأن رفيقة السير تحاول أن تجعله موارباً بعض الشيء.....
- "في الزمن الذي أتيت منه، تساءل بعض العلماء: ماذا لو استطاع شخص ما العودة عبر الزمن إلى الوراء؛ تحديداً إلى الوقت الذي

كان فيه جده صبياً قبل أن ينجب أباه، فقتله؟ هل سيتلاشى ذلك الشـخص مـن الوجـود لأن أبـاه لن يولد، ومن ثـم لن ينجبه؟ إن كانت الإجابة عن هذا السؤال بنعم فسيتلاشى، إذن من الذي سافر عبر الزمن وقتل الجد؟ وإن كانت الإجابة عن السـؤال بلا، فلن يتلاشى عن الوجود، فإذن كيف سيولد مستقبلاً من غير أب؟..... مفارقـة حيَّـرت الكثير من العقول، وجعلتهـم يتسـاءلون عن معنى القـدر ومعنـى الزمن، بل عـن معنى الحياة بأكملها؟" صمت مراد قليلاً قبل أن يكمل الخاطرة، حتى يعطي فرصة لنوران لكي تتأمل ما قاله.....

- "هناك أسئلة لا يوجد لها إجابات واضحة وشافية، كما أن بعض الأمور لا يمكن ضمان نتائجها."
- "تريد أن تقول لي إنك لن تحاول إنقاذ حياة أبي؟" فاجأه سؤالها الصريح الذي لم يتوقعه على هذا النحو! لقد أخبرتها ياسمي إذن بمآل محمود، ولم تخفِ عنها ذلك الأمر المرير..... كان شكه في محله؛ نوران أرادت منه أن يسـاعدها على تغيير مجرى التاريخ، وكأن لا شيء في الأمر!
- "نـوران..... مـا مـن شـيء أود فعله أكثر من إنقـاذ حياة محمود؛ ليس فقط من أجله، بل أيضاً من أجل ياسمي، ومن أجلك أنت كذلك..... ولكن....."
- "ولكـن مـاذا؟!" قاطعتـه دون أن تعطيه فرصة لكي يبرر موقفه من الأمر.....
- "ألم يفعلها عبدالرحمن أكثر من مرة مع أكثر من شخص؟! لماذا يجـب علينـا أن نختـار هذا القدر دون غيـره؟! ما الضير في إنقاذ حياة أبي؟!"

تلعثم مـراد، ولـم يعـرف كيـف يجيب عـن أسـئلتها النابعة عن انفعالهـا. كيـف يشـرح لهـا أن كل مـا قام بـه عبدالرحمن لا يتعارض مع التاريخ المعلوم عن هذه الحقبة من الزمن؟ بل هو في واقع الحال متمـاشٍ مـع الأحـداث إلى أبعد الحدود، وكأنه جزء من هذا التاريخ، وإن لـم يـرد لاسـمه أي ذكر..... لا يعلم كيـف ولماذا فعلها؟ ولكن هذا ما جرى؛ وإن الأمر مختلف كل الاختلاف مع أبيها! التلاعب في أقـدار الآخريـن، هـذا أمـر خطير! لذلك لـم تحاول ياسـمي إنقاذ حياة محمـود، وكان بإمكانهـا فعـل أكثـر من شـيء، بل هـي أبت حتى أن تبحث عنه، وتركت الأمر له ولنوران..... ما كاد مراد ينهي الخاطرة حتى أخذ يراجع نفسه، وكأنه تنبه لأمر جعله يتوجس ريبة!

- "هل سبق وتحدثت مع أمك في هذه المسألة؟" وجد نفسه يسأل نوران على الفور، دون مواربة. لوهلة تساءل مع نفسه إن كان كل هذا من تدبير ياسمي؟!

ترددت نوران قليلاً قبل أن تجيب عن سؤاله، وكأنها بترددها هذا قد يسحب مراد سؤاله فيعفيها عن حرج الإجابة عنه، ولكنها لم تجد بدّاً من إجابته عندما لاحظت نظرته المُصِرّة إليها......

- "نعـم تحدثـت!" نطقـت بتلك الجملتين ثم فجأة ترجّلت من على فرسها، لتبتعد عن مراد، معطية له ظهرها. سارت نحو تلة صغيرة على جانب الطريق فتسـلقتها. شـعر مراد برغبة ملحة في اتباعها، والتحـدث معهـا، ولكنه لم يفعل. احترم رغبتها في عدم إظهارها لحظة ضعف اعترتها..... الشـعور بالعجز شـيء مرير. فَهِم مراد على الفور بأنها تلقت الإجابة نفسها من أمها، وكأن أحداً لا يريد أن ينقذ أباها الذي لم ترَه حتى الآن؛ كما شعر بشيء من السخف، لأنه لوهلة شـكّك في نية ياسـمي، وكأنه لا يعرفها جيداً..... ثم

على الفور بدأ يدرك أمراً لم يخطر على باله من قبل، وهو ينظر إلى تلك الفتاة التي إلى ما قبل لحظات بدت عليها القوة والعزيمة ورباطة الجأش. أخذ يراها بمنظور آخر، وكأن غمامة فاصلة بينه وبينها قد انزاحت، فتساءل مع نفسه إن كانت هي من في حاجة إلى الإنقاذ مثله، وليس أبوها؟

* * *

ظلّت على حالها حتى دخول المساء. لم ترغب في مواصلة السير، كما لم ترغب في التحدث مع مراد حتى بعدما احترم رغبتها في الاختلاء بنفسها؛ فمثل هذه اللحظات هي التي تجعل المرء يقيِّم اختياراته ويضعها في نِصابها مع اختيارات الآخرين، ليكتشف أن الحياة ليست قائمة عليه وحده. اكتفى مراد بمراقبة نوران من بعيد حتى قامت من موضعها بعد مدة من الزمن لتأخذ حاجتها من على الفرس الأشهب، لكي تنصب خيمتها الصغيرة حتى تُلقي فيها جسدها المنهك من وعثاء السفر وحيرة البال، على خلافه هو الذي لم يكن جسده يخضع لمثل هذه الأمور الّتي تنال من عامة الناس.....

أخذ مراد يطوف حول المكان، مسترجعاً ذكرى رحلة مضت منذ سنين، كان فيها هو مجرد طيف إنسان. حينها كان عبدالرحمن هو الذي يقود، وهو الذي يطوف والآخرون نيام. كم تبدلت الأحوال الآن، وكم تبدل هو من هيئة ماسخة إلى أخرى لا يعلم مداها إلّا الله والراسخون في العلم، فأي شرنقة هذه التي تَحَوّل فيها؟!

في سكون الليل سر عظيم يجعله صافي الذهن، متجانساً مع المحيط من حوله، وكأنه في حالة انصهار تام مع نسيج الكون العظيم. الناس نيام وهو وأمثاله في حالة من اليقظة التي لا تشوبها غفلة.... أهذا جزء من السر العظيم؟ لعله كذلك، فكلما شعر بحالة

مـن عـدم اليقيـن، أتاه الخـلاص عبر ذلك السـكون الدفين..... كلما شعر بحالة من الضعف، مدّه الليل بقوة زادته بأساً على بأس.... وكما أصبح النهار مسرحاً لقدراته، أمسى الليل مخلداً لنجواه، وفي سكونه سلواه.... ووسط هذا السكون بدأ يسمع الهمسات....

- "إلـى أيـن؟" جـاءت الهمسـة الأولى في صيغة سـؤال من صوت مألوف، شبيه بصوت سبق وسمعه من قبل.....
- "إلى أي طريق يأخذني إليه، حتى استعيد ما سـلبه مني: دنياي." أجاب مراد وكأنه يخالج نفسه بين ثنايا الليل، دون أدنى انشغال بمنشأ الصوت الذي ظهر فجأة بين السكون.
- "أوليست هذه دنياك؟ كأنك تبحث عن أمر قد وجدته منذ زمن..... وكأنـك لا تعلـم بعـد، علـى الرغم من كل الـذي تعلمته...... لا تكتمل الحلقة إلّا به." باتت الهمسة أكثر وضوحاً، فبات الصوت أكثر أُلفة، قبل أن يختفي فجأة مثلما ظهر، دون أن ينتظر الإجابة كمـا فـي المـرة الأولى..... لسبب ما، لم يتعجب مـراد قطز لما حدث. لم تدهشه الهمسات بظهورها واختفائها، وبفحواها، وكأن الأمر برمته هو ضمن المعقول المنتظر، حتى وإن لم يفهمها تمام الفهم. يكفيه أنه شعر بها، وتحسسها، فبات لسبب ما يرى الوجهة التي يجب أن يتخذها.... منعطف لا بد منه لكي يكتمل سيره على الطريق.

فـي صبـاح اليـوم التالي، ذهب مراد إلى نوران بعدما اسـتيقظت من نومها. أراد أن يبلغها بخط سيرهما الجديد، وهو يعلم جيداً أنها لن تسعد بما سوف تسمع.....

- "مستحيل! أنت وعدتني ووعدت أمي بأنك ستأخذني إليه!" جاءت صرخة الفتاة فور ما سمعت قراره الجديد.

- "ووعـدي لكمـا قائـم، ولـن يتغيـر." أجابهـا بهدوء، غيـر مكترث بانفعالها.
- "إذن ما معني هذا المنعطف العجيب؟!"
- "هو كما وصفتِه: مجرد منعطف لا أكثر؛ لكن وجهتنا كما هي، لم تتغير."
- "ولكن.... ولكن لماذا؟! ما الذي سنجنيه من الذهاب إلى هناك؟ ولماذا قررت هذا الآن؟!"
- "لأن الحلقـة لـن تكتمـل إلّا بالذهاب إلى هناك." أجابها مراد من دون تردد، وكأن الإجابة عن سؤالها كانت حاضرة عنده، حتى من قبل أن تسأله.

25

لم يفهم الصبي عمر بن سلمان بن خليل الفرّان سر تغيير اسمه الذي اعتاد عليه منذ أن وعى على الدنيا، إلى علي؛ لكن إصرار جده خليل على هذا الأمر كان قد حسم الأمر دون أن تكون له الخيرة من أمره. بل حتى أبيه لم يستسغ هذا التغيير في بادئ الأمر، ولكنه رضخ كما رضخ الصبي، خاصة عندما وجد أن عدداً ممن كانوا يحملون مثل اسم ابنه قد تخلوا عنه إلى اسم أكثر ملاءمة للحال الجديد الذي أصبحت عليه قلعة ألموت وملحقاتها، بعدما أُعلنت القيامة من قبل دُعاة إمام الزمان، علاء الدين محمد بن الحسن، وأُسقطت التكاليف.... أناس واكبوا الأحداث مثل خليل الفرّان، فارتقى حالهم، وآخرون لم يفهموا ما الذي كان يجري فذهبوا في طيّ النسيان، مثل صالح الدبّاغ الذي أُخذ من داره ذات ليلة من قبل الشرطة، فكانت تلك الليلة آخر عهد أهله، ومن تبقى له من أصدقاء به.... وكحال الدبّاغ، كان حال فقهاء السنة وأئمة المساجد من الشوافع الذين كانت لهم اليد العليا إلى زمن ليس ببعيد، بعدما جُلبوا إلى قلعة ألموت في عهد والد إمام الزمان، الحاكم السابق الذي أصبح ذكر اسمه من المحرمات!

- "أتحسبان أن ما يحدث الآن أمر غريب؟ بل بحق إمام الزمان، ما كُنّا عليه في العهد السابق لهو الغريب العجيب!" قال خليل الذي أصبح في مدة وجيزة شيخ الفرّانين، موضحاً أمراً لابنه ولحفيده

ظنّ أنه خفي عليهما.....

- "إمام الزمان صحّح ما قام به أبوه، المُرتد الغابر، من كفر بواح..... لقد أخرجنا ذلك الكافر اللئيم من ملتنا وملة آبائنا وجلب لنا هؤلاء الشوافع ليفتنونا عن ديننا بهراءاتهم التي كانوا يلقنوننا إيّاها في المساجد؛ وكأن كل هذا لم يكفِه حتى أخذ يجمع الكتب من مختلف البلاد، لكي يُنشئ مكتبة يضاهي بها مكتبة عاصمة الكفر بغداد، فجعل من ألموت ملجأ الزنادقة والأفّاقين من أمثال الطوسي!"
- "ولكنك يا جدي كنت حريصاً على الذهاب إلى المسجد، وكنت تلومني إذا تأخرت عن الصلاة؟" تساءل الصبي ببراءة جلبت له نغزة من أبيه.
- "ها؟!...كانت.... كانت تلك.... كانت تلك تقية يا علي..." تلعثم خليل قليلاً قبل أن يجد ما يجيب به عن سؤال حفيده....
- "يتحمل وزرها من أرغمنا على ترك ملة آبائنا، لعنة الله عليه!"
- "هيّا يا علي، دعنا نذهب ونترك جدك لكي يرتاح."

أمسك سلمان بيد ابنه، ثم استأذن من أبيه قبل أن ينصرفا من داره الجديدة التي اشتراها من شيخ الفرّانين السابق بنصف ثمنها بعدما آثر ترك ألموت، لعدم قدرته على ملاءمة النظام الجديد والسير على ركبه كما فعل خليل وغيره.

- "سِر في رعاية إمام الزمان يا ولدي، ولا تنسَ المرور غداً على من لم يدفع الضرائب من الفرّانين..... هؤلاء الأوغاد إن أظهرت لهم اللّين، حسبونا ضعفاء، ونحن لسنا بضعفاء!"

26

لم تعد قلعة ألموت قادرة على استيعاب المزيد من الناس، بعدما اكتظت شوارعها وخاناتها وبيوت الهوى فيها بمن قدموا إليها من كل حدب وصوب؛ فجاء الأمر من قصر الإمام بغلق أبوابها أمام قوافل القادمين. أصبحت القلعة محاصرة من قِبَل جيوش طُلّاب المُتع الّتي حلّلها إمام الزمان، فمن أراد الولوج إلى "الجنة الموعودة" فعليه أن ينتظر حتى يُؤذن له.....

- "معقل الحشّاشين الإسماعيلية؟!.... حقّاً؟!!" لم تحاول نوران إخفاء تضجرها، حيث لم تعلم أي الأمرين أسوأ: قرار رفيقها المفاجئ على تغيير مسار سيرهما عبر طريق الحرير دون أخذ رأيها وكأنها مجرد إمَّعة تسير معه، أم أخذه إيّاها إلى هذا المكان الموحش الذي سمعت الكثير عن شرور رجاله عبر التاريخ منذ أن أسّس فيها دولته الحسن الصباح، قبل قرنين أو أكثر!
- "ما الذي يوجد هنا في هذا المكان يستحق المجيء إليه، والانتظار مع كل هذه الأمم من أجل أن يُسمح لنا بالعبور عبر بوابته؟!"
- "لسنا في حاجة للانتظار لكي ندخل ألموت."

أجابها مراد بأريحية، غير مكترث بنبرتها الغاضبة، ثم فجأة أمسك بمعصمها. شعرت نوران بدهشة تعتريها لهذا التصرف الغريب، وقبل أن تبدي أي اعتراض، سرعان ما زالت تلك الدهشة العابرة واستُبدلت بشيء لم تجد له وصفاً هو أشبه بحالة ما بين النوم واليقظة، لتجد

نفسها على الجانب الآخر من أسوار القلعة المنيعة!

- "يا إلهي!" صرخت نوران بعد حالة من القيء العنيف انتابتها، بعدما استعادت كامل وعيها، وكأنها أبحرت على متن سفينة رخوة، فلاطمتها أمواج عاتية.....
- "ما هذا الذي فعلته بي؟!"
- "المعذرة..... لم أظن أنك ستصابين بدوار شديد..... حسبتك لن تشعري بشيء."
- "قلت لك من قبل: إني لست مثلكم! لا تفعلها مرة أخرى معي!!"

لم يجب عليها مراد، وتركها حتى تهدأ. آثر أن يكمل سيره إلى الوجهة التي أرادها، مدركاً أنها ستلحق به، حيث لا خيار لها في هذا المكان غير ذلك.....

* * *

لم يتنبه أغلب المارة إلى الوافدَيْن الجديدين إلى عالمهم، وإن لاحظ بعضهم تلك المرأة اليافعة الّتي تحمل السيف والخنجر في خصرها، دون أن يعيروها اهتماماً كبيراً؛ فمنذ إعلان القيامة في قلعة ألموت وجميع أشكال البشر يتوافدون عليها، وما هي بالنسبة إليهم إلّا واحدة منهم، حتى وإن بدا عليها شيء من الخشونة.

- "كل ما تشتهيه الأنفس من أطايب الطعام والشراب من أيادي الحور الحسان.... كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تفعلون." قاطع صاحب إحدى الحانات سير مراد، مُلحاً عليه أن يدخل إلى جنته المُصَغَّرة....
- "وكل هذا بثمن زهيد من أجل خاطرك أيها الرجل الصالح."
- "لم أكن أعلم أن الولوج إلى الجنة أصبح مقابل بضعة دراهم." ردّ عليه مراد متهكماً.

- "بل مقابل دينارين يا سيدي، فلن تجد في أنحاء ألموت أجمل من نسائنا، ولا ألذ من خمرنا، ولا حتى أشهى من طعامنا!" صحّحه صاحب الحانة.
- "أظن أن لديكم كذلك ولداناً مخلدين من أجل النساء الصالحات؟" تساءل مراد مشيراً إلى رفيقته التي لم يتنبه إليها صاحب الحانة في بادئ الأمر.
- "ماذا؟!" بادرت نوران بالاعتراض على ما قاله مراد، ولكنه سارع بمقاطعتها قبل أن تكمل احتجاجها، ليستمر في نقاشه مع صاحب الحانة.....
- "أم أن جنتك فقط من أجل الرجال؟"
- "أبِها علة هي؟" همس صاحب الحانة في أذن مراد، مقترباً منه حتى لا تسمع.
- "على حد علمي لا." أجابه بعدما التفت إلى نوران، متظاهراً بتفحصها مرة أخيرة قبل أن ينطق بشهادته رداً على استفسار صاحب الحانة.
- "إذن ما الذي يجعلها تدفع المال فيما تستطيع الحصول عليه من دون مقابل، بل وتتقاضى عليه بعض الأجر إن رغبت؟!"
- "خسئت أيها القوّاد!" صرخت نوران في وجه صاحب الحانة بعد سماعها لأطراف الحديث، ما بدوره استثار الرجل، فأخذ يبادل صراخها بصراخ أعلى.....
- "أنا قوّاد أيتها العاهرة؟! اغربي عن وجهي الآن وإلّا....."

ما كاد صاحب الحانة يفرغ من تهديده حتى وجد خنجراً، نصله الحاد يلامس عنقه الممتلئ! في لحظة خاطفة تحول جل غضبه السابق إلى خوف من أن تكون هذه هي نهاية حياته الّتي حسب،

حتى تلك اللحظة البائسة، أنها ستمتد بضعة عقود أخرى؛ فأخذ بنبرة ذليلة يتوسل......

- "سيدتي!.... أرجوك يا سيدتي....."
- "سيدتك؟! الآن أصبحت سيدتك، وقبل قليل كنت عاهرة؟!"

اختلس صاحب الحانة نظرة نحو رفيق المرأة التي باتت حياته رهن حركة بسيطة من معصمها، راجياً إيّاه التدخل من أجل إنهاء هذا الموقف العصيب! لكن مراد ظل صامتاً في مكانه، وكأنه غير راغب في التدخل، تاركاً الأمر يسير في مجراه، خاصة وأن عدداً من المارة تنبهوا للعراك القائم في هذا الركن من قلعة ألموت، فلم تمضِ لحظات حتى جاء ثلاثة من العسس على عجل، متجهين نحو الحانة على وجه الخصوص، وكأنهم أُخبروا بما كان يجري......

- "ألقي بسلاحك الآن!" صرخ أحد العسس شاهراً سيفه نحو المرأة الغريبة عن المكان.

التفتت نوران إلى الرجال الثلاثة الذين ظهروا فجأة، وأحاطوا بها. لوهلة فكرت في التترس خلف صاحب الحانة، حتى تتمكن من سل سيفها دون أن يعيقوها، فتتمكن من مجابهتهم على قدم سواء..... لم يبدُ لها هؤلاء الثلاثة من نظراتهم المضطربة أنهم ممن تمرسوا على القتال؛ بإمكانها التغلب عليهم إن أرادت، على الرغم من عددهم، ولكن ليس بالخنجر وحده الذي كانت تمسك به في تلك اللحظة! ومثلما حدث قبل ذلك عند خيمة المماليك على مشارف أترار، وجدت نوران حاجزاً يعيقها عن خصومها.....

أمسك مراد بمعصمها، مُزيحاً الخنجر عن رقبة صاحب الحانة الذي ما إن وجد فرصته حتى قفز نحو العسس، شاهق الأنفاس، مرتعد الفرائص.....

- "أرادت ذبحي! بحق إمام الزمان، هذه المجنونة أرادت ذبحي!"

نظرة حانقة ألقت بها نوران نحو مراد، بعدما أضاع عليها فرصتها الوحيدة من أجل مواجهة العسس! هل أراد إنقاذ نفسه على حسابها؟! ألهذا تدخل من أجل صاحب الحانة؟! أياً كان السبب، إلّا أن صنيعه لم يشـفع له عند العســس، حيث اقتادوه هو الآخر إلى ســجن القلعة، مكبّلاً معها، بعدما جرّدوها من سيفها ومن خنجرها....

27

- "يـا لـك مـن وغد!" قالت لمراد بنبرة غاضبة، ثم أدارت له ظهرها وأخذت تضرب على حائط الزنزانة بيديها العاريتين، وكأنها أرادت أن تخترق بهما الجدران الحجرية إلى خارج السجن.....
- "حذَّرتـك مـن الإتيـان إلى هـذه القلعـة الملعونـة! حذَّرتك، ولم تستمع إليَّ!"
- "هـل أخطـأتُ التوقيت، أم أنّي أخطأتُ المكان؟" لم يكن سـؤاله موجهاً إلى نوران، بل كان مراد مسـتغرقاً في محادثة نفسـه دون الالتفات كثيراً إلى التأنيب الذي تلقاه قبل قليل....
- "كان من المفترض أن يكون هنا."
- "عمَّـن تتحـدث؟! مـن الـذي كان من المفتـرض أن يكون هنا؟!" سـألته نوران قبل أن تنتبه إلى أمر آخر، أفصح عنه مراد دون أن يصارح.....
- "مهـلاً...... هـل تقصـد أنـك تعمدت المجيء بنـا إلى هنا؟! إلى هـذه الزنزانـة القذرة؟!" أخذت تتسـاءل بغضـب، ودون انتظار رد منه، استمرت......
- "أنـت تعمـدت إذن اسـتثارتي أمام ذلك القـواد! حديثك معه كان لغرض أن أُشهر الخنجر في وجهه حتى يمسك بنا العسس، أليس كذلك؟!"

نظر إليها مراد، وكأنه فجأة تنبه لوجودها.....

- "تفاصيل صغيرة..... تُرى من بعيد دون أن تعني الكثير، ولكن عن قريب الأمر يبدو أكبر بكثير ممّا قد يتوقعه المرء."

بادلته نوران نظرة بنظرة، عاقدة حاجبيها، دون أن تُخفي تضجرها من حديثه المفعم بالألغاز.....

- "حقّاً؟! الآن، وفي هذه الظروف تريد أن تتأمل أسرار الحياة وخباياها؟! لديّ اقتراح جيد لك؛ قم بأفاعيلك العجيبة، وأخرجنا من هذه الزنزانة، ثم أعدك بعد ذلك بأن نتحاور في معنى الحياة والكون وكل الذي تريده!!"

هزّ مراد رأسه، ثم أجابها بنبرة هادئة.....

- "لا أستطيع."
- "ماذا تقصد بأنك لا تستطيع؟! بل تستطيع..... لقد رأيتك أكثر من مرة تفعل الأعاجيب! أخرجنا من هذه الزنزانة كما أدخلتنا عبر بوابة القلعة!"
- "لو كان بوسعي لفعلت، ولكني لا أستطيع."
- "كيف؟! ما الذي جرى لك؟!! هل فقدت فجأة قدراتك؟! هل سحرك هؤلاء الحشّاشون؟!!" لم تحاول نوران إخفاء قلقها الشديد ممّا قاله مراد.... فآخر ما كانت تتمناه أو تتصوره أن تقضي بقية حياتها في زنزانة بقلعة ألموت، معقل الحشّاشين!
- "لا، بل القدرة قائمة ولم تَزُل."
- "ما خطبك إذن؟! هل تود البقاء هنا في هذا المكان؟!!"
- "المشكلة ليست في القدرة..... المشكلة تكمن في الاستطاعة. لقد أخطأتُ التقدير.... وليس بوسعي الآن فعل أي شيء قبل أن يُصحح المسار."
- "أخطأت التقدير؟!" ردّدت نوران، وقد شعرت بالهلع ممّا قاله

مراد..... فإن لم يكن باستطاعته أن يخرجهما من هذه الزنزانة، فهذا يعني شيئاً واحداً: لقد أصبحا تحت رحمة الحشّاشين بقلعة ألموت!!

28

نظر الحسن المازندراني إلى كبير الدعاة، وكأنه يشير إليه بأخذ زمام الحديث، فلعلّه يفلح فيما فشل هو فيه من إقناع الإمام علاء الدين محمد بن الحسن بالسماح له بالتخلص من خصمه العنيد الذي رفض أن يرضخ كما رضخ الباقون، ولكن إمام قلعة ألموت وملحقاتها أصر على موقفه، رافضاً بشكل قاطع أن يُمس محمد الطوسي بأي سوء، مكتفياً فقط بحبسه في القصر، على مقربة منه، فيضمن بذلك بُعده عن العامة، دون أن يحرم نفسه من خدماته العظيمة التي لا يود الاستغناء عنها بعد....

- "تخلص منه يا مولاي، فبقاؤه لن يجدي أحداً نفعاً. ولاؤه لن يكون أبداً لك."
- "أحضر لي يا ابن صيحون من هو في مثل علمه، ولك ما تريد أنت والحاجب..... ولكنك لن تقدر، أنا على ثقة من ذلك."

شعر كبير الدعاة بشيء من الحرج، فكيف يجيب عن تحدي الإمام وهو محق فيما قال.

- "إنه يا مولاي ليس بذي علم كبير كما تظن." قرر الحسن المازندراني أن يسترجع زمام الحديث مرة أخرى من كبير الدعاة علي بن صيحون، بعدما استشعر عجزه في إقناع الإمام.....
- "بل في بعض حديثه شيء من الجنون! ألم يدَّعِ أن الأرض مستديرة، وأنها تدور في فلك مرسوم حول الشمس!"

- "بحق إمام الزمان، إن هذا لهو عين الجنون!" أضاف كبير الدعاة بحماسة، مؤازراً الحاجب.....
- "نُكَذِّب أعيننا التي نرى بها عند كل مشرق شمسٍ ومغربها كيف أنها هي التي تتحرك حول أرضٍ ثابتة، ونصدق ذلك المعتوه؟! لو أن الأرض هي التي تتحرك، فلماذا لا نشعر بحركتها تحت أقدامنا؟!"
- "صدقت يا ابن صيحون. زادك الله علماً على علمك." قال الحسن المازندراني جملته ثم صمت، مُمْهلاً الإمام فرصة لكي يفكر فيما قيل.... لحظات قليلة عدَّت قبل أن يواصل الحاجب حديثه، بعدما شعر بأنه لعلّه الآن قد يحصل على ما يريد، فيتخلص من سطوة خصمه اللدود عند الإمام.....
- "مولاي، الأمر لك أنت من قبل ومن بعد، ولكن من أجل مصلحة الدعوة، ومن أجل بقائها، وحتى لا نعود مرة أخرى إلى ذلك الزمان الذي ولّى وزال، فعلينا أخذ الحذر من أمثال محمد الطوسي."

ابتسم الإمام وهو يقوم من فوق عرشه الذي ظل فيه طيلة الحديث الدائر، قبل أن يجيب عما سمعه من حاجبه الحسن المازندراني وكبير دعاته، بنبرة فيها شيء من السخرية والتعجب....

- "تقولان إنه ليس بذي علم، ثم تخشيان على الدعوة منه.... أوليس في هذا شيء من التناقض؟"
- "مولاي الإمام.... إني لا أخشى على الدعوة من علم الطوسي، وهو ليس بذي شيء كما أشار كبير الدعاة، ولكني أخشى عليها من فصاحة لسانه، وتلاعبه بالحجج والبراهين في غير الحق. العامة يا مولاي لا يفرقون بين الطَّيب والخبيث، وعلينا أن نحميهم

من أنفسهم، حتى لا ينزلقوا في وحل من المُنكرات. لذلك علينا التخلص منه، من باب سد الذرائع."

- "سـد الذرائـع؟ كأنـك يـا أبا علـيّ أصبحت تسـتخدم ألفاظ أهل السنة!"
- "لعلهم أصابوا في هذه يا مولاي، وإن أخطؤوا في كل ما عداها."

أدار الإمـام عـلاء الديـن محمـد بـن الحسـن ظهـره متجهاً نحو الستـار الـذي يفصـل القاعـة عن ردهة تقود إلى حديقـة البلاط، دون أن يعلق على جملة الحسن المازندراني الأخيرة، وكأنه سئم من هذا الحديث الذي طال عن حده..... لحظات، ثم اختفى الإمام من قاعة العـرش، تـاركاً حاجبـه مع كبير دعاته ينظران إلـى بعضهما، في حالة من الوجوم.....

- "تباً له من عنيد!"
- "احـذر يـا حسـن..... قـد يصلـه تذمـرك منه." قـال كبيـر الدعاة مستشعراً شيئاً من الحرج.
- "على رسلك يا ابن صيحون، كأنك نسيت أني الحاجب، ولا شيء يصله إلّا بإذني....."

رفع الحسن المازندراني كفيه إلى خلف رأسه، مقترباً من العرش الذهبـي المُطعـم بالمـاس والياقوت والمرجان. أخـذ يتأمل فراغه من صاحبه الذي ذهب لكي يسـتجم مع جواريه، مدركاً أنه فور ما يفرغ من ملذاته، فلن يتوانى في طلب محمد الطوسـي حتى يقرأ له طالعه عبر نجوم الليل.....

- "ما حسبت أن سطوة الطوسي عليه قد وصلت إلى هذا الحد. جُلّ همّي كان الوزير مهيب الدين، ولكن الملعون غافلني وتحرك في الخفاء من ورائه! خطأ لن يتكرر بعد ذلك."

- "حذّرتك منه أكثر من مرة. قلت لك إنه غير واضح المذهب أو العقيدة، بجانب أنه كان من المقربين من مهيب الدين. كان يجب علينا التخلص منه، كما تخلصنا من الوزير."
- "لـو فعلنـا لشـك الإمام في الأمر، وما ظـنّ أن موت وزيره نتيجة لمرض ألم به."
- "ومـا العمـل الآن؟ تقـارب الإمام من الطوسـي قد يهـدّد دعوتنا، فيعود بنا الحال إلى سابق العهد!"
- "أنت تبالغ يا ابن صيحون، فالأمر لن يصل إلى هذا الحد أبداً. من يتذوق طعم إمامة الزمان وحلاوته، فلن يقبل بأقل من ذلك مهما كان..... جل ما يستطيع فعله الطوسي هو فقط إبطاء المسيرة لا أكثر، ولكنه لن يستطيع إيقاف القافلة، خاصة بعدما أعلنّا القيامة. ثم لا تنسَ أن الطوسي لم يعد هو ذلك الشخص الذي كان عندما جـاء إلـى ألمـوت فـي زمن الوزيـر مهيب الدين. لقـد هدّه موت زوجته، وما أصاب ابنه من السقم حتى مات هو الآخر.... ومع ذلك سوف آخذ كل الحيطة والحذر منه، وسأجعل لقاءه مع الإمام علاء الدين تحت مرامي العيون الّتي تدين لي بالولاء."
- "ثقتك هذه تطمئنني بعض الشيء يا حسن، ولكنّي مع ذلك أفضل أن نقطع دابر ذلك الطوسي كما فعلنا مع الآخرين، فنبيت مرتاحي البال، دون أن يؤرقنا شيء."
- "سيحدث يا ابن صيحون، سيحدث، ولكن ليس الآن؛ ولن يكون الطوسـي هو فقط من سـيقْطع دابره من قلعة ألموت.... سـوف يحدث كل ما يسـرك، عندما تفرغ من تلقين الصبي خورشـاه بن علاء الدين محمد، فيكون أهلاً لإمامة الزمان عوضاً عن أبيه."

تلعثم كبير الدعاة بعض الشـيء قبل أن يجيب عما قاله الحسـن

المازندراني، ثم بادر بنبرة قلقة.....

- "قـد يسـتغرق ذلـك المزيـد من الوقـت، فالصبي ليـس..... ليس بذلك النبيه..... الأمر قد يستغرق بضع سنين قبل أن يكون جاهزاً للأمر."

ابتسـم الحاجـب لمـا قالـه كبيـر الدعـاة، فاقترب منـه رابتاً على كتفه......

- "لا ضير في عدم نباهته يا ابن صيحون، بل هو عز الطلب، لكي يصبح مطواعاً كالعجين في أيدينا. لا حاجة لنا بإمام نبيه، فيكفينا أن نكون نحن النبهاء."

29

مسالك العارفين ليس لها عنوان، لأنها تختلف باختلاف السائرين عليها، ولكل واحد منهم مسلكه، فهل ضلّ هو الطريق؟ هل فقد بوصلته التي استشعرها في ذلك اليوم الذي تجسد فيه على مشارف أترار منذ سنين؟ لم يكن عجز مراد قطز متعلقاً بعدم القدرة على فك باب الزنزانة المصفد، أو تجاوز الحرّاس بحرابهم وسيوفهم المسلطة على رقاب الوافدين إلى هذه البقعة الدنيئة من قلعة ألموت، سواءً كانوا مذنبين أم أبرياء؛ ولكن منبع عجزه أنه لأول مرة منذ أن خطى بقدميه على الطريق، شعر بخلل عندما أخذه طريقه إلى زنزانة لم يكن يحسبها خاوية!

- "ما السر وراء السجون؟" فاجأته بالسؤال بعد صمت طال أمده حتى ظن أنه لن ينقطع حتى يُخرجها من هذا المكان الموحش.....
- "لماذا أغلب لقاءاتكم لا تتم إلّا فيه؟ لقاؤك مثلاً مع ذلك العوّاد الذي أخبرتني عنه في سجن مدينة مراغه، وأمي مع جُلّاب المُبَخّر في سجن تلك المدينة العجيبة، وعبدالرحمن مع محمد الطوسي في سجن بخارى..... أظن أنك تعمدت دخول السجن هنا من أجل لقاء شخص ما على هذا المنوال العجيب الذي لا أجد له مبرراً..... أقصد لماذا لا تلتقون في منزل أو حانة أو حتى على قارعة الطريق كما حدث بينك وبين عبدالرحمن قبل أن تتجسد، أم أن أجسادكم لا تلتقي إلّا في السجون؟!"

ابتسم مراد ممّا قالته نوران؛ لقد ورثت حتماً ذكاء أمها ودهاءها، وإن لم ترث قدراتها.....

- "المرء يختار الطريق الذي يسلكه، ولكنه لا يختار عوائقه ومنعطفاته.... ودروب الحياة ما هي إلّا جمع من الاختيارات وما ينتج عنها من تفاعلات. موجات تتفاعل مع بعضها، كموجات ماء البركة عندما يُلقى فيها الحجر."
- "ولكن كل شيء يسير وفقاً لميزانه المعلوم، أوليس هذا ما علّمك إياه عبدالرحمن؟"
- "عبدالرحمن ليس بأعلم أهل الأرض كما قد تظن أمك ياسمي. لقد رأيت ضعفه..... رأيت من تغلب عليه."
- "ومع ذلك تمكن ممّا لم تتمكن أنت منه....."

نظر مراد إليها، مستعجباً ما قالته؛ ولكن نوران لم تمهله فرصة للتعليق، حيث سارعت هي.....

- "تفاعل مع دروب الحياة بجميع منعطفاتها، فكان اختياره هو الفاعل على الرغم من اختيارات الآخرين."
- "عبدالرحمن ليس على علم بكل شيء، مهما بلغت قدراته." وجد نفسه يقول، تعليقاً على ما سمع.
- "وهل يوجد من يحيط بكل شيء غير الله؟ العلم بالتعلم، وليس كل علم يقود إلى المعرفة."

اقترب مراد من نوران، فأخذ يمعن فيها النظر، وكأنه يرى أمامه شخصاً آخر وقد تجسد أمامه غير تلك الفتاة المندفعة التي اصطحبها معه في رحلة بدأت من مدينة سراي، عاصمة خالها باتو خان. لم يشعر بنفسه وقد خرج منه السؤال.....

- "متى اكتسبتِ كل هذه الحكمة؟!"

ابتعدت نوران قليلاً من مراد بعد أن شعرت بشيء من الحرج. لوهلة تناست أين هي، فأزاحت من خاطرها سوء المنقلب، وبنبرة لا تخلو من الخجل أجابت عن سؤاله المفعم بالمديح......

- "أنا ابنة ياسمي، أم أنك نسيت؟"

لحظات قليلة من الصمت، التقت فيها الأعين على الرغم من عتمة المكان، وكأن كُلّاً من نزيلي الزنزانة كان يرى الآخر لأول مرة. رأى مراد الحكمة من وراء القوة، ورأت نوران حيرة الباحث على الرغم ممّا أوتي من القدرة..... لم تكن هي عاجزة عن التأمل، ولم يكن هو قادراً على كل شيء!

أصوات أقدام من خارج الزنزانة تدك على الأرض الحجرية أزاحت من طريقها الصمت الذي عم المكان، ثم فُتح الباب المصفد، ليدخل منه أحد الحُرّاس راسماً على وجهه ملامح القرف من حياته البائسة التي اضطرته إلى أن يعمل هنا......

- "هيّا اخرجا! هيّا، لا تُضَيّعا وقتي!"

نظرت نوران إلى رفيقها دون أن تخفي دهشتها....

- "أهذا من صنعك أنت؟" سألته بصوت خافت.
- "لا." أجابها دَهِشاً هو الآخر لما كان يحدث.
- "ما خطبكما؟! هل أعجبتكما هذه الزنزانة فلا تودان الخروج منها، أم ماذا؟!" صرخ الحارس ثم أضاف متهكماً.....
- "لعلّها فرصة وجدتماها للاختلاء ببعضكما..... هَيّا! هذه ليست الحانة التي جئتما منها! من حسن

حظكما أن صاحبها تنازل عن حقه مُدعياً أن الأمر لا يعدو أن يكون سوى سوء تفاهم بسيط، وإلّا

لبقيتما هنا إلى أبد الدهر!!"

* * *

انطلقا نحو الحانة دون مراعاة ما حدث في اليوم السابق ما أدّى بهما إلى السجن. أراد مراد أن يعرف سر تبدل حال صاحب الحانة، وكذلك نوران حيث لم تعارض الذهاب إلى هناك هذه المرّة لِما تملكها من فضول هي الأخرى جعلها تنساق وراء رفيقها إلى مكان شعرت بعفونته، فكرهته كما كرهت السجن الذي باتت فيه....

لم يصدق صاحب الحانة عينيه في بادئ الأمر، وهو يراهما مقبلين نحوه من جديد، خاصة بعد الذي جرى بينهما من قبل!..... "بحق إمام الزمان، ما الذي أتى بهما مرة أخرى؟!"..... لم ينتظر حتى يتلقى الإجابة عن سؤاله، فسارع نحو باب الحانة ليفر منهما إلى الداخل، ولكن مراد كان أسرع منه..... لم يفهم كيف استطاع ذلك الرجل الغريب عن القلعة اللحاق به على هذا النحو، وبهذه السرعة، فمنعه من الولوج إلى الداخل!

- "ماذا تريد منّي؟! ألم أخرجكما من السجن؟! ماذا تريد بعد؟!!"
- "هذا ما جئتك من أجله..... ما الذي جعلك تفعل ما فعلت؟"
- "طيبة قلبي."

أجاب صاحب الحانة، ولكن مراد لم يقتنع بتلك الإجابة فأصرّ عليه مرة أخرى.....

- "أريد منك إجابة شافية عن سؤالي."
- "حسناً! ولكن لا تجعلها تقترب مني!" قال مشيراً إلى نوران عندما لمحها تخطو نحوه.
- "لن تؤذيك، أعدك بذلك، ولكن عليك أن تَصْدقني القول..... مرة أخرى، ما الذي جعلك تحرص على فك أسرنا؟"

تردّد صاحب الحانة قليلاً، قبل أن يجيب عن سؤال مراد، وكأنه احتار من أين يبدأ، أو ماذا يقول؟....

- "إنـه.... إنـه ذلـك العوّاد! لا أدري مـاذا فعل بي؟ فجعلني أذهب إلى رئيس الشرطة كشخص مسلوب الإرادة!"
- "عوّاد؟ عمَّ تتحدث؟" تساءل مراد، وقد تعجب مما سَمِع، حيث لم يتوقع هذا الرد على سؤاله.
- "لم أرَه من قبل، ولكنه دخل الحانة في الصباح وعرض عليّ أن يسمعني آخر أغانيه دون مقابل، عن رجل كان وزيراً في غرناطة، ثـم تـرك كل جاهـه ليبحـث عن الطريـق، فقاده دربه إلى أسـواق مكناس حيث نظّم هذه القصيدة التي سـمعها العوّاد منه فأعجب بها ولحنها..... أصدقك القول أيها الغريب: إني لم أسـمع طيلة حياتي أي شيء كهذا الذي أسمعني إيّاه ذلك العوّاد، لا من حيث اللحـن، أو امتزاجـه مـع الكلمـات، وكأنهمـا وُجِدا مـن أجل أن يخرجا من فم ذلك الرجل على عوده. ما إن فرغ، حتى شـعرت بنفسـي راغباً في الصفح عنك وعن تلك المرأة الشرسـة صاحبة الخنجر!"

ترك مراد الرجل ليدخل إلى حانته، ثم مع نفسه أخذ يردّد متعجباً مما سمع.....

- "سابح العوّاد؟! معقول؟!!"
- "أهو نفسه الذي التقيته قبل سنين في سجن مراغة؟" سألته نوران، وقد سمعت ما دار من حديث بينه وبين صاحب الحانة.
- "في الغالب هو، ولكن ما الذي أتى به إلى هنا؟ حتماً الأمر ليس بالمصادفـة..... مـا فعله مـع صاحب الحانـة..... كأنه أراد....."

صمت مراد ليتأمل ما أخذ يتشكل في خاطره.

- "كأنه أراد ماذا؟ أتظنه فعل ما فعل لغرض مساعدتنا؟"
- "كأنـه أراد تصحيـح المسـار..... كأنـه أحـد الفاعليـن علـى هذا الطريق، وليس مجرد عابر سـبيل. وجوده في تلك القرية الواقعة على مشارف بخارى، عندما فرّ إليها عبدالرحمن وياسمي والباقون، ثم وجوده في مراغة....."
- "مهـلاً، مهـلاً..... ولكنـك أنت الذي ذهبـت إليه في مراغة. أنت الـذي قصدتـه هنـاك؛ هـذا مـا قصصته لي، ولا أسـتبعد أن يكون عبدالرحمـن قـد تعمد الذهاب إلى تلك القرية حتى يتبعه المغول إلى هناك فيلتقوا بذلك العوّاد لكي يُؤَخِّرهم، كما أخبرتني أنه فعل عبـر عزفـه العجيـب على العود..... كيـف يكون إذن هو الفاعل، وليس شخصاً تم الاستعانة به عند الحاجة، كما استعنت به أنت عندما أردت أن تغفو لكي تنفصل بنفسك عن جسدك؟"
- "هـذا كذلـك مـا حسـبته إلى الآن، ولكنّ في الأمر شـيئاً أبعد من الظاهر. لا يوجد فاعل وحيد في سلسلة الأحداث، بل هناك أكثر مـن فاعـل، كلٌّ علـى حسـب قدرتـه، ويقدر اسـتطاعته..... كأن هناك تناغماً بين الشـخوص، كتناغم الموجودات في الكون..... وكتناغـم..... " مـرة أخـرى صمـت مـراد دون أن يكمل الجملة، فـي حالـة مـن الذهول والدهشـة لما أخذ يتضـح له من بعد تأمل وتفكيـر! فجـأة تذكـر ما قاله له عبدالرحمن ذات يوم: "أين تكمن لذة الحياة إن لم يدهش المرء بين الفينة والأخرى؟!"
- "ما الذي يدور في خاطرك يا مراد؟ هذه النظرة أعرفها جيداً؛ هي نفسها نظرة أمي، عندما تكتشف شيئاً عظيماً لم تكن على علم به من قبل!"
- "مـا حـدث لـم يكن تصحيحاً للمسـار.... بل هو المسـار نفسـه،

ولكني أسأت فهمه. ذهابنا إلى سجن قلعة ألموت لم يكن على سبيل الخطأ، كما ظننت."

- "كيف وأنت لم تجد من كنت تبحث عنه؟ بالمناسبة عمّن كنت تبحث هناك؟ في خضم تسارع الأحداث، نسيت أن أستفسر منك عن هذا الأمر."
- "ظننت أني أبحث عن محمد الطوسي هناك، ولكن....."
- "مهلاً...." قاطعته نوران بعد أن فاجأها بذكر اسم أحد الذين رافقوا أمها وأباها في رحلتهما عبر مملكة خوارزم التي زالت ولم تعد.....
- "أنت تبحث عن محمد الطوسي؟! لماذا لم تخبرني من قبل بأنك تبحث عنه؟! وما الذي جعله يأتي إلى هذا المكان الملعون؟!"
- "لم تكن قلعة ألموت دائماً على هذا الحال؛ على الأقل لم تكن كذلك عندما قدم إليها الطوسي قبل أعوام عدة. في زمن إمامها السابق الحسن بن محمد كانت أكثر اعتدالاً ومنارة للعلم، وإن ظلّت تمارس سياسة الاغتيالات مع خصومها؛ ولكن الحال بدأ يتبدل بعد وفاة الحسن بن محمد وتعاظم نفوذ الحسن المازندراني، حاجب الإمام الجديد؛ ثم أخذ يتفاقم حتى عادت ألموت إلى جذورها السابقة، وتم التنكيل بجميع فقهاء السنة، وألقوا في السجون، هم وكل من أبى العدول عن التسنن من الأهالي."
- "ومتى حدث هذا الأمر؟! منذ سنين؟" تساءلت، وقد شعرت بهول ما جرى.
- "لا، بل منذ أسابيع."
- "مستحيل..... السجن كان خالياً. لم يكن فيه أحد سوانا." ما

كادت تبدي تلك الملاحظة، حتى أدركت من تلقاء نفسها الفاجعة! شاخصة العينين، فجأة وجدت كفها الأيمن يعتلي فاها الذي عبَرت من خلاله شهقة تكتم الأنفاس.

- "نعم..... لقد قتلوهم جميعاً." أكّد لها مراد ما لم تجرؤ هي على البوح به.
- "وماذا عن.... عن محمد الطوسي؟ هل قتلوه هو الآخر؟!"
- "لا، لم يقتلوه؛ بل ليس من المفترض أن يموت إلّا بعد حين."
- "ليس من المفترض أن يموت إلّا بعد حين؟!"

رددّت نوران ما قاله مراد، بنبرة لا تخلو من التعجب، وكأنه مُطّلع على الغيب، فما كان منه إلّا أن يبادر بالإيضاح......

- " لا تنسي أن كل ما يحدث الآن، وكل ما سوف يحدث، هو بالنسبة إلي قد جرى؛ وبعضه قرأت عنه في كتب التاريخ، مثل مآل محمد الطوسي."
- "ولكن كل هذا قابل للتغير، أليس كذلك؟ أقصد أن كتب التاريخ من تدوين البشر، وليست كتاب الله المحفوظ.... أليس بالإمكان أن يستجد أمر فيُغيّر كل الذي تعرفه، كما حدث معك أنت؟"

مرة أخرى شعر مراد بدهشة تعتريه من ابنة ياسمي التي تتحدث وكأنها ليست من هذا الزمان. كل لحظة تمر كانت تثبت له أنها لا تقل روعة عن أمها حتى وإن لم تكن تمتلك القدرة نفسها، وهذا ما جعلها أكثر إثارة للدهشة، حيث استطاعت أن تستوعب بعقلها أمراً يصعب استيعابه على باقي العوام!

- "كل شيء هو قابل لأن يكون، ولكن لا بد له من مقدمات. وإنّي على ثقة بأن محمد الطوسي لا يزال على قيد الحياة، ولم يمت."
- "ويا ترى ما مصدر هذه الثقة؟"

وجد مراد صعوبة في الإجابة عن هذا السؤال؛ فكيف يشرح لها أمراً عصياً على فهم العوام، مهما بلغوا من الحكمة والذكاء؟ بل حتى لو شرع في شرح الأمر، فسيضطر إلى استخدام مصطلحات لا وجود لها في هذا الزمان، لأنها لم تُخترع بعد، وحتماً لن تفهمها! كانت هذه من تلك اللحظات التي من الأفضل أن يختصر فيها الإجابة لأبعد حد، متذكراً تلك الحكمة الكونية: خاطبوا الناس على قدر عقولهم.....

- "فراسة المؤمن." أجابها باختصار شديد.

نظرت إليه نوران بارتياب، حيث لم تتوقع منه مثل هذه الإجابة عن سؤالها، ولكنها سايرته دون أن تبدي أي اعتراض على تلك الإجابة المختزلة.....

- "وأين تظنه الآن يقبع؟"

توقف مراد فجأة عند فرن كبير يعمل به عدد من الخبّازين والفرّانين دون كلل، يُحضرون أعداداً كبيرة من شتى أنواع الخبز والمعجنات، لا تتماشى مع عدد الموجودين من الزبائن. نظرت نوران إليه دون أن تخفي تعجبها من هذا التصرف المفاجئ.....

- "ماذا دهاك؟ هل تشعر بالجوع؟"
- "نعم، ولكن ليس من أجل الطعام."

أجابها، ثم دخل الحانوت متجهاً نحو رجل بدا وكأنه يشرف على باقي العُمّال. رفعت نوران ذراعيها، ثم تركتهما يهويان إلى خصرها، قبل أن تتبع رفيقها على مضض!

- "المعذرة يا سيدي، ولكن ليس لدينا ما نبيعك إيّاه الآن." بادر سلمان بن خليل الفرّان فور رؤيته للرجل القادم نحوه.
- "كل هذه المعجنات وليس لديك ما تبيعني إيّاه؟ أم أنك حسبت جيبي خاوي الوفاض؟"

- "حاشا لله يا سيدي، ما قصدت هذا، ولكن كل الذي تراه قد تمّ بيعه لحاشية مولانا حاجب الإمام."

حرص مراد على أن يبدي إعجابه بما سمع، فقال:

- "كل هذا من أجل الحاجب وحاشيته؟! لا بد أنك خباز ماهر!"

هزّ سلمان رأسه مبتسماً، وقد شعر بالزهو لهذا الثناء.....

- "كأنك لست من هذه البلاد؟ فهذا فرن أبي، شيخ الفرّانين بقلعة ألموت. لا يوجد هنا، أو في أيٍّ من القرى المجاورة، فرن يفوقنا جودة..... مُرّ علينا غداً صباحاً يا سيدي، وستجد بإذن الله ما يسرك."

أمعن مراد النظر في محدثه، متأملاً إيّاه، وكأنه يتحقق من شخص يعرفه، ثم فجأة قال:

- "أنت رجل طيب القلب، وإن كنت ضعيف البأس والعزيمة. ابتعد عن ألموت، وابحث عن مكان آخر يؤويك أنت وأهلك؛ إن لم يكن من أجلك، فمن أجل ابنك عمر."

تعجب سلمان ممّا سمع، بل بُهت لما قاله الغريب الذي لم يرَه قط من قبل، وإن كان على دراية باسم ابنه الوحيد! شعر بريبة تعتريه من الرجل، فارتبك وانعقد لسانه.... لم يعرف ماذا يقول، فاكتفى فقط بالنظر إليه، في حالة من الذهول حتى استفاق من حالته الطارئة عندما سمع صوت الجاشنكير يتساءل على عجل في أثناء ولوجه إلى الفرن.....

- "هل جَهَزتَ ما أُمِرت به يا سلمان؟"

دخل رجل قوي البُنيان ذو قوام ممشوق، متبوع بجنديين، وأربعة من الخدم. بدا عليه من هيئته وملابسه أنه ذو مكانة أعلى بكثير من الذين تبعوه......

- "أهذا كل شيء؟" سأل مشيراً إلى مجموعة من المعجنات والخبز مرصوفة على أربع صوانٍ، بعدد الخدم.

أكتفى سلمان بهزة للرأس، دون أن ينطق.

- "ما بك يا رجل؟! تبدو شاحباً وكأنك رأيت عفريتاً من الجن!"
- "العفو يا..... يا مولاي أبا جعفر..... المممممعذرة والسماح!"
- "لا تحمل عليه. أظنه قد علم بفطنته من أكون، فسيرتي لم تنقطع بعد عن هذه النواحي من أذربيجان."

لم يتنبه الجاشنكير أبوجعفر حمزة بن الساهر إلى الرجل ذي الملامح التركية ورفيقته الحسناء، حتى

تحدث ليقاطع حواره مع سلمان، فتعجب ممّا قال..... وكأنه أراد أن يعزو لنفسه حالة الوجوم التي بدت على وجه ابن شيخ الفرّانين!

- "ومن عساك تكون حتى تُفزع سلمان إلى هذا الحد؟" تساءل الجاشنكير باستهزاء.
- "كأنك تذكرني بشخص التقيته منذ عقدين في مراغه. الشبه بينكما كبير..... لعله أخوك."

ما كاد مراد ينتهي من جملته، حتى امتعض وجه الجاشنكير، فاقترب على الفور منه، ليمسك بهندامه شاخص العينين. على الفور أحاط الجنديان بمراد ونوران الّتي ظلت ساكنة لترى ما سيؤول إليه الأمر الذي أحدثه رفيقها.

- "ما أدراك بأخي؟! ما شأنك به؟! ومن أين تعرفه؟!"
- "ألم يكن من الأجدى له أن يصبح جاشنكيراً مثلك، فيتذوق طعام سادته للتأكد من خلوها من السم، بدلاً من أن يصبح حشّاشاً يقتل عباد الله..... لعلّه لو فعل، لكان حيّاً يرزق مثلك الآن."

- "ماذا تقول أيها المعتوه؟!" أحكم الجاشنكير قبضته في ثياب مراد على مرأى من الجميع بمن فيهم سلمان الذي أخذ يتصبب عرقاً من هول الحدث الذي وجد نفسه فيه. لم يكن خائفاً على نفسه أو على الغريب بقدر ما كان خائفاً على ما قد يحدث لجاشنكير الإمام، وما قد يتبع ذلك من خراب الفرن إن صدق حدسه، وتأكد له شخص هذا الغريب!
- "ما أردت قوله لك: أنه لو لم تسق الأقدار...... لا..... الجملة ليست صحيحة، فالأقدار لا تسوق أحداً، بل نحن من نسوقها باختياراتنا، أليس كذلك؟ ما يجب عليّ قوله هو أنه كان بإمكان أخيك أن يختار لنفسه مساراً آخر، ولكنه لم يفعل؛ بل اختار أن يقتل القاضي عبدالستار في مراغة، واخترتُ أنا أن أقتُله."
- "ويحك!!"
- "نعم، فهذه هي حقيقة ما جرى لأخيك المختفي منذ زمن بعيد. لقد قطعت رأسه، ثم دخلت به على والي مراغة الذي تآمر على قتل القاضي عبدالستار..... أظنك سمعت بما حدث بعد ذلك هناك، كما سمع غيرك..... وكما سمع سلمان الفرّان. هل علمت الآن لماذا أصابه الفزع والوجوم؟!"

30

انتشـر خبر الغريب كانتشـار النار في الهشـيم، ومن لم يسمع به قبل لحداثة سـنه، قد علم به الآن عندما أعيدت سـيرته الّتي انقطعت فجـأة كمـا ظهـرت منذ عقدين! الكل بات يتحدث عن قدراته العجيبة التي مكنته من قتل والي مراغة دون أن يمسّه، ثم خروجه العظيم من السجن دون أن يتمكن منه أحد الحراس! ولحق به أيضاً قتل القاضي عبدالستار، لعدم وجود تفسير آخر لما حدث له. بل باتت تُنسج حوله الأساطير، التي في غالبها كانت من وحي خيال الرواة، ولكن لامتزاجها بأحـداث قـد وقعـت، باتت في ذاكرة الناس من الحقائق التي لا تقبل الجدال..... أسطورة الغريب أصبحت تحمل ملامح عدة، وتأويلات كثيرة؛ فمنها أنه ساحر عظيم من بلاد بعيدة لا يعرف لها طريق، يظهر كل دهر من أجل بعث الرعب في نفوس الآمنين؛ ومنها أنه كاهن من كهنة المغول، يجوب البلاد مسـتعيناً بالجن والأرواح الشـريرة؛ ولكن أحدث التأويلات، النابعة عن رغبة الإنسان بربط الظواهر الكونية التي لا يفهمها، بما يحدث له من مستجدات الحياة، هي أنه ماردٌ يتشكل على هيئة إنسان، لا يظهر إلّا عند خسوف أو كسوف، كما حدث منذ عام! وعندما تساءل بعضهم: "لماذا إذن لم يظهر سوى الآن؟" جاءت الإجابة حاضرة: "لأن إمام الزمان ربطه حتى قامت القيامة، ثم أعتقه!"

وهكذا تعددت الأقاويل، بعضها من نسج خيال العوام؛ وأخرى رُوّج لها عبر الدعاة، مسـتغلين من أجل الدعوة ظهورَه المفاجئ في

ألموت، ليستمر الأمر على هذا الحال حتى يتبين للحاجب، الحسن المازندراني، ما الذي بالإمكان فعله مع هذا الغريب؟ والأهم من ذلك، ماذا عساه يريد؟!

* * *

- "حذارِ من اللعب بالنار! فإن صدقت الروايات، وإن كان هو هو......" صمت كبير الدعاة فجأة، دون أن يكمل الجملة، وكأن لسانه قد أُلجِم.
- "أنت كبير الدعاة وتقول هذا يا علي؟! أتخشاه؟!" شعر الحاجب بالغيظ ممّا سمع، مبدياً شيئاً من الشك والريبة من كل ما كان يحاك حول الغريب من أساطير بدت له من نسج الخيال، وفيها الكثير من المبالغات.
- "بل أكون أخرقَ لو لم أخشَ مثله.... ألم تسمع بما فعل بوالي مراغة وهو في عقر داره، ووسط رجاله؟!"
- "أساطير يا ابن سيحون، أساطير.... أمر حدث منذ عشرين عاماً، فحيكت حوله الأساطير، ولا أستبعد أن يكون هو من رَوَّج لها، من أجل إضافة هالة من الهيبة حوله، لكي يتمكن من العوام. ألم يدّعي أنه الذي قتل القاضي عبدالستار، وكِلانا نعلم جيداً أن الذي قتله هو أحد الحشّاشين؛ شقيق الجاشنكير على وجه التحديد."
- "ولكنه لم يدَّعِ قتل القاضي. ابن الوالي المقتول هو الذي أشاع هذا الأمر، حتى يدفع التهمة عن أبيه، والناس صدَّقوه."
- "ولعله هو أيضاً من روَّج حكاية مقتل أبيه على يد هذا الأفّاق، لكي يدفع التهمة عن نفسه! لن تكون هذه أول مرة يقتل الابن فيها أباه من أجل الاستيلاء على الحكم!"
- "وهو أيضاً من روج لقصة فراره العظيم بعدما تغلب على ابن

الوالـي ومـن كان معـه؟!" أصـرّ كبيـر الدعـاة، غيـر مقتنع بحجج الحاجب.

- "ولِـمَ لا يـا ابـن صيحـون؟ أراد أن يبـرر للنـاس كيـف استطاع، مـن أدّعـى أنـه قاتـل أبيه، الفرار. نسـج حوله الأسـاطير، والعوام صدقـت..... أنـا وأنت نعلم جيـداً كيف تمر هذه الخرافات على الناس، أم أنك نسيت يا كبير الدعاة؟ كما إن هناك أمراً آخر، لعله فات عليك؛ أنت رأيت هذا الشخص كما رأيتُه، فكم تظن عمره؟"

أخذ كبير الدعاة يفكر قليلاً، مسـترجعاً ملامح الرجل الذي رآه البارحة عندما جيء به إلى القصر مع رفيقته......

- "أظنه لم يتجاوز العقد الثالث إلّا بقليل."
- "حسـناً، وهذا ما ظننته كذلك..... أخبرني إذن بالله عليك، كيف يكون هو نفسـه من قتل والي مراغة قبل عقدين، وقد كان صبيّاً وقتها، في حين أن الذي قتله، كما زُعِم، كان رجلاً يافعاً؟!

ربت الحسن المازندراني على كتف علي بن صيحون بعد الحجة التي ساقها، مبتهجاً لِما هداه عقله إليه، بخلاف كبير الدعاة الذي ظل متوجساً من الأمر كله......

- "إن كنـت علـى يقيـن ممّـا تقـول، فلمـاذا لم تأمر بقتلـه وتريحنا، عوضـاً عـن إيوائـه في دار الضيافة بالقصر، خاصة أن الجاشـنكير يُصرّ على القصاص منه لأخيه؟"
- "لأن عنـدي مـا هـو أفضل من ذلك..... سـنقتل أكثر من عصفور بحجر واحد!"
- "كيف؟!" تساءل علي بن صيحون بشغف لم يحاول إخفاءه.
- "محمـد الطوسـي،" بـدأ يجيبـه الحاجـب، وقد رسـم على وجهه ابتسامة ماكرة جعلت عينيه يبدوان وكأن بريقاً يشع منهما......

- "سنضرب هذا بذاك في حضرة الإمام وعلى مرأى من عِلية القوم. أوليس الطوسي من أهل الرأي والمنطق؟ مثله لن يجلس صامتاً أمام خرافات الغريب، وحتماً سيحاجّه، ويتغلب عليه لما يمتلك من قوة الحجة والبرهان..... ماذا تظن سيفعل حينها الغريب؟"
- "لن يكون بمقدوره فعل أي شيء، إن كان على حسب زعمك لا يمتلك تلك القدرة العجيبة التي راجت عنه وصدّقها العوام."
- "بل سيفعل..... سيقتل الطوسي بالطريقة نفسها التي راجت عن مقتل والي مراغه!"

ما كاد يفرغ الحاجب من جملته حتى نظر إليه كبير الدعاة عاقداً حاجبيه، في حيرة من أمره، وكأن الذي سمعه أشبه بالطلاسم.....

- "ألم تؤكد لي قبل قليل أنه مجرد أفّاق، وليس من قتل الوالي؟! ثم تقول الآن إنه سيقتل الطوسي بالطريقة نفسها؟!!"
- "نعم يا ابن صيحون، هذا ما سيظنه الإمام والعوام، ولكن الحقيقة ستكون خلاف ذلك..... الذي سيدس السم في شراب الطوسي هو أنا. هل فهمت؟"

هز كبير الدعاة رأسه، مبتهجاً لما سمع بعد أن أدرك تدبير الحاجب، وقدرته الفذة على المكر والدهاء....

- "يا لك من داهية يا حسن!...... أحمد الله أني لست عدواً لك، وإلّا فما كنت أعلم ماذا ستفعل بي؟!"

اقترب الحاجب من علي بن صيحون، حتى كاد وجهُه يلامس وجهَه، ثم قال بصوت خافت:

- "لو لم تكن لديك الفطنة لكي تُميِّز بين الحصان الرابح والخاسر، لما أصبحتَ كبيراً للدعاة يا ابن صيحون، ولما أصبحتَ بهذا القرب من حاجب إمام الزمان!"

31

أي شـرف هـذا الـذي لحـق به؟! لم يصدق نفسه عندما تسلّم الدعوة من أحد حرّاس القصر، فأخذ يطلب من ابنه سلمان أن يعيد قراءتها المرة تلو الأخرى، ليتأكد أنه لا خطأ ولا لبس في الأمر، بل هي دعوة له، ولابنه أيضاً الذي كان أول من تعرف على الغريب عندما ظهر في الفرن. الحياة باتت تعطيه من غير حساب، هكذا شعر خليل الفرّان؛ فبعد طول انتظار، أصبح بين عشـية وضحاها شـيخاً للفرّانين، ثم بعدها بمدة وجيزة، ها هو يتلقى دعوة لحضور مجلس إمام الزمان مـع أعيـان ألمـوت! يـا لها من جنة ظلّ يحلم بها طيلة حياته، وها قد تحققت له بعد أن قامت القيامة! ولم يكن هو الوحيد الذي كاد يجن من شدة الفرح.....

- "ألـم أخبـرك مراراً بأن ابنك سـلمان هـذا مبروك!" صاحت زوجة خليل من الفرح، رافعة ذراعيها لتمسك برأس ابنها.....
- "لا أعلم كيف فعلتها وتعرفت عليه، ولكن حسناً فعلت يا ولدي! حسناً فعلت بحق إمام الزمان!"

ولكن فرحة خليل وزوجته، لم يشاطرهما إيّاها سلمان الذي ظل مهموماً منـذ ذلـك اللقاء الذي جمعه بالغريب، وتحذيره له بأن يبتعد عن ألموت مع أهله! لقد رأى حينها كلمات الغريب وكأنها تتجسـد أمـام عينيـه...... قتـل ودمـار وخـراب! لوهلة من الزمن، شـعر وكأن العالـم مـن حولـه يتشـكل على هـوى الغريب، ليعود كمـا كان عندما

دخل عليه الجاشنكير. لم يفهم حينها ما الذي رآه، ولا كيف حدث، ولكنه تذكر على الفور تلك الأساطير الّتي نشأ عليها، وسمعها مراراً عبر سنوات حياته عن الغريب الذي ظهر فجأة في مراغة منذ عقدين من الزمان وأحدث فيها ما أحدث، ثم اختفى! أدرك سلمان في تلك اللحظة بالفرن، من وقع كلمات ذلك الرجل التركي الواقف أمامه، أن غريب مراغة قد ظهر من جديد، ولكن هذه المرة في قلعة ألموت!

32

- "إلـى متـى سـنبقى هنـا؟!" انفجـر السـؤال مـن نـوران وقد وصل الملل معها إلى ذروته بعد مضي يومين من الضيافة القسرية التي فُرضت عليها من جرّاء ما فعله مراد!..... لم تعد قادرة على متابعة الأحداث بصمت، دون أن تفهم ما الذي يعده رفيقها، وقد كثرت مفاجآته في الآونة الأخيرة!
- "حتى يحين وقت الرحيل." أجابها بهدوء، وكأنه يؤكد أمراً بدهياً لا يستوجب السؤال.
- "أنـا لا أفهمـك! حقّـاً، لا أفهمك! في السـجن كنـت حائراً، حتى جعلتني أشفق عليك، ثم فجأة بعدما خرجنا تبدل حالك، ورجعت إلـى سـابق عهدك من الغموض والكتمـان.... لماذا لا تصارحني كمـا أصارحـك؟! لِـمَ لا تخبرنـي عمّا تنوي القيام به مسـبقاً حتى أكـون علـى درايـة بالأمر، عوضاً عن تركي هكـذا حتى أفاجأ بما تقوم به من أفعالك ال..... ال..... الّتي تبدو في غاية الجنون؟!"

ارتمـت نـوران على الأريكة وقد احمّر وجهها من الغيظ، بعدما أخرجت ما كان في جعبتها تجاه مراد الذي ظل صامتاً، منتظراً إيّاها حتى تُفرغ كل ما لديها من لوم.

- "ليـت الأمـر كان واضـح المعالـم، فأشـرحه لك بعدمـا أفرغ من شـرحه لنفسـي أولاً، ولكنه ليس كذلك.... الحق أنّي كالقابع في كوخ لا يوجد فيه سوى نافذة واحدة تطل على الخارج، زجاجها

معتم فلا أرى من خلاله سوى أشكال غير واضحة المعالم، تارة أتَبَيّنُها فتتّضح لي، وتارة أخرى تتلبس عليّ..... الأمر ليس كما تحسبين يا نوران، فصمتي ليس عن عمد، وإن بدا لك خلاف ذلك."

فوجئت من صراحته، ولوهلة شعرت وكأنه ذلك الحائر الذي لمحته في السجن قبل أيام..... "كيف يكون الإنسان بتلك القدرة والمعرفة، وبهذه الحيرة في ذات الآن؟!" أخذت تتساءل مع نفسها دون أن تجد إجابة شافية، ولكن السؤال كان كافياً لجعلها تشعر بشيء من العطف على رفيقها القادر الحائر، فتقوم من موضعها وتتجه نحوه دون أن تدرك، وكأنها أرادت أن تواسيه أو تعتذر له عن نفاد صبرها. لم تنطق بكلمة واكتفت بالنظر إلى عينيه المعبّرتين، الممتلئتين بمزيج غريب لم تشهده من قبل، من الدهاء والحيرة في الوقت نفسه. كادت ترفع يدها لتضعها على ساعده، ولكن سبقها باب المجلس، إذ فُتح فجأة ليلج منه دون استئذان شاب نحيل لم يتجاوز منتصف العقد الثاني، متبوع برجُلين ومن خلفهما أحد حرّاس القصر. أخذ الشاب يُحَلِّق ببصره من نوران إلى مراد، وكأنه يتأمل مخلوقين غريبين لم يقع عليهما نظره من قبل...... وبعد لحظات من التأمل الصامت، اقترب من مراد ليوجه له سؤالاً، شاخصاً عينيه من فرط الحماس والدهشة معاً.....

- "أأنت حقاً من أتى بعرش بلقيس إلى سليمان؟!"
- "ومن عساك تكون؟" قاطعته نوران باستهزاء، قبل أن يجيب مراد عن سؤاله "الأحمق"!
- "ألا تعرفين مولاي خورشاه، ولي عهد إمام الزمان؟!" أجابها على الفور أحد الرجلين الواقفَيْن خلف الشاب، بصوت مرتجف.

- "ومن أين لي أن أعرف مولاك ولم ألتقِه قبل الآن؟!" جاء الرد من نوران دون أدنى تردد......
- "وما هذه الضيافة العجيبة؟! تبقوننا هنا يومين دون أن نبرح المكان، بل وفي حجرة واحدة وكأننا سجناء!"

اعتلت ملامح خورشاه دهشة لما سمع، فأخذ ينظر خلفه إلى مرافقيه عاقد الحاجبين، ثم التفت مرة أخرى إلى محدثته.....

- "ألا تودين البقاء بجوار....." تردد قليلاً قبل أن يكمل السؤال.....
- "بجوار العارف؟ ألستِ خليلته؟"
- "أنا لست خليلة أحد أيها الأهطل! لا هو ولا غيره!!" صرخت نوران في وجه خورشاه، ما أثار الحارس الذي بادر بالتقدم نحوها لولا أن أشار إليه سيده بالثبات في مكانه، قبل أن يعود بنظره إلى "الغريب" مرة أخرى، دون أن تفارقه الدهشة.
- "يبدو أن في الأمر شيئاً من اللبس.... أنا لست آصف بن برخيا الذي أتى بعرش بلقيس، وهذه..... " نظر مراد إلى نوران قبل أن يواصل جملته، راسماً على وجهه ابتسامة خاطفة، رداً على وجهها الحانق.....
- "وهذه ليست خليلتي."

عقد خورشاه حاجبيه مرة أخرى، ليؤكد الذهول الذي أخذ يعتلي وجهه الممتلئ، ثم استدار إلى معاونيه......

- "ألم تخبراني بأنه هو؟! لماذا كذبتما عليّ؟! بحق القيامة، لآمرنّ بإلقائكما من فوق قمة الجبل يا أوغاد!!"
- "مولاي خورشاه!"
- "اخرس أيها الوغد الغبي الأبله.... ال..... ال.... الوغد الأبله!!" صرخ خورشاه، ثم نادى حارسه.....

- "ربيع!"
- "أمر مولاي، ولي عهد الإمام." رد الحارس بحزم، مقبلاً نحو سيده.
- "خذ هذين الوغدين، وألقِ بهما من أعلى قمة حول ألموت!"
- "مولاي!" صاح الأول، ثم تبعه الثاني.....
- "مولاي!.... الرحمة!"

تساقطت التوسلات على أذني خورشاه دون أن تحرك فيه ساكناً أمام دهشة نوران التي أخذت تنظر إلى مراد لكي يفعل شيئاً من أجل إنقاذ هذين التعيسَيْن اللذَيْن قادهما حظهما البائس إلى أن يكونا رفيقي هذا الصبي الأهوج......

- "لقد رَسَبتَ في الاختبار أيها الأحمق! صدَّقتَ لساني، وكذَّبتَ حالي!! من لا يعرفني، لا يستحق شرف صحبتي!!!" صرخ مراد في وجه خورشاه شاخصاً عينيه، وكأنه على وشك أن يخسف به الأرض التي أخذت تهتز من تحت أقدامهم وكأنها تنذر بحدوث زلزال وشيك!
- "مممما..... مماذا؟!" تلعثم خورشاه بعدما شحب وجهه من هول ما كان يحدث، فظنّ أنه هالك لا محالة!
- "إنه هو يا مولاي! هو، كما قلت لك!" توسل التابع الأول إلى خورشاه، وقد ظن أن الحقيقة قد ظهرت أخيراً لتؤكد صدق ما زعم حول شخص الغريب.
- "آصف بن برخيا.... العارف!" أيدها التابع الثاني.

خرّ خورشاه على الأرض فور ما نطق تابعه بالاسم المهيب، ثم أخذ يقبل الأرض بين قدمي مراد، فلعله يسامحه على جهله......

- "مولاي العارف..... السماح يا مولاي..... السماح!"

وكذلك فعل الباقون أمام دهشة نوران التي كادت تُجن ممّا يجري!

لحظات قليلة، ثم توقف اهتزاز الأرض؛ فأقبل مراد على الصبيّ، ولي عهد الإمام، متظاهراً بالغضب......

- "ولماذا أعفو عنك أيها الفتى الأخرق؟!"
- "لأن..... لأن....." تلعثم خورشاه، ولم يعلم بماذا يجيب، فأسعفه أحد أعوانه بالرد على السؤال....
- "لأن العفو من شِيَم الكرام يا سيدي."

التفت مراد إلى المتحدث الذي كان على وشك أن يُلقى من قمة الجبل، ثم مرة أخرى إلى خورشاه.....

- "أهذا ما أردتَ قوله، أم أنه لا يتحدث نيابة عنك؟!"
- "ننعم! نعم والله! ههههذا مَمَما قصدته!"
- "لماذا إذن لم تعفُ أنت عن رفيقيك؟! ألستَ من الكرام؟!"
- "بلى قد عففففوت عنهما! بحق إمممام الزمان قد عفففوت عنهما، فففاعفُ عني يا سسيدي العارف!"

أمعن مراد النظر إلى ولي عهد الإمام، قبل أن يشير إليه بالوقوف أمامه، ثم بصوت لا يخلو من غلاظة قال:

- "حسناً، لقد عفوت عنك هذه المرة.... هيّا انصرف عني الآن، أنت وربعك!"

خرج خورشاه على الفور من الحجرة بعد أن تنفس الصعداء، متبوعاً برجاله الذين كادوا يتجاوزونه إلى باب الحجرة من شدة الخوف، بعد أن بلغت قلوبهم حناجرهم..... لحظات قليلة ثم عادت حجرة الضيافة كما كانت من قبل، خالية إلّا من مراد، ونوران التي ما إن ذهبوا حتى أخذت تردد بنبرة متهكمة ما قاله رفيقها.....

- "لقد صدَّقت لساني وكذَّبت حالي!..... من لا يعرفني، لا يستحق شرف صحبتي!!..... حقّاً؟! أهذا ما أرشدك إليه عقلك يا مراد، أو عفواً، أيها العارف، آصف بن برخيا؟!!"
- "طلبت منّي أن أتصرف لكي أنقذ الرجلين، وقد فعلت..... هل كان يجب عليّ استشارتك في الوسيلة؟!"
- "لم أقل هذا، ولكن..... أنت الآن ثبّت على نفسك أنك آصف بن برخيا! انتحلت صفة ليست لك!! ماذا لو طُلب منك أن تأتي بعرش أحد الملوك؟ ماذا ستفعل حينها؟ أم أن لديك تلك القدرة أيضاً ولم تخبرني؟!"

فكّر مراد مليّاً في رده المقبل؛ ليس فقط لكي لا يكون هناك أي لبس عند نوران، بل ما هو أهم، حتى لا يختلط الأمر عليه هو..... وكأن الطريق إلى المنتهى في حاجة إلى أن يمر عبر منعطفات الحيرة.....

- "قليل من الشر..... قد يمنع الكثير منه."
- "الشر هو الشر سواءً كان كثيراً أم قليلاً." جاء ردّ نوران سريعاً على ما سمعته، وكأنها لم تقتنع.
- "ليس دائماً..... نعم، ليس دائماً؛ فالعالم قد يكون في حاجة إلى القليل منه، حتى تستقيم الأمور."

هزّت نوران رأسها، رافضة مثل هذا الطرح العجيب الذي كان ينطق به مراد.......

- "كيف يمكن للعالم أن يستقيم بالشر وإن كان قليلاً؟! مستحيل!! الخير والشر لا يجتمعان أبداً، مهما حاولت أن تجد لهما صياغة ترضيك!"
- "ما فعله الخضر عندما صاحبه موسى، هل كان خيراً أم شرّاً؟"

باغتها السـؤال. تلعثمت قليلاً، فأخذت تسـترجع تلك الأحداث التي وردت في سورة الكهف وقرأتها مراراً، وحفظتها عن ظهر قلب: إتـلاف سـفينة المسـاكين...... قتل غلام لأبويـن مؤمنين..... إصلاح جـدار فـي قريـة رفض أهلها إطعامهما..... أفعال ظاهرها غير باطنها؛ أين الحد الفاصل فيها بين الخير والشر؟

- "ما فعله الخضر هو بأمر الله." لم تجد غير هذا الرد، لكي تجيب به عن سؤاله.
- "كل شـيء فـي الكـون هـو بأمـر الله، ولكـن هل هـذا يعني أن لا اختيار للإنسان فيما يفعل؟ إذن ما قيمة الحساب إن لم يكن للمرء لا حول ولا قوة؟"

ساد الصمت القاعة لحظات.... لم ترغب نوران في الاستمرار في هذا النقاش الذي لم تجد له مخرجاً يرضيها، ولم يصر مراد على فرض مُسَوّغاته عليها. تحركت بعدها ابنة محمود بن ممدود إلى ردهة تقود إلى الشـرفة..... خطوات قليلة، ثم التفتت مرة أخرى إلى رفيق رحلة البحث عن أبيها.....

- "ماذا بعد؟ متى سنواصل طريقنا غرباً؟"
- "عندمـا يحيـن وقـت الرحيل." أجابها مراد باقتضاب، ثم اتجه هو الآخر إلى الشرفة نفسها ليكون معها.

33

كل الأنظـار فـي قاعـة العرش انتقلت إلى البـاب العريض الذي أخذ يُفتح إيذاناً بقدوم الإمام مصحوباً بالعارف آصف بن برخيا الذي حضر إلى قلعة ألموت لكي يبايع إمام الزمان الحسن بن محمد كما بايـع الملـك سـليمان من قبله! أي شـأن أعظـم؟ وأي خبر أعجب؟! جميع الأعيان حُبست أنفاسهم وهم يرون أعلم أهل الأرض بصحبة صاحب القيامة، يسير معه جنباً إلى جنب، متجهاً نحو العرش المجيد، لكـي يتخـذ موضـع الصاحـب على اليمين، معلناً بذلـك للملأ أنه قد سـخّر جـل علمـه من أجـل خدمة إمام الزمـان!...... ولكن...... في ظـل هـذا الحشـد الموهوم، ظل محمد الطوسـي يتأمـل وجه العارف المزعوم، آصف بن برخيا، فأخذ يتساءل مع نفسه: كيف يمكن لرجل من بني إسرائيل أن يحمل مثل هذه الملامح لبني التُّرك؟!

- "أجبنا أيها العارف عن سؤال حيّر العقول..... أين تذهب الشمس بعدمـا تغيـب عـن الأبصار؟" جاء السـؤال الأول مـن الإمام دون انتظار، فَوْر جلوسه على العرش المذهب، ليحسم بإجابة العارف الجدل القائم بين كبير الدعاة وكبير علماء القصر..... هكذا أوعز إليه حاجبه الحسـن المازندراني، وإن كان يحمل مع خبايا نواياه غرضاً آخر.
- "الشمس لا تغيب، إنما الأبصار هي التي تعجز عن الرؤية."

لـم تكـن هـذه هـي الإجابة التـي أرادها الحاجـب وكذلك كبير

الدعـاة، وإن بـدت مرضية للإمـام الذي أخذ يتفكر فيما قاله العارف، وكأنه نطق بحكمة تحير لها عقول العوام.....

- "صدقت أيها العارف، ونطقت بالحق. أهل المعرفة لا تغيب عنهم شمس الحقيقة، وإن غابت عن عامة الناس."

علت أصوات الأعيان والحاشـية مؤيدة لما قاله إمامهم المتربع على عرشه المجيد، الذي تمكن بفطنته من فك طلاسم ما قاله العارف.

- "ولكـن إن أذنـت لـي يـا مـولاي،" قاطـع الحاجـب بعدمـا نفـد صبره.....
- "لعلي أوجه سؤالاً بسيطاً للعارف، فيشفي بإجابته غليل الحائرين."

أومأ الإمام برأسه لحاجبه لكي يستمر.

- "بماذا نرُدّ على من يقول اعتباطاً: إن الأرض هي التي تدور حول الشمس، على خلاف ما تشاهده الأبصار؟"
- "نرد عليه بأنه قد أصاب كبد الحقيقة، وعلى كل من يقول بخلاف ذلك نجيب: لقد خدعتكم أبصاركم، وليس كل ما هو ظاهر للعيان صحيح البيان."

لم تكن هذه هي الإجابة التي رغب الحاجب في سـماعها..... أدهشـته كمـا أدهشـت معظـم الحضـور، كما بدا مـن اللغط الذي عم المكان، حيث أخذت الهمسـات بين الأعيان تنتشـر، ما بين مستفسـر لم يفهم، ومستعجب غير مصدق لما سمع!

- "الأرض تدور؟!"
- "أهذا حقاً ما قاله؟!!"
- "كيف نُكَذِّب أعيننا التي ترى الشمس كل يوم وهي تتحرك ما بين المشرق والمغرب؟!!!"

لحظات مرّت قبل أن يرفع الإمام يده، بعدما استفاق من دهشة

ما سمع، ليصمت الجميع حتى يتحدث كبير الدعاة بعدما استأذن مولاه.....

- "أيها العارف، لا أحد هنا يشكك في علمك العظيم، ولكن...... كيف للأرض أن تتحرك من تحت أقدامنا، دون أن نشعر بها؟ فهل نحن مخدوعون من قِبَل جميع حواسنا؟!"
- "لا تشعر بها لأنك تتحرك معها. الكرة الأرضية وحدة متكاملة مغلقة." أجابه مراد كما يجيب المعلم طفلاً في المدرسة، وإن كانت إجابته قد أحدثت المزيد من البلبلة عند الحضور......
- "كرة؟!!"
- "هل سمعتَ ما سمعتُه؟! قال كرة؟!!"

مرة أخرى اضطر الإمام إلى أن يتدخل حتى يعم الصمت المكان.....

- "كيف تكون الأرض كرة دون أن يسقط الناس من أعلاها إلى أسفلها؟!" باشر كبير الدعاة بأسئلته للعارف، وقد أخذ يظن أنه كما قال الحاجب ليس إلّا محتالاً عظيماً!
- "عِلْم في غير موضعه قد يقود إلى المزيد من الجهل..... لا أظن أن أحداً هنا مستعد بعد لسماع الردّ على هذا السؤال." قرّر مراد أن يجيب على طريقة عبدالرحمن، عوضاً عن شرح مفهوم الجاذبية، سواءً بشكلها البسيط بحسب نظريات نيوتن، أو بشكلها الأكثر تعقيداً كما وردت في النسبية العامة لأينشتاين.
- "هذا الأفّاق قد أفسد عليك خطتك يا حسن." همس كبير الدعاة في أذن الحاجب.....
- "الوحيد هنا المستفيد الليلة هو الطوسي..... أتظن أن الملعون قد أوعز إليه بأن يقول ما قاله؟"

- "كيف وأحد منهما لم يبرح حجرته؟!" ردّ عليه الحاجب، شاعراً بالاستياء هو الآخر لما حدث على خلاف ما كان يأمل.
- "صدقت أيها العارف، فليس للعوام أن يدركوا علم الخاصة الذي مَنّ الله به عليهم. للناس ما ظهر لهم، وللعارفين بواطن الأمور!" تجرأ أمين مكتبة القصر، دون أخذ الاستئذان قبل الحديث.
- "أسمعت يا مولاي؟! كأنه ينعتنا بالجهل!! آن لهذا المجلس أن ينفضّ، ويكفي ما جرى. لقد ضاعت هيبتي وأنا كبير الدعاة!!" وجّه كبير الدعاة حديثه هذه المرة إلى الإمام، على أمل أن يأمر بفض المجلس، بعد أن أخذ النقاش مساراً غير محمود العاقبة.
- "هيبتك محفوظة يا ابن صيحون، لا أظن أن إسماعيل الورّاق كان يعنيك أنت بالعوام."
- "أتفق يا مولاي مع ما قاله كبير الدعاة؛ فليس من مصلحة الدعوة أن يظهر للناس أي تناقض في القول بيننا وبين العارف آصف بن برخيا، هذا إن كان هو بالفعل من يدّعي."

تعجب الإمام من قول حاجبه؛ لوهلة ظن أن لعله قد أساء فهمه......

- "ما الذي تقوله يا حسن؟! أنت الذي أكدت لي أنه العارف، وكذلك قال ابننا خورشاه."
- "نعم يا أبي، إنه هو، أنا على يقين من ذلك!" قاطع ولي عهد الإمام الحديث، بعدما سمع ما دار من حوار بين أبيه والحاجب.
- "إذن فليأتنا بعرش المستعصم!" ردّ الحاجب على الفور، بنبرة لا تخلو من التحدي والامتعاض.
- "نعم يا أبي.....مُره بأن يفعل كما أمره سليمان من قبل، فأنت إمام الزمان!"

نظر الحسن بن محمد إلى كبير الدعاة طلباً للمشورة، فوجده مضطرب الحال على خلاف الحسن المازندراني، وكأن شيئاً مما قيل قد أقلقه......

- "ماذا دهاك يا ابن صيحون؟"
- "مولاي، أنا لا أشك لحظة في فطنة الحاجب، ولكن...... لعله من الأحوط أن نطلب منه بعيداً عن أعين الناس ومسامعهم، حتى إذا فشل ولم يقدر، لا يقال إن أفّاقاً تمكن من خديعة إمام الزمان وكبير دعاته."
- "نِعْم المشورة يا ابن صيحون، نِعْم المشورة." قال الإمام الحسن بن محمد، ثم التفت إلى حاجبه على الفور، ليأمر بإخلاء القاعة من جميع الحضور، عدا الغريب، آصف بن برخيا المزعوم، ورفيقته الحسناء.

* * *

استغلّت نوران انشغال الناس بالحديث فيما بينهم عمّا سمعوا قبل قليل، والتهاء الإمام مع الحاجب وكبير الدعاة، فاقتربت على الفور من محمد الطوسي الذي ظلّ صامتاً متأملاً ما جرى توّاً من حوار بين الغريب، ذي الملامح التركية، والحسن بن محمد وحاشيته...... وجدتها فرصة سانحة، بعدما تعرفت على الرجل الذي وصفه لها مراد، لكي تقوم بالمهمة التي طلبها منها، قبل أن ينتبه أي أحد من الحضور.

- "محمد الطوسي؟" أرادت أن تتأكد قبل أن تفاتحه.
- "نعم." أجاب، متعجباً من هذه المرأة الحسناء التي تعرفت عليه، وإن لم تلتقِه من قبل..... ولكن مع ذلك بدا له في ملامحها شيء من الألفة، وكأنه يعرفها من مكان ما.
- "أنت لا تعرفني، ولكني سمعت الكثير عنك من أمي التي رافقتها

مع أبي منذ زمن بعيد."

لم تكن في حاجة لكي تفصح بالمزيد، فما إن فرغت من جملتها، حتى تبين له الشبه الواضح لصورة كاد ينساها من ماضيه العجيب؛ وكأنها أحدثت ثقباً في سد الذاكرة، لتتدفق من خلالها الذكريات.....

- "ياسمي! أنت ابنة ياسمي ومحمود؟!"
- "اسمي نوران..... لوهلة خشيت أن تكون قد نسيتهما." أجابته وقد غمرتها سعادة كبيرة لأنه لا زال يتذكر أبويها. أول إنسان تلتقيه، حضر بجسده رحلة أمها وأبيها؛ عرفهما عن قرب، وتفاعل معهما في أحلك الأحوال.
- "لقد سمَّياك على اسم جدة أبيك، رحمة الله عليها..... ولكن ماذا تفعلين هنا في هذا المكان؟!"

فجأة أزاح القلق شعوراً عابراً بالسعادة كان قد غمر محمد الطوسي..... فما الذي أتى بشخص مثلها إلى عاصمة الحشّاشين؟ هل جيء بها إلى هنا مكرهة؟! هل خُطفت؟! وأين ياسمي ومحمود عنها؟!

- "سيشرح لك مراد كل شيء لاحقاً، ولكن أخبرني أولاً قبل أن يلتفت إلينا أحد: أين نجدك بعد منتصف الليل؟"
- "مراد؟ من يكون مراد هذا؟" بدأ القلق يمتزج مع الدهشة.
- "العارف..... أو الذي يحسبونه العارف."
- "ماذا؟! أنت مع هذا المُدَّعي؟! ما الذي جمعك به؟"
- "لا وقت الآن لكثرة الأسئلة. أخبرني أين ستكون بعد منتصف الليل؟!"
- "قابع في حجرتي التي تقع في الركن الشمالي من القصر، بجانب

المكتبة." أجابها، مستشعراً الإلحاح في نبرات صوتها.

- "حسناً..... سنمر عليك الليلة هناك، أنا ومراد."
- "ولكن...."

ابتعدت عنه على عجل قبل أن يخبرها بالحراس الذين يقفون دوماً على باب حجرته، منذ أن احتُجِز عنوة في قصر الإمام بعد إعلان القيامة، مانعيه من الخروج بمفرده، ومانعين أي أحد من القدوم إليه من دون إذن الحاجب "الملعون"!

* * *

أمر الحاجب بإفراغ القاعة من الحضور، حتى ينفرد إمام الزمان مع العارف آصف بن برخيا من أجل بحث أمر الإنس والجن، وملوك الأرض من كلا الثقلين...... خرج قطيع الأعيان الواحد تلو الآخر، بعدما شاهدوا بأم أعينهم مثول العارف صاحب العلم العظيم أمام إمام الزمان، من أجل تسخير علمه له، كما فعل من قبل مع النبي سليمان؛ بل وسمعوه وهو يؤكد لهم قيام القيامة؛ إذ توقفت الشمس عن الحركة، وأصبحت الأرض هي التي تدور حولها، وإن كانت أبصارهم غير قادرة على تبيان حقيقة ذلك الأمر العظيم!

- "أيها العارف الكبير،" بدأ الحاجب مخاطباً مراد، بعدما فرغت القاعة من الأعيان، ومن محمد الطوسي الذي اصطحبه حرّاس القصر إلى مخدعه بعدما فشلت خطة الإطاحة به.....
- "أرنا عجائب قدرتك، وأحضر لإمام الزمان عرش المستعصم، كما أحضرت عرش بلقيس للملك سليمان."
- "لدي سؤال بسيط...... هل العرش هو فقط الكرسي الذي يجلس عليه الملوك، أم أنه يشمل أيضاً كل ما يحيط به؟"

فاجأ السؤال العجيب جميع من تبقى من الحضور. لوهلة ظلوا

صامتين وكأنهم يتأملون مغزى سؤال العارف....

- "كيف تسألنا وأنت آصف بن برخيا الذي أتى بالعرش؟!" تجرأ الحاجب على إخراج السؤال الذي كان أيضاً يدور في ذهن الإمام وولي عهده وكبير الدعاة.
- "حقاً، ما أعجز عن فهمه: كيف لا يمكن لإمام الزمان، وهو من هو، أن يجلب بنفسه عرش من يشاء، وقتما يشاء، ثم يطلب من شخص آخر أقل منزلة منه أن يفعل ذلك؟"

سؤال آخر أربك الإمام ومن معه، فكان كبير الدعاة المتصدي له هذه المرة، بردٍّ ظنّه مفحماً........

- "ولماذا لم يتمكن سليمان من الإتيان بالعرش، وهو نبي الله؟"
- "ولكن أليس وفق معتقداتكم أن إمام الزمان أعظم شأناً من الأنبياء؟ فهل يقدر على جلب القيامة، ولا يقدر على ما هو أقل شأناً منه، مثل جلب عرشٍ ما؟!"
- "أبي.... ماذا يقول العارف؟ أهو أعظم منك لأنه يستطيع أن يأتي بالعرش وأنت لا تستطيع؟!"

قاطع خورشاه الحديث محرجاً أباه الذي أخذ يتلعثم دون أن يعلم بماذا يجيب.

- "إمام الزمان قادر على فعل أي شيء.... ولكن..... ولكنه يترفع عن فعل صغائر الأمور!" مرة أخرى حاول كبير الدعاة أن يتصدى.
- "إن كانت هذه من صغائر الأمور، فلماذا تطلبون مني فعلها؟!" قال مراد بنبرة غاضبة اصطنعها، متوجهاً نحو كبير الدعاة..... بضع خطوات منه فقط كانت كفيلة بجعل فرائصه ترتعد، خاصة عندما بدأت الأرض تهتز بقوة من تحتهم جميعاً!
- "مهلاً أيها العارف! علي بن صيحون لم يقصد أي إساءة لشخصك

الكريم!" سارع الإمام على الفور بالاعتذار، وقد ملأ الخوف قلبه بعدما تيقن له بما لا يدع أي مجال للشك أن هذا الغريب المتمثل أمامه، سواءً كان هو العارف آصف بن برخيا أو غيره، قادر على إحداث ما لا تحمد عقباه، ولعله من الحكمة ألا يكسب عداءه، إن لم يستطع كسب وده......

- "وأرجو أن تتقبل مني العذر على ما طلبه الحاجب منك..... فأنت أعظم شأناً من أن تأتي بعرش الخليفة الصعلوك ببغداد! بل أنت هنا ضيفنا، ونحن من علينا أن نأتي لك بكل ما تشتهيه نفسك العظيمة..... وووووإن كنت على ثقة بأنك قادر على الإتيان بأي شيء تشتهيه دون الحاجة إلينا!"
- "يا لكما من إمام خانع، وكبير دعاة غبي!" همس الحاجب مع نفسه، وقد استشاط غضباً لما كان يتمثل أمامه، على خلاف ما كان يرجو!

وما كاد الحسن المازندراني يفرغ من فضفضته، حتى سمع الغريب يتحدث وكأنه كان يخاطبه.... وكأنه سمع ما همس به!

- "استبدل الذي هو أدنى، بالذي تظنه خيراً منه."
- "ما الذي تود أن نستبدله لك أيها العارف؟!" هبّ الإمام على الفور، ظنّاً منه أن الغريب يخاطبه......
- "ولكن لي رجاء بسيط عند شخصكم الكريم، بألا تبخل علينا من علمك العظيم." واصل حديثه، مستجدياً.
- "رجل من طوس، يقول بمثل قولي؛ لن يزول ملكك وملك ابنك حتى يزول، فابقيا عليه ما بقيتما."

ما أن فرغ مراد من جملته، حتى أخذ يتحرك نحو باب القاعة متبوعاً بنوران؛ لحظات قليلة ثم خرجا أمام دهشة اعترت علاء الدين

الحسن بن محمد وولي عهده خورشاه وحاجبه وكبير دعاته. جميعهم ظلوا لوهلة ممّا سمعوه مشدوهين..... لم يساور أحداً منهم الشك بأن المقصود في الجملة هو محمد الطوسي الذي قال بدوران الأرض حول الشمس، مثل ما قاله "العارف" الليلة!

- "بقاء ملكي من بقاء محمد الطوسي؟! أهذا ما كان يعنيه العارف؟!" صرخ الإمام، كاسراً بنبرة صوته الحادة الصمت الذي عمّ القاعة بعد خروج مراد ونوران.
- "إنها نبوءة...... نبوءة العارف!" ردّ كبير الدعاة، شاعراً هو الآخر بهول الحدث.
- "لعلّه من الحكمة أن نتروى قليلاً يا مولاي....." بدأ الحاجب، ولكن سرعان ما قاطعه الإمام.....
- "عن أيِّ تروي تتحدث يا حسن؟! ألم تسمع ما قاله آصف بن برخيا؟! رجل من طوس يقول بمثل قوله، فمن عساه أن يكون سوى محمد الطوسي؟! إذا رحل عنّا، زال ملكنا!!"
- " صدقت يا مولاي. كانت عبارته واضحة، دون الحاجة لأي تأويل." صادق كبير الدعاة على ما قاله الإمام، ما زاد من حنق الحاجب.
- "أرأيت يا حسن؟! أرأيت كيف كنتُ محقّاً عندما أبقيت على الطوسي، على خلاف ما كنتَ تريد؟! لو أننا فعلنا به ما فعلناه بفقهاء الشافعية، لزال ملكي!!"
- "منك نستلهم الحكمة يا مولاي.... لهذا أنت إمام الزمان!"

استمر علي بن صيحون النزاري في تزلفه، غير آبه بغضب الحسن المازندراني الذي اضطر صاغراً إلى تقبل تأويل الإمام لما قاله العارف المزعوم، وإن كان في قرارة نفسه قد أدرك أن القول

الأجدر بالأخذ في الحسبان هو ما لم يفهمه أحد غيره......
"استبدل الذي هو أدنى، بالذي تظنه خيراً منه"...... ما زاده هذا إلّا رغبة في استبدال الإمام الحسن بن محمد، بولي عهده الصبي، خورشاه!

* * *

- "ما هذا الذي حدث قبل قليل؟!" سألته نوران فور ابتعادهما عن آذان السامعين، عند رواق جانبي خالٍ من الحرّاس والخدم.
- "هزة أرضية أحدثتها عبر استخدام الصفائح......" بدأ مراد في الإجابة، وكأنه مرة أخرى يحاضر في فصل دراسي، دون أن يحاول إخفاء فخره بما استطاع أن ينجز، وكأنه استعاد طريقه من جديد، حتى قاطعته نوران قبل أن يكمل شرحه.....
- "لا أسألك عن هذا الأمر، بل عمّا قلته حول محمد الطوسي! جعلت ذلك الإمام المعتوه يعتقد أن مصيره مرهون به!! هل تعي ما الذي يعنيه هذا؟! لن يتركه يرحل من هنا!!"
- "وهذا هو المطلوب." أجابها غير آبه بانفعالها الجلي.
- "هذا هو المطلوب؟! حقاً؟! أتينا إلى هذا المكان الموبوء، لكي تورط الرجل الذي لم يكن سوى خير رفيق لأمي وأبي، عوضاً عن محاولة إنقاذه، كما فعل عبدالرحمن من قبل؟!!"
- "ولكني لست عبدالرحمن، وهذه ليست بخارى."
- "أعلم ذلك جيداً!! لست في حاجة لكي تذكرني....." ردّت على ردّه الذي لم يعجبها. أرادت أن تصرخ في وجهه، ثم تصفعه! ثم تذكرت شيئاً قاله لها منذ مدة ليست ببعيدة.....
- "أهذا هو الطريق الذي تمكنت من إبصاره من وراء النافذة المعتمة؟!"

- "نعم هو." أجابها مراد دون تردد.
- "أما كان بالإمكان سلك طريق آخر أقل وعورة؟"
- "لو كان بالإمكان لفعلت..... ما من شيء سيكون إلّا وقد كان."
- "أين عامل الاختيار إذن، إن فرض علينا الطريق الذي يجب أن نسير فيه؟"
- "لم يُفرض علينا الطريق؛ هناك طرق أخرى عدة، ولكن واحداً فقط هو الأصوب، فإما أن نسير فيه أو نسير في غيره. أنا اخترت أن أسير فيه، ولكِ الحق في أن تسيري في غيره إن كانت هذه هي رغبتكِ."
- "ولكنّي حينها سأسير فيه وحيدة، من دونك؟"
- "نعم."

أدارت نوران رأسها عن مراد، فور سماعها لردّه الواضح الذي لا يشوبه أي شك.... في تلك اللحظة وجدت نفسها أمام مفترق الطريق، فإما أن تسير على دربه، مكملة معه السير مهما بدا لها وعراً، أو أن تعلن عنه الفراق. قرار حاسم كان لا بد لها أن تتخذه..... لحظة من لحظات الاختيار.

- "حسناً..... هَيَّا بنا إذن أيها العارف المُزَيِّف!" رفعت ذراعيها في السماء معلنة له الموافقة على نهجه الغريب الذي لا يزال يفاجئها به كل مرة.....
- "لا أعلم كيف استطعت أن تخدع هؤلاء الأغبياء، ولكني أرجو من الله ألا أصبح مثلهم في يوم من الأيام!"

34

مـن هـو ذلـك التركـي المُدَّعـي؟.... سـؤال ظـل يـراود محمد الطوسـي دون أن يجـد لـه إجابـة شـافية، في أثناء انتظـاره الليل حتى ينتصف. كل ما يعرفه عنه أن اسمه مراد، وصلة ما تربطه بابنة ياسمي التي فوجئ بوجودها هنا في ألموت! ولكن هذا الغريب، وإن لم يكن هو آصف بن برخيا كما ادّعى، إلّا أنه في حديثه الليلة أمام الحسـن بن محمد قد أظهر علماً ومعرفة قَلّ ما رآها..... "أمره عجيب، ذلك الغريب، وكأن وراءه شـأناً عظيماً، ولكن ما الذي يريده مِنّي؟ بل ما الذي يريده من قلعة ألموت، حتى يدَّعي أنه آصف بن برخيا؟!"

ما كاد يفرغ من تسـاؤلاته، حتى وجدهما أمامه، داخل حجرته! كأنهمـا اخترقـا الجـدار الذي يفصله عن الحارسـين فـي الخارج..... دهشة اعترته، جعلته يسأل متلعثماً، شاخصاً عينيه.......

- "كيف دخلتما؟!"
- "قلـت لـك من قبـل: لا تفعل هذا الأمر معي!" قالت نوران ناهرة مراد، وقد ظهر وجهها شاحباً، على خلاف ما بدا قبل ذلك لمحمد الطوسي عندما خاطبته خلسة في قاعة العرش.
- "أنتما.... أنتما منهم أليس كذلك، أهل الكشف؟!"
- "هو منهم، أمّا أنا فلا." أجابته نوران، مشيرة لرفيقها.
- "هل أرسلكما عبدالرحمن إليّ؟"
- "في واقع الأمر....." تردّد مراد قليلاً قبل أن يكمل جملته....

- "تربطني بعبدالرحمن معرفة قديمة، ولكن..... ولكنني فقدت أثره منذ زمنٍ، بُعَيْد معركة نهر السند بمدة بسيطة، على وجه التحديد."
- "معركة نهر السند؟! سبع وعشرون سنة، يا له من زمن وقد مضى! حتماً كنتَ صبيّاً حينها لم تتجاوز عقدك الأول..... لماذا أنت هنا إذن إن لم يكن عبدالرحمن هو الذي أرسلك؟"
- "جئت لكي أسألك عنه."
- "أتيـت إلـى قلعة ألموت لكي تسـألني عـن عبدالرحمن؟!" فوجئ الطوسي من إجابة مراد.
- "نعـم، هـذا ولأمـر آخـر كذلك...... لكي أنقـذ حياتك من موت محقق."
- "ماذا تقول؟!" شخص الطوسي عينيه مرة أخرى، غير مستوعب ما سمع من هذا الغريب توّاً؛ بل وحتى نوران فوجئت هي الأخرى ممّا قاله مراد.
- "لا تسألني كيف عرفت، لأنك لن تجد عندي إجابة شافية، ولكن ما عليك أن تعلمه أن الحاجب وكبير الدعاة يريدان التخلص منك لأنـك تشـكل تهديـداً للدعوة، على خلاف الإمـام الذي يرى في بقائك محبوساً في قصره منفعة له."
- "من أجل قراءة النجوم والأبراج." ردّد الطوسي مع نفسه، في حالة من الذهول.
- "ولكن عندما يخلف خورشاه أباه، وهذا الذي يخطط له الحاجب، فلن يمانع في التخلص منك إلّا إذا وُجد سبب يمنعه من ذلك."
- "يا لك من داهية!" قاطعت نوران على الفور حيث أدركت أخيراً سر فعلة مراد.....
- "لذلك أوحيت إليهم بتلك النبوءة المزعومة!"

- "نبوءة؟ أي نبوءة؟" تساءل الطوسي، وقد ازداد حيرة على حيرته الأولى.
- "أوحيت إلى الإمام وولي عهده خورشاه بأن بقاء ملكهما من بقائك معهم هنا في ألموت."
- "ماذا فعلت؟!" صرخ الطوسي فور ما انتهى مراد من تبيان الأمر؛ وكأنه أُلقي عليه ماء بارد، ترنح قليلاً نحو أريكة بالجوار، فرمى جسده عليها، واضعاً ذراعيه فوق رأسه الذي شعر وكأنه سينفلق.....
- "ويحك! لقد جنيت عليّ يا رجل! والله إن الموت عندي لأهون من أن أظل حبيساً هنا، وسط هذا الجنون!"
- "الأمر ليس بذلك السوء....."
- "حسبتك أتيت لكي تخلصني من هذا المكان..... بأن عبدالرحمن أرسلك لهذا الغرض، ولكن... ولكن عبدالرحمن لم يرسلك إليّ؛ بل أتيتَ لكي تزيدني همّاً على هم!"
- "صدّقني هذا ما نويت فعله في بادئ الأمر عندما ذهبت إلى السجن ظنّاً بأنك هناك. لكنّي اكتشفت أن هذا مسارٌ خاطئ.... مكانك الآن هنا في قلعة ألموت، وليس في غيرها. فأوان رحيلك لم يأتِ بعد."
- "عن أي رحيل تتحدث؟! يبدو وكأني سأظل حبيس هذه القلعة اللعينة حتى يأتيني الأجل!"
- "هذا أمره مرهون بك أنت وحدك، وليس بي ولا بعبدالرحمن..... الشيء الوحيد الذي كان بالإمكان فعله هو منحك المزيد من الوقت مع هؤلاء، حتى تجد لنفسك مخرجاً، وهذا ما فعلته، وثق بأنه ليس بإمكان أي أحد فعل المزيد إلى أن يحين الأوان."

- "أوان ماذا؟" تساءل الطوسي متعجباً.
- "ستدرك حينها..... إن غداً لناظره قريب."

هزّ الطوسي رأسه، وكأنه بدأ يتقبل مصيره الراهن الذي لم يكن بمقدوره فعل أي شيء لكي يُغَيِّره، على أمل باهت بأن الأحوال قد تتبدل عمّا قريب، كما ادعى ذلك التركي الغريب.....

- "قلت لي إنك تبحث عن عبدالرحمن. لعله بمقدوري مساعدتك فيما يخص هذا الأمر. منذ أسابيع رأيت طيفه عندما....." صمت قليلاً قبل أن يكمل، إذ لا زال جرحه دامياً ولم يبرأ بعد.....
- "عندما دفنت طفلي. كانت هذه أول مرة أراه فيها منذ أن افترقنا عند نهر السند منذ سنين. كنت على يقين بأنني سأراه مجدداً..... عندما يحين الأوان، هكذا أخبرتني أم الوفا قبل أن أغادر قرية الرابعية. رؤيته وحديثه معي جعلاني أستيقظ من غفوة كانت قد أصابتني، ومجيئك أنت الآن وما فعلته..... لا أدري إن كان الأمران مرتبطين أم لا، ولكن لعله كذلك. إن أردت أن تصل إلى عبدالرحمن، فابحث عنه بعقلك وبقلبك معاً، فلن تصل إليه بأحدهما فقط. أرجو أن تجد في قولي هذا ما يفيدك.... أشكرك على ما فعلته من أجلي، وأرجو أن تتقبل عذري على ما أبديته لك سابقاً من امتعاض."

وبهذه الكلمات انتهى اللقاء المرتقب، فغادر مراد ومعه نوران حجرة الطوسي خلسة، كما جاءا إليها.....

أيام مضت وأهالي ألموت والقرى المجاورة تتحدث عن آصف بن برخيا الذي حضر فجأة لكي يبدي الولاء والطاعة لإمام الزمان الذي بِطَلَّته قامت القيامة وسقطت التكاليف، ثمّ اختفى أثره..... لماذا اختفى مجدداً ولم يبقَ؟ ولِمَ سمح له الإمام بالذهاب، ولم يأمره

بالبقاء معه؟ وما معنى كل هذ الذي حدث؟ أسئلة ظلت تحير عقول العوام.

تعـددت التفسـيرات، واختلفت التآويـل، ولكن جميعها بعد مدة مـن الزمـان ذهبـت في طي النسـيان، خاصة بعدما انتشـر الخبر الذي أفزع الجميع وفاجأهـم؛ إذ مات إمام الزمان الحسن بن محمد، وخلفه ابنـه خورشـاه، ليصبـح هو بالوراثـة إماماً جديداً للزمـان، وبإيعاز من الطوسـي الذي كان خورشـاه على يقين بأن بقاء ملكه من بقائه، كما أنبأ "العارف" منذ زمن، تم التخلص من الحسن المازندراني! وما هي إلّا سـنوات قليلة حتى جاءت العاصفة التي لم يتوقعها إنسـان، عندما هجم المغول بقيادة هولاكو خان على قلعة ألموت، فحاصروها، كما لـم يحاصرهـا جيـش من قبل، فوجد الطوسـي فرصته التي ظل يحلم بها طيلة السـنين التي مضت، إذ أدرك أن هذا هو الأوان الذي أشـار إليه مراد، عندما سـلّط الله على قلعة ألموت من سـلّطهم على مملكة خوارزم من قبل!

35

قلْبي يُحدّثُني بأنّكَ مُتلِفي	روحي فداكَ عرفتَ أمْ لمْ تعرف
لم أقضِ حقَّ هَوَاكَ إن كُنتُ الذي	لم أقضِ فيهِ أسى ومِثلي مَن يَفي
ما لي سِوى روحي وباذِلُ نفسِهِ	في حبِّ منْ يهواهُ ليسَ بمسرفِ
فلَئنْ رَضيتَ بها، فقد أسْعَفْتَني	يا خيبةَ المسعى إذا لمْ تسعفِ
يا مانِعي طيبَ المَنامِ ومانحي	ثوبَ السّقامِ بهِ ووجدي المتلفِ
عَطفاً على رمَقي وما أبْقَيْتَ لي	منْ جِسميَ المُضْنى وقلبي المُدنَفِ
فالوَجْدُ باقٍ والوِصالُ مُماطِلي	والصّبرُ فانٍ واللّقاءُ مُسَوّفي

عند سفح جبل المقطم، قدم بلبان باحثاً عن ذلك المملوك الدخيل عليهم، الخوارزمي الشريد، القادم من بلاد الشام. لا يعلم كيف استطاع بهذه السرعة العجيبة كسب ثقة ومودة أميره أيبك، ولكنه فعل؛ لعلّها قوته، لعله ذكاؤه، أو لعله خشوعه وتعففه، أيّاً كان السبب، فالكل بات يدرك أن قطز ليس كباقي المماليك..... أمر غريب خاصة لمملوك قدم عليهم كبيراً، ولم يبدأ صغيراً كأغلب الباقين، وإن كانت مهارته العجيبة في حمل السلاح شفعت له عند الكثيرين.

منذ قدومه إلى القاهرة، وهو دائم المجيء إلى هذا المسجد الخالي، الذي لم يعد يضج بالمصلين كما كان قبل عقد من الزمان، عندما كان صاحبه على قيد الحياة. ما الذي يجعل قطز يأتي إليه دون عن غيره؟ هذا ما لم يفهمه بلبان حتى الآن. لعلها رغبة بالانفراد بعيداً

عن ضوضاء القلعة المجاورة، أو لعلّ المملوك الخوارزمي قد أصبح من مريدي ضريح عمر بن الفارض، أو سـلطان العاشـقين كما يطلق عليه من تبقى من أتباعه الذين قلّوا عبر السنين! "يا لها من طرفة..... مملوك متصوف!" ضحك بلبان مع نفسه وهو يدخل المسجد، متذكراً تلك القصيدة لابن الفارض التي بات قطز يرددها على مسمعه صباح كل يوم حتى أصبح هو أيضاً يحفظها عن ظهر قلب......

- "حسـبت أنـي سـألقاك هنـا." قال بصوته الجهـوري، متوجهاً نحو المنبـر، حيـث وجد المملوك الخوارزمي متربعاً بالقرب منه، يقرأ من مصحفه.
- "بلبـان؟ مـاذا تريـد منـي؟ ألا يمكنني الاختلاء بنفسـي بعض من الوقت، دون أن تقتفي أثري؟!"
- "لست أنا من يريدك، بل الأمير أيبك."
- "كنت معه قبل ساعة، واستأذنته، فأذن لي." ردّ عليه قُطُز متعجباً.
- "الأمـور فـي مصـر لا تبقى على حالها مدة سـاعة. حسـبتك الآن قـد تعلمـت ذلـك." أجابه بلبان بعد أن رسـم على وجهه ابتسـامة ساخرة.
- "هل تعلم ماذا يريد؟"
- "لم يخبرني إلّا بأنه يريدك في الحال..... لمَ كل هذا الهم والغم أيها الخوارزمي المغولي؟ إنه لشرف عظيم أن تكون من المقربين للأمير عزالدين أيبك."
- "لستُ مغولياً، قلت لك ذلك مراراً من قبل!"
- "ولكنـك نشـأت فـي كنفهـم، وتعلمـت منهـم فنـون القتـال التي مَكّنتك من خصومك، ثم جعلت منك فارساً من فرسان المماليك الصالحية، تحت إمرة أعظم قائد في أنحاء مصر والشام..... هذا

يجعلك في عرفي مغولياً، حتى وإن لم تكن."

- "عرفك لا يعنيني في شيء!" قال قطز وهو ينهض لكي يذهب إلى قصر مولاه، ليرى ماذا يريد منه، ثم أضاف.....
- "بيني وبينهم ثأر عظيم، وإنّ غداً لناظره قريب!"
- "أين أنت منهم يا قطز؟! هم يقاتلون في الصين وأنت في مصر الآن، بينك وبينهم ألف ميل وميل. أعداؤك اليوم ليسوا المغول، بل أعداء أميرك أيبك، تذكر هذا جيداً؛ أعداؤك هم أقطاي وفرسانه من المماليك البحرية!"
- "حقاً عجزت عن فهمكم..... تتحدث عن أقطاي وكأنه غريم لنا وليس قائداً من قادة السلطان نفسه الذي نخدمه جميعاً، الصالح نجم الدين أيوب، صاحب مصر والشام!"

ابتسم بلبان لما قاله قطز. هز رأسه، رافضاً وساخراً مما سمع، ثم بنبرة المعلم قال للمملوك الوافد جديداً عليهم......

- "تمتلك القوة والمهارة، ولكن تنقصك الفطنة والحنكة والمكر...... إن أردت أن يكون لك شأن في مصر، فعليك بأن تقاتل كالأسد، وتفكر كالثعلب، وإلّا....." أمعن النظر في رفيقه قبل أن يكمل حتى تصل الرسالة......
- "وإلّا تمكن منك خصمك، وصدقني فأنت على الأخص لديك الكثير من الخصوم! لا تحسبن أن مجيئك إلى مصر بين صفوف المماليك، وتربعك في هذه المكانة القريبة من الأمير عز الدين أيبك، هو أمر بلا حاسد. ثق بأنّ غُرماءك كثيرون؛ يعرفونك وإن كنت لا تعرفهم."
- "وهل أنت أحدهم يا بلبان؟"

فاجأ سؤال قطز المملوك، فضحك قبل أن يجيبه......

- "سؤالك في محله أيها الخوارزمي، ولكنك لن تجد منّي إجابة عليه. هذا ما عليك أن تكتشفه أنت بنفسك."

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يحتار فيها قطز من بلبان وحديثه الممزوج بالنصح والوعيد؛ بل لم يعد يعلم في هذه البقاع من هو الخصم ومن هو الصديق، وكأن أهل مصر غارقون في غموضهم، كما هو حال أبي الهول.....

لم يبحث عن قول يرد به على معاون الأمير أيبك، واكتفى بإيماءة رأسٍ خجولة، فهَمّ بمغادرة مسجد سلطان العاشقين، عمر بن الفارض، ليلبي أمر سيده الجديد، الذي طلب حضوره في الحال.

36

اقتربت أم عليّ من زوجها، حاملة بين ذراعيها ابنها الرضيع؛ فلا شيء يدخل البهجة على أبي عليّ مثل عليّ. أرادت أن تفرج عنه كربته، بعدما عاد من قصر السلطان. لم تره مهموماً من قبل مثل هذا اليوم، وبقدر ما حاولت أن تستشفي منه خبراً، إلّا أنه آثر الصمت، مكتفياً فقط بالسير ذهاباً وإياباً بين الرواق وردهة الحرملك الواقعة في الجانب الشرقي من قصره الجليل.

- "ألم يوحشك عليّ؟ أنت لم تلاعبه منذ أيام، على غير عادتك." قالت لزوجها مناولة طفلها له.
- "المعذرة يا أم عليّ، ولكن بالي مشغول هذه الأيام." رفع أيبك ابنه الوحيد في السماء، ليستمتع بسماع ضحكته البريئة التي دوماً ما تُدخل السرور في مهجته.....
- "ستصبح فارساً عظيماً يا عليّ مثل أبيك، أليس كذلك؟"
- "دون شك سيصبح فارساً عظيماً مثلك، بل وأكثر من مجرد فارس، قلبي يحدثني بذلك." قالت وهي تنظر إلى زوجها وابنها بعيني الرضا والسعادة.
- "أتطمحين أن يحل مكاني يا امرأة؟ أميراً على المماليك!" ردّ أيبك مداعباً زوجته.
- "بل إني والله لأراكما أكبر من ذلك بكثير."
- "وما عسى لمملوك مثلي أن يكون أكثر ممّا أنا عليه الآن؟! فلا

أحد يعلوني سوى السلطان."

ما كاد ينتهي أيبك من جملته حتى دخل عليه أحد الخدم المخصيين، ليعلن عن قدوم المماليك الذين أرسل في طلبهم...... قبّل جبهة ابنه، ثم ناوله لزوجته، بعدما غادر الخادم.

- "ألن تخبرني ما الخطب؟" سألته مرة أخرى، آملة أن تحصل منه على إجابة تشفي غليلها، قبل أن يذهب إلى فرسانه المماليك الذين ينتظرونه في قاعة الاستقبال.
- "كل شيء في أوانه طَيّب يا أم عليّ، كل شيء في أوانه طَيّب؛ فلا تشغلي بالك الآن بما لا يجديك نفعاً."

اكتفى عز الدين أيبك بهذا الردّ المقتضب، ثم انصرف على عجل ليلتقي حفنة من فرسانه المقربين، ليبوح لهم بالأمر الخطير الذي لا يعلمه حتى الآن سوى القليلين.....

* * *

- "انظر إليه! لم يمضِ عام على قدومه وها قد أصبح وكأنه واحد منّا، بل ومن خواصنا!" قال قلاوون دون مواربة، مخاطباً بلبان وبجانبه سنقر الأشقر، غير آبه بأن يسمعه المملوك الخوارزمي الدخيل عليهم، في الجانب الآخر من القاعة.
- "أتشكك في مقدرة أميرك على تبيان معادن الرجال يا قلاوون؟! أم أنك تخشى من منافسة فارس آخر لك؟" ردّ عليه بلبان بنبرة حازمة لم تدع أي مجال للشك بأنه لن يقبل أن يسمع منه أو من غيره أي تذمر من قرار يتخذه أميرهم عزالدين أيبك.
- "أنت تعلم جيداً أن ولائي ليس له حدود، وتعلم أني لا أهاب أحداً!"
- "ولا حتى فارس الدين أقطاي؟" قاطع سنقر ممازحاً رفيقه، وقد

ذكر له الاسم الوحيد الذي يهابه الجميع، بمن فيهم أيبك. الكل كان يـدرك أن أميـر المماليـك البحريـة هو الفارس الأعظم في بر مصـر والشـام، ولا يسـتطيع أحـد مهمـا أوتي من قـوة وحنكة أن يواجهه، حتى أصبح اسـم أقطاي مرادفاً لأسـماء أبطال الأسـاطير الذين تحكي الأمهات قصص بطولاتهم لأبنائهم وهم صغار على أمل أن يصبحوا على شـاكلتهم ذات يوم، عندما يكبرون، ويشـتد عودهم.

- "كفّا أنت وهو الآن عن هذا الهراء! قطز الآن واحد منّا، ويكفينا أن الأميـر أيبـك قـد ارتأى فيه ما ارتأى، أيّاً كان هذا الأمر." أصّر بلبان مرة أخرى، حتى تصل لكليهما الرسالة.

لحظـات قليلـة مرّت وفرسـان المماليك الأربعة في الانتظار في القاعـة الرخاميـة القريبـة مـن حرملـك القصـر، المخصصة لاسـتقبال المقربين فقط، قبل أن يدخل عليهم صاحب القصر، الأمير المملوك، الذي أصبح بعدد فرسانه الذين يدينون له بالولاء التام، الرجل الثاني في مصر، بعد السـلطان. على الفور بادر بالحديث قبل إلقاء التحية، ليلقي على مسامعهم الخبر الصاعق الذي لم يكن في الحسبان......

- "لقد أرسل إمبراطور صقلية برسالة سرّية إلى السلطان، يعلمه فيها أن ملك فرنسا في طريقه بحراً إلى دمياط على رأس جيش عظيم!"
- "دمياط! يريد هؤلاء الفرنجة غزو مصر مرّة أخرى؟!!" بادر سنقر من هول المفاجأة.
- "بـل سـتكون دميـاط مقبـرة لهؤلاء الخنازيـر! نحن لها يـا أميرنا! سأذهب على الفور إلى ثكنة المماليك، وفي الصباح الباكر سَنُطْلق العنان لخيولنا، فنكون في دمياط قبل أن يصلها الفرنجة!" أضاف قلاوون، ثم همّ بالانصراف، لولا أن أشار إليه أيبك بالتريث.

- "بـل سـتبقى أنـت وباقـي المماليك هنا فـي القاهـرة." فاجأ أيبك فرسانه مرة أخرى......
- "السـلطان أمَر فخر الدين يوسـف بن شـيخ الشـيوخ بقيادة جيش الأيوبيين للدفاع عن دمياط."
- "الأيوبيـون المخانيـث يدافعـون عـن ديارنـا، ونحـن المماليـك الأشاوس نبقى هنا كالنساء! لا سلّ الله لي سيفاً إن قبلت بهذا!"
- "قـلاوون!! تـأدب، فأنت فـي حضرة أميرك!!" صـرخ بلبان، ناهراً المملـوك الغاضـب بعدمـا تجاوز حده، ولكن سـرعان ما أومأ له أيبك بأن يكف عن نهره.
- "لا تلمـه يـا بلبـان، لقـد أنشـأناه وباقـي رفاقـه علـى التصـدر في الزحـف، وليـس التولـي." ثم تابع أيبك موجهـاً حديثه هذه المرة إلى قلاوون.....
- "كما أنشأناهم على طاعة أمر صاحب الأمر، دون سؤال."
- "العفو والسماح يا أميري..... العفو والسماح."
- "إخلاصـك وبسـالتك يشـفعان عندي يا قـلاوون، ولكن تذكر أن القوي من يمسك نفسه عند الغضب."

التفـت أيبـك نحـو المملـوك الخوارزمي الذي ظـلّ صامتاً طيلة الوقت، دون أن ينطق بكلمة.....

- "ماذا عنك؟ لم أسمع منك رأياً منذ أن قدمت."
- "كأني أرى في الأمر أمراً." أجاب قطز باقتضاب دون أن يفسـر، ما فاجأ عز الدين أيبك، حيث لم يتوقع منه مثل هذا الرد. لوهلة بُهت أمير المماليك ولكن سرعان ما تدارك الأمر، ليتظاهر بعدم الاكتراث لما قاله المملوك.
- "حسناً، فلتنصرفوا الآن كلّاً إلى خشداشيته من أجل إعلان النفير.

نحـن سـنبقى هنـا من أجل حماية السـلطان فـي القاهرة، وأقطاي سـيأخذ مماليكـه إلـى المنصـورة ويعسـكر هنـاك، لكـي يحمـي ظهـر جيـش الأيوبييـن في دميـاط، ويكون مَصـدراً للمدد لهم إن احتاجوا.... هيّا."

همّوا جميعاً بالانصراف عدا بلبان، إذ أشار إليه أيبك بالبقاء.....

- "كأن في الأمر أمراً." كرّر معاون أمير المماليك الصالحية الجملة التـي قالهـا قُطُز، وجعلت أميره ينهي الجلسـة على عجل..... لم يساوره أدني شك بأن المملوك الخوارزمي قد مسّ عصباً بما قال.

أدرك أيبك إلى ماذا كان يشير معاونه، فأضاف:

- "حباه الله بسطة في الجسم، ومهارة في استخدام السلاح، وكذلك رجاحـة فـي العقـل.... ألم أقل لك: إنـه غير الباقين، وكأنه مزيج بينك وبين أقطاي."
- "إذن هو كما قال قُطُز، وكما حسبتُ أنا كذلك. قبولك أن يتصدر ابن شيخ الشيوخ جيشاً من الأيوبيين للدفاع عن دمياط، ووراءه أمر. فهم لن يسـتطيعوا مجابهة قوة الفرنجة من دوننا؛ لا أحسـب أن مثل هذا الأمر يخفى عليك، وإن خفي عن السلطان."
- "لقد اقترب زماننا يا بلبان، وآن لنا أن نسود؛ وكما صنع الأيوبيون مجدهم على أنقاض الصليبيين والفاطميين من قبل، سنصنع نحن مجدنـا علـى أنقـاض الفرنجـة والأيوبيين.... المرض يشـتد على الصالـح أيـوب يومـاً بعد يوم، ولا أظنه سـيبرأ منـه..... من تظنه الأحق بخلافته؟ ابنه توران شاه القابع بعيداً في حصن كيفا، الذي لا يعلم شيئاً عن مصر، أم أنا؟!"
- "أنت بالطبع، ولكن....."
- "ولكن ماذا يا بلبان؟!" قاطعه أيبك، غير مستسيغ جملته الاعتراضية.

- "أقطاي ومماليكه لن يقبلوا بك سلطاناً عليهم، ولا نريدها مذبحة بين المماليك، الكل فيها خاسر حتى المنتصر، فنصبح من بعدها لقمة سائغة للطامعين."
- "وهل هناك مفر يا بلبان؟ الدول تُبنى بأنصال السيوف، وأقطاي ومماليكه كما قلت، لن يخضعوا لنا إلّا بالقتال."
- "بل هناك حل آخر.... شجرة الدر."
- "زوجة السلطان؟!" لم يفهم أيبك مراد معاونه، فما دخلها في الأمر، وإن كانت الزوجة المحببة للصالح نجم الدين أيوب؟! بل هي حتى لم تنجب له ولداً، ولو فعلت لكان بالإمكان وضعه شكلاً على العرش والحكم باسمه!
- "جميع المماليك يحبونها، ويَعدّونها واحدة منهم، لأنها كانت جارية قبل أن يتزوجها السلطان. ظنيَ أنهم سيرضون بها سلطانة عليهم من بعد زوجها، عوضاً عن الأيوبيين."
- "ماذا تقول؟! امرأة تحكم مصر؟!"
- "وما الذي يمنع؟ فلن تكون هذه هي المرة الأولى. المصريون لن يكونوا هم المعضلة، فهم دوماً مع من غَلَب."
- "لن يقبل بذلك الفقهاء، وكذلك الخليفة في بغداد سَيُؤلب علينا باقي الممالك."
- "وهذا هو المطلوب. حينها ستضطّر شجرة الدر إلى اتخاذ زوج لها لتحكم من ورائه، ومن تظنها ستختار؟ أقطاي الشرس أم أيبك الوديع؟ حتماً ستختارك أنت ظنّاً منها أنك الأهون، وحينها لن يكون بمقدور أقطاي ومماليكه فعل أي شيء؛ لأن شجرة الدر التي ارتضوها عليهم سلطانة هي من اختارت؛ وعندما يَسْتتب لك الأمر بعد عام أو عامين، تزيحها وتبقى أنت بمفردك."

بُهـت عـز الدين أيبك ممّا سـمع من معاونـه، وكأنه كان يخطط للأمر منذ حين! داهية الزمان بلبان استطاع أن يرسم له طريقاً للحكم لا تشوبه شائبة، ولن يضطّره إلى خوض معركة مع أقطاي ومماليكه، وإن كان سـيبقى أمير المماليك البحرية دوماً شـوكة في حلقه، حتى بعدما يصبح سلطاناً للبلاد!..... ولكن حينها سيختلف الوضـع، وعوضاً عن إسـقاط شـجرة الدر وحدها، لعل أقطاي أيضاً يسـقط معها، أو حتى قبلها على يد أحد المماليك!

37

إن سـقطت دمياط، فلن تسـقط مصر وهو على ترابها يسـير! إن هُزم الأيوبيون، فلن يُهزم فارس الدين أقطاي، لأن مثله لا يُهزم أبداً! إن كان فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ يبحث عن مجده الزائل، فلـن يجـده الآن بعـد أن تجـاوزه الزمان، فاليوم يـوم أقطاي ولا أحد سواه!

فُسح الطريق لجواد أمير المماليك البحرية، فور دخوله إلى قصر الروضـة، حيـث يمكث السـلطان، فمن يتجـرّأ على الوقوف أمامه، أو حتى سؤاله؟! الأبواب لا تغلق أمام أقطاي، بما فيها باب الصالح نجم الدين أيوب، وإن كان على فراشـه وسـط نسـائه! ومع كل هذه القوة، وكل هـذا الجبـروت، إلّا أن الجميـع كان يـدرك الحقيقة التي لا غبار عليها: ولاء أقطاي لسلطانه، ليس له حدود.....

* * *

- "مـا كان ينبغـي أن تسـمح لـه بالدخـول عليـك، وأنـت على هذا الحـال." قالـت شـجرة الـدر معاتبة زوجها طريـح الفراش، بعدما خرج من عنده أعظم فرسان مصر والشام.
- "لـن يقبـل مغـادرة القاهـرة من غير أن يمرّ عليّ أولاً..... هذا هو أقطـاي." أجابهـا الصالـح أيـوب، بصـوت هزيل يـكاد يخرج من حلقه، ثم أضاف......
- "فلعلّه لن يلقاني بعد اليوم."

- "لا تقل هذا! بعد الشر عنك!"
- "ما من نفس إلّا ذائقة الموت يا شجرة الدر..... كل ما أسأله من الله هـو فقـط أن يؤخـر أجلـي، ويمدّ في عمـري، حتى أرى مصر تتجـاوز محنتهـا هـذه، وإن كنت على ثقة بأن ابن شـيخ الشـيوخ سيرد كيد الفرنجة البغاة على نحورهم."
- "إن شاء الله سينتصر عليهم، وستستقبله بنفسك وأنت على عرشك جالس بكامل قوتك، يا منية قلبي وبهجته." قالت له شجرة الدر، ثـم قبّلتـه على جبينه، وأخذت تمسـح على رأسـه المحموم حتى أغمض عينيه، فتركته لكي يرتاح قليلاً في فراشه.

ذهبـت إلـى الشـرفة المطلة على حديقـة القصر. قدر ما حاولت أن تمسك بعبراتها، إلّا أنها لم تستطع..... "أهذا هو مآل نجم الدين أيوب، ذلك الفارس الشـجاع والسـلطان العادل، الذي استطاع بعزيمة الرجال أن يستعيد ملكه الذي نُهب منه؟!" كانت تدرك جيداً أن بقدر ما اشتد المرض عليه في الآونة الأخيرة، إلّا أن وقعه ليس بأشد على نفسه من بقائه هنا والغزاة على أبواب البلاد..... لو أن شيئاً سيقتله، فهو ذاك الشعور بالعجز وليس المرض، وهذا ما خَشِيَت منه عليه.

- "هل أحضر لك شيئاً من الطعام يا مولاتي؟"

قطعت الجارية عليها خلوتها.... نظرت إليها شجرة الدر، متأملة فيها حالها منذ سنين خلت، قبل أن يقع في غرامها السلطان ويتزوجها. لـم تـدرك للسـعادة طعمـاً قبل أن تلقاه؛ فكم أحسـن إليها، وكم رفع من شأنها.....

- "لا يا جلبهار، لست في حاجة للطعام."

انصرفـت الجاريـة تاركـة مولاتها مـع أحزانها، مدركـة أنه ليس بوسـعها فعـل أي شـيء مـن أجل مواسـاتها على مصابهـا في زوجها

السـلطان القابـع عليـلاً فـي فراشـه..... جميع الخـدم والجواري في القصر كانوا محزونين على مرض سلطانهم، ولكن حزنهم على حزن مولاتهم شجرة الدر كان هو الأشد على نفوسهم؛ فبقدر حب مولاتهم لزوجها، كان مقدار حبهم لها.

38

ملّ الجندي الشاب من كثرة التطلع نحو الأفق بحثاً عن أي إشارة تنذر باقتراب سفن الفرنجة من سواحل دمياط. أيام مضت وهو يتناوب مع رفيقه الصعود إلى أعلى برج المراقبة، بالقرب من معسكر فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، الواقع غرب المدينة. أراد القائد العجوز الثمانيني أن يواجه جيش الملك لويس التاسع على الشاطئ، ليعيق إنزال جنوده على البر عوضاً عن التحصن خلف أسوار دمياط، فتكون معركة خاطفة وحاسمة، يقطع بها دابر الفرنجة أول ما تطأ أقدامهم بر مصر! لذلك كان لا بد من مراقبة البحر جيداً، ولتلك المهمة الدقيقة وقع الاختيار على حسّان وعلى ورفيقه إسحاق.....

لا شيء يلوح في الأفق حتى الآن، وكأن الفرنجة قد قرروا العودة إلى ديارهم؛ أو لعل خبر غزوهم لمصر لم يكن صحيحاً من الأساس، فما الذي يجعل إمبراطور صقلية النصراني يبعث رسولاً ليحذر ملك مصر من ابن مِلّته؟!

جلس الجندي حسّان على الأرض ليريح قدميه المنهكتين من كثرة الوقوف، إلى أن يأتي رفيقه ليتسلّم منه المناوبة. لم يعد باستطاعته رؤية البحر من موقعه الجديد، ولكن ما الضير؟ فما الذي سوف يحدث في أثناء دقائق الانتظار هذه؟ أخرج من جيبه قطعة خبز كان قد ادخرها من أجل لحظة الراحة..... دقائق مرّت، ولم يأتِ إسحاق بعد. وقف الجندي مرة أخرى بعد أن تعب هذه المرة

من الجلوس على الأرض الصلدة الخشـنة لبرج المراقبة. همّ بالنظر بحثاً عن شـخص قادم نحوه على جانبي البرج، ثم ذهب إلى السـلم لينظر نحو قاعه، فلعلّ إسـحاق في طريق الصعود نحوه..... لم يكن ذلك هو الأمر...... استدار ليعود إلى موقعه مرة أخرى، متعجباً من تأخـر رفيقـه علـى غير عادته.... ثم توقف فجأة في مكانه. فرك عينيه ليتأكد أن ما كان يراه ليس شائبة من شوائب البصر.... فهاله ما رأى!

- "مستحيل!"

أشرعة بيضاء حاجبة الأفق، حتى لا يكاد يرى البحر من ورائها! سـفن لا حصر لها، لعلها تتجاوز الألف بكثير! لم يرَ شـيئاً مثلها من قبل!

انطلـق الجنـدي على الفور إلى الأسـفل لكي يخبر قائده، فأخذ يقفـز علـى الدرجات، ليتجـاوز واحدة أو اثنتين معاً..... ما إن وصل إلى القاع حتى ارتطم مع جسـد إسـحاق الذي حضر توّاً، فوقع على الأرض وهو فوقه.....

- "مهـلاً، مهـلاً! مـا كل هـذه العجلـة؟! أهكذا تفعـل لأني تأخرت عليك قليلاً؟!"

حـاول الجنـدي التقـاط أنفاسـه، حتـى يتمكـن مـن إخبـاره بما رآى..... وبعد جهد وعناء، اسـتطاعت أن تخرج من فيه كلمة واحد ظـلّ يرددهـا أكثـر مـن مـرة، وكأن حصيلته من المفـردات قد توقفت عليها.....

- "الفرنجة! الفرنجة!"

ثم استمر في الركض......

39

ألف وثماني مئة سفينة، تحمل على متنها ثمانين ألف مقاتل مع متاعهم وعتادهم، رست حول دمياط. لم يجد الجنود أي مقاومة تذكر وهـم يطـؤون البـر بأقدامهـم، وما إن تم التأكد من أمان المكان، حتى لحـق بهـم لويس التاسـع، ملك فرنسـا، مصطحباً معـه أخويه روبرت حاكـم أرتـوا، وتشـارلز حاكـم أنجو. الهدوء الـذي كان حول دمياط، على خلاف ما توقعوه، بات لهم مُحَيّراً، حتى إنهم خشوا من وجود كميـن مدبـر لهـم، فآثروا التريث، عدا روبرت الذي كان شـغوفاً ببدء الهجوم على المدينة المحصنة بأسوارها.....

- "نحن لم نقطع آلاف الأميال من القفار والبحار، لكي ننتظر عندما نكون على أعتاب دمياط!" صرخ في وجه تشارلز الذي كان أكثر تحفظـاً منـه، ولكـن أخيهمـا الملك كان قد حسـم الأمر بإرسـال فرقة من فرسان المعبد الباسلين لاستكشاف الوضع، والتأكد من مواقع جيش "المحمديين" حول المدينة، ومدى التحصينات التي اتخذوها.
- "أغلـب الظـن أنهـم عندما رأوا عدد سـفننا، قـرروا التترس خلف الأسوار عوضاً عن ملاقاتنا وجهاً لوجه، حتى يأتيهم المدد؛ لذلك يجب الإسراع في إحكام الحصار، وعدم هدر المزيد من الوقت الثمين!" أصّر روبرت، ولكن دون جدوى.

عـادت فرقـة فرسـان المعبـد، بعد برهة من الوقـت، ودون أدنى

انتظار أسرعوا نحو الملك لويس التاسع. لوهلة ظن الملك أنهم فارّون مـن جيـش "المحمديـين" بعدما انكشـفوا لهم، فجاؤوا مسـرعين لكي يحذروا الجميع من هجوم وشيك، فأمر قادته بالتأهب، ولكن سرعان مـا تبيـن لـه الحقيقـة المذهلة عندمـا ارتجل قائد الفرقـة، واقترب منه وعلى وجهه أثر التعجب......

- "لا يوجد أحد يا مولاي!"
- "ماذا تعني: لا يوجد أحد؟! أتقصد أن جيش المحمديين قد تترس خلف أسوار دمياط كما قال الكاونت روبرت؟" استفسر الملك.
- "لا يـا مـولاي، هـم ليسـوا خلف الأسـوار، بـل لا أثر لأي جيش على مد البصر! لا يوجد أحد في دمياط؛ المدينة خاوية، وأبوابها مفتوحة!" .
- "مسـتحيل! إنـه حتمـاً كميـن يا مليكـي!" قاطع تشـارلز الحديث، محذراً من الانخراط في أمر قد لا تُحمد عقباه.....
- "الأيوبيـون ليسـوا بالبلهـاء، وملـك مصر هذا ليـس بالهَيِّن.... لن ينسـحبوا هكذا من دمياط دون قتال إلّا إذا كان في الأمر مكيدة ما!"
- "صدقت يا أخي، هم ليسوا بالبلهاء، ولذلك انسحبوا عندما شعروا بيدي الرب وهما على وشك أن ينقضّا عليهم جميعاً! إنها بركات مولانا المسيح يا تشارلز، أم أنك فقدت إيمانك؟!"

مـرة أخـرى أصرّ روبـرت على موقفه، ثم عرض على أخويه أن يقود بنفسه عدداً من فرسانه وفرسان المعبد إلى داخل المدينة للتأكد من خلوها من جيش الأيوبيين، ثم الاستيلاء عليها.....

وافـق الملـك لويس التاسـع على مضض، غيـر مقتنع بأن الأمر قد سـار على هذا النحو اليسـير، على الرغم من إيمانه الكبير بوقوف

المسيح إلى جواره وجوار حملته "المقدسة" من أجل استعادة أورشليم وما حولها، عبر بوابة مصر..... حملة "مقدسة" من أجل أراضٍ أكثر تقديساً، ستسيل فيها دماء "المحمديين" من نهر النيل حتى نهر الأردن!

40

صدمـة عمَّـت البـلاد بعدما توارد خبر سـقوط دميـاط على هذا النحـو السـريع، ومـن غيـر مقاومـة تُذكـر! ولهـول الأمر الـذي فجع الجميع، وكما هي العادة بين العوام عندما تحل الفواجع عليهم فجأة دون سابق إنذار، أخذت تنتشر أخبار نهاية العالم التي أزفت، والقيامة التي على وشـك أن تقوم، وكأن العقل تنحّى جانباً ليحل محله وهم مزعـوم..... فبـات الكثير مـن الناس ينتظرون خروج المهدي، وعودة المسيح الذي سيكسر الصليب ويقتل الخنزير، بعد أن يخلص دمياط أولاً من الصليبيين الذين احتلوها! وكانت هناك أقوال أخرى.....

- "المسيخ الدجال يحارب معهم!" قال بعضهم.
- "بل هو عقاب من الله لأننا ابتعدنا عن شرعه!" قال البعض الآخر.
- "ما هُزمنا إلّا لانتشار المفاسد في البلاد من طرب ولهو!" ثم ردّد الوعّاظ.

ولكـن فـي قصـر الوالـي بمدينـة المنصورة، جنـوب دمياط، دار حديث مختلف......

- "لـو بقينـا لذُبحنـا عن بكـرة أبينا. ما كان لدينا خيار آخر..... مَثَل ما فعلته كمَثَل خالد بن الوليد في معركة مؤتة." أصر فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، مبرراً انسحابه للوالي، ولأمير المماليك البحرية.
- "شـتّان مـا بينـك وبيـن خالد بن الوليـد! هو انسـحب بعد معركة

طاحنة دامية، أمّا أنت، قبّحك الله، فلم تقاتل، بل تركت لهم دمياط لقمة سائغة!" ردّ عليه أقطاي معنّفاً إياه.

- "احفظ لسانك يا مملوك، ولا تنسَ أنّي ما زلت قائداً للجيوش بأمر مولانا السلطان!"
- "كُفّا!" صرخ الوالي وقد فاض به الكيل ممّا كان يجري أمامه من مناوشات بين القائدين......
- "العدو في ديارنا، وأنتما تتشاجران كالقطط الجائعة؟!"

لوهلة عمّ الصمت مجلس الوالي بعد تدخله لفض الاشتباك القائم، ما شجع معاون أقطاي، بيبرس البندقداري، على الاستئذان من أميره من أجل أن يدلي بدلوه، فأذن له......

- "رُبّ ضارة نافعة، ولعلنا إن أحسنا التصرف، قد نُسخّر كارثة دمياط لصنع نصر لنا هنا في المنصورة."

بُهت الوالي ممّا سمع، بل وهاله زج اسم مدينته الهادئة في الأمر.....

- "أفصح عن قصدك يا بيبرس، وما شأن المنصورة في كل هذا؟"

شرح بيبرس خطته باستفاضة، وما كاد ينتهي، حتى فز ابن شيخ الشيوخ من مكانه.....

- "هذا جنون! والله لن أسمح بمثل هذا الأمر أبداً!" قال قائد جيش الأيوبيين، ثم التفت إلى الوالي متجاهلاً أقطاي ومعاونه......
- "ما سنقوم به هو الهجوم على الفرنجة في دمياط عندما يأتينا المدد من القاهرة، فنماثل بذلك عددهم."
- "بل هذا هو عين الجنون..... تريد الهجوم على دمياط بعدما سلمتها لهم؟!" قاطع أقطاي، غير آبه بتجاهل ابن شيخ الشيوخ له.
- "الزم حدك يا مملوك!"

- "قلت لكما كفًا عن هذا الشجار! الأمر ليس لأحد هنا في هذه القاعة، بل هو لمولانا السلطان في القاهرة، وهو من سيفصل فيه..... خطة بيبرس تحمل الكثير من الأخطار، وإن فشلت فستكون نهايتنا جميعاً."
- "وإن نجحت، فستكون ضربة قاضية على الفرنجة، ويمكننا من بعدها استعادة دمياط." قاطع أقطاي حديث الوالي، مُصِرّاً على خطة معاونه.
- "حسناً.... سأرسل رسولاً إلى القاهرة من أجل مقابلة مولانا، وعرض الأمر عليه."
- "بل يذهب بيبرس بنفسه؛ فلا يوجد من هو أسرع منه على الفرس؛ وهو أولى من غيره بعرض خطته الجريئة."
- "ولكن...."

حاول ابن شيخ الشيوخ الاعتراض مرة أخرى على اقتراح أقطاي بأن يذهب بيبرس إلى السلطان، ولكن الوالي كان قد حسم الأمر، واستقر رأيه على ما قاله أمير المماليك البحرية، غير آبه بتحفظ قائد جيش الأيوبيين، الذي هُزم في معركة من دون قتال.

41

كأنه نهر السند الذي غرقت فيه جدته؛ كلما رأى النيل، تجددت فيه ذكرى عقود مضت من صراخ النساء وعويلهم، وبحثه المستميت عن جدتها نوران خاتون وسط جثث الغرقى..... هل تشابه النهران حقاً، أم أن سطوة الذكريات هي ما أوحت إليه بما لا وجود له؟

ترجل قُطُز من على فرسه، مقترباً من ضفاف نهر النيل الهادئ. هي ذاتها البقعة الّتي حرص على القدوم إليها كلما وجد نفسه بالقرب من قصر الروضة حيث يقبع السلطان؛ ولكن شيئاً ما قد اختلف عليه هذه المرة. كأن الشاطئ تآكل بعض الشيء..... "لماذا لا يبقى شيء على حاله؟"..... أخذ يتساءل مع نفسه. لو كان الأمر بيده، لظلت أمور كثيرة على حالها، ولكن..... كم من مرة شعر وكأنه أقرب إلى الريشة التي تتطايرها الرياح.

- "اقترب الموسم وهذه بشائره."

فاجأه صوت رجل عجوز ظهر فجأة من خلف شجرة جمّيز..... مراكبي حطّ برحاله توّاً.

- "موسم ماذا؟" تساءل قُطُز، غير مدرك قصد العجوز.
- "أنت حتماً وافد جديد على هذه النواحي، وإلّا فما سألتني هذا السؤال..... موسم فيضان نهر النيل. الأشجار لا تتحرك من مكانها؛ عروقها راسخة في الأرض مثل أصحابها، على عكس الماء الذي يتشكل على حسب الوعاء الذي هو فيه، فإن لم

يستوعبه ذلك الوعاء، ما وجد غضاضة في النزوح عنه."

فهم قُطُز قصد المراكبي العجوز، فالأشجار بالفعل كانت أقرب إلى الشاطئ من العادة، وهذا حتماً ليس لأنها آثرت السير نحو الماء...... ثم فجأة خطر على باله ما ذكره أميره أيبك عن خطة عرضها معاون أقطاي، الفارس بيبرس، على السلطان من خلال زوجته شجرة الدر التي منعت الجميع من الدخول على زوجها بسبب مرضه. حينها لم يفهم سبب تلك المخاطرة الكبيرة التي وافقت عليها شجرة الدر بعدما ادّعت عرضها على السلطان، ولكن الأمر الآن بات أكثر وضوحاً له........

- "يا لك من داهية يا بيبرس!" وجد قُطُز نفسه يردد عن غير عمد.....
- "ولكنّي أسأل الله أن يكون الفرنجة مثلي، لا يعلمون الكثير بعد عن هذه البلاد، وعن مكر مماليكها!"

42

بعد أخذ ورد، تمكن روبرت من إقناع أخيه بِطَرق الحديد وهو ساخن، والزحف إلى القاهرة؛ فلا جدوى من الانتظار طويلاً بدمياط، فقد يأتي المدد لمصر من الشام في أي لحظة، وحينها ستكون هزيمة "المحمديين" أصعب بكثير......

- "هم الآن حتماً في حالة من الفوضى العارمة بعد سقوط دمياط على هذا النحو، خاصة أن سلطانهم على فراش المرض قابع."
- "بيننا وبين القاهرة مدن عدة. الاستيلاء عليها جميعاً سينهكنا. ما زلت أرى أنه من الأفضل الهجوم على الاسكندرية أولاً حتى نحكم السيطرة على الساحل، ويكون لنا أكثر من خط للرجعة إن..... إن صادفتنا بعض العراقيل فاضطررنا للانسحاب." حاول الأخ الآخر للملك لويس التاسع بشتى الحجج أن يثني أخويه عمّا استقرّا عليه، ولكن إصرار روبرت الممزوج بإيمانه العميق، كان هو الأنفذ إلى قلب الملك وقادته.
- "لن تصادفنا أي عراقيل ما دام المسيح معنا! ألم ترَ كيف فعل بالمحمديين في دمياط؟! لقد أعمى بصيرتهم بنوره؛ وبهذا النور سوف يضيء لنا الطريق إلى القاهرة ثُمّ إلى الأراضي المقدسة!"
- "روبرت محق يا تشارلز. إننا نسير ببركات سيدنا المسيح التي حلّت علينا منذ أن بدأنا حملتنا المقدسة، وها قد حالفنا النصر منذ البداية كما وعدنا البابا إنوسِنْت الرابع بروما."

هبّ الملك لويس التاسع فجأة من مجلسه، وبصوت مرتفع أخذ يعلن.....

- "لقد عزمت أمري، واتخذت قراري. غداً سنسير جنوباً نحو عاصمة المحمديين بمصر، ولا شيء سوف يقف أمام جنودنا البواسل وفرساننا العظام! إنّي لأشتم رائحة أورشليم من هنا، وكأن كنيسة القيامة تناديني لكي أخلصها من مغتصبيها، وأعيدها لمن يستحقها من المؤمنين.... أقسم لكم جميعاً بالأب والابن والروح القُدُس، لأعبّدَن طريقي إلى هناك بدماء هؤلاء الكفرة المحمديين!"

43

وكأن نهـر النيـل قـد قـرر أن يعانـد إرادة الـرب! فهـل كفـر هو الآخر بالمسيح ودخل في دين "المحمديين"؟! لم يجد فرسان الحملة الصليبية المقدسة وجنودها أي تفسير آخر يبرر هذا العناء الذي وجدوا أنفسهم فيه..... فما كان من المفترض أن يستغرق أياماً معدودات، ها قد أصبح أسابيع مرهقات! الوحل والطين من أثر فيضان نهر النيل قد أنهكهم وأنهك دوابهم، حتى أصبح السير شبه مستحيل! لكن عزيمة الملك لويس التاسع أرغمتهم على المواصلة.....

- "هذا ليس إلّا امتحاناً من الرب ليمتحن الصادق من المنافق!" كرّر "الملك المؤمن" على مسامع قُوّاده أكثر من مرة ليشد من عزمهم.

واسـتمر بهـم الحـال حتـى حطّ بهـم الرحال عند بحر أشـموم، علـى بعـد أميـال قليلة من مدينة المنصورة، ولكن كانت هناك معضلة بسيطة...... الضفة المقابلة من بحر أشموم لم تكن خالية من الجنود، بل كان ينتظر هناك جيش "للمحمديين"، وعلى أهبة الاستعداد!

* * *

ستكون هذه هي المعركة الفاصلة بين الفرنجة وجيش الأيوبيين، ولـن يتخاذلـوا هـذه المرة..... لقد عزم فخر الدين يوسـف بن شـيخ الشـيوخ أمره! لن يخذل سـلطانه، ويُشَـمِّت المماليك فيه وفي رجاله! بحر أشموم سيكون هو الحد الفاصل بين الفريقين، ولكي يعبره جيش الملك لويس التاسـع، فلا بد من تشـييد الجسـور والعبور من عليها

إلـى الضفـة الأخـرى.... إليه...... عنق زجاجـة لا مفر منه، تحدّ من كثرتهم فتجعل الجيشـين أكثر تسـاوياً.... خطة ابتدعها بنفسـه وأصَر عليها، مقابل خطة بيبرس "المجنونة"!

لم يمانع أقطاي، على الرغم من ثقته بأنها لن تنجح، ولكن لا بـأس؛ فلعـل القائـد العجوز بسـوء تدبيره يسـهم دون قصد في إنجاح مهمـة مماليكـه..... بل لعل أمير المماليك البحرية يصطاد عصفورين بحجر واحد: الفرنجة والأيوبيين!

راقب ابن شيخ الشيوخ جنود العدو على الجهة المقابلة من بحر أشـموم وهـم ينصبـون خيامهـم.... أعدادهم غفيـرة وعلى مد البصر. جيش جرّار، ما كان بوسـع جيشـه مقابلتهم على ضفاف دمياط، في معركة مفتوحة..... حمد ربه على اتخاذه القرار السـليم بالانسـحاب، حتى إن كان ثمن ذلك الانسحاب سخرية المماليك منه! سوف يُري هؤلاء "العبيد المرتزقة" حنكته في القتال! تلك الحنكة التي جعلت منه قائداً للجيوش منذ زمن الملك الكامل.

استمر في مراقبته للفرنجة عن كثب، حتى جاء اليوم الذي كان ينتظـره، إذ أخـذوا يشـيدوا الجسـور من أجل العبـور..... لقد غرّتهم أعدادهم! أمر ابن شيخ الشيوج جيشه بألا يحاول عرقلة مسيرة تشييد تلك الجسور....

- "فليظنوا أنهم قادمون إلينا... سنكون لهم مانعين!"

وعنـد اقتـراب الانتهاء من إقامة الجسـور، أمر الجيش بالتأهب، واضعـاً الرمـاة فـي المقدمة، وفرسـانه علـى طرفيهم. انتظـر حتى بدأ الفرنجة بالعبور بأعداد محدودة، يحدها عرض الجسر الذي تسير عليه كل فرقة، ثم ألقى بإشارة الهجوم...... تطايرت السهام حاملة النيران، كوابل يحمل لجنود الفرنجة غضباً من الله! تعالت الصيحات، وترامت

الأجساد في بحر أشموم؛ ومن استطاع العبور إلى ضفة المسلمين كان لهم الفرسان بالمرصاد؛ وبعد سويعات قليلة كانت جميع الجسور الّتي شيدها الفرنجة قد احترقت!

لم يتمكن الفرنجة من العبور، بعدما مُنوا بأول خسارة لهم، منذ بداية حملتهم المقدسة، وكان فخر الدين يسوف بن شيخ الشيوخ هو من قاد هذا الانتصار، فشعر وكأنه استعاد مكانته التي اهتزت من بعد حادثة دمياط..... تمنى لو كان أقطاي موجوداً في ساحة المعركة لكي يرى بنفسه من يكون ابن شيخ الشيوخ، ولماذا اختاره السلطان قائداً للجيوش!

* * *

تجمع الجنود والفرسان من جديد، بعد نكسة عابرة وإن كانت ثقيلة. معركة عبور بحر أشموم لم يصادفها النجاح، فلعله امتحان من الرب ليرى مقدار صمودهم أمام "المحمديين". لم ييأس الملك، بل اجتمع مع أخويه وباقي القادة من أجل البحث عن حل لهذه المعضلة العويصة. فهل يحاولون الكَرّة من جديد؟ أم لعلهم يبحثون عن طريق آخر للقاهرة مع ما فيه من إهدار للوقت والجهد؟!

- "سيضيء لنا المسيح الطريق." ردّد الملك على مسامع الباقين بعدما ضاقوا ذرعاً من خيارات أحلاها مر، ولن ينتج عنها سوى المزيد من القتل بين صفوفهم.

أيام عدّت ومعنويات الجنود بدأت تتآكل من فعل الانتظار، حتى ظهر عليهم الإعرابي، "وكأن الرب أرسله"!

- "مخائض؟!" لم يفهم لويس التاسع قصد روبرت في أول الأمر.
- "نعم يا مولاي، هناك نقاط ضحلة في بحر أشموم لا يعلمها سوى أهالي المنطقة الذين اعتادوا على عبورها!"

- "وهذا الأعرابي سيدلنا عليها؟!" تساءل بعدما قفز من مجلسه، غير مصدق ما سمعه من أخيه.
- "هو ذاك يا مولاي!"
- "ولكن..... ولكن ما الذي يجعله يفعل هذا؟ لماذا يخون قومه؟ لعل في الأمر خدعة يا روبرت."
- "ليس في الأمر أي خديعة، لقد تأكدت ممّا قال قبل أن آتيك. أرسلت نفراً من فرساني من أجل تبيان أمر تلك المخائض قبيل الفجر، وهو كما ذكر الإعرابي. أمّا عن سبب فعلته، فهو من أجل المال. هؤلاء الإعراب يبيعون أهاليهم من أجل حفنة دنانيرا"

اقتنع الملك بما سمع، ووافقه باقي القادة. كانت هذه أشبه بمعجزة بعث بها الرب من أجل حملتهم المقدسة، وما كانت خسارتهم في المعركة السابقة سوى اختبار لقدر إيمانهم، وها هي بشرى نجاحهم قد هلّت عليهم من حيث لم يحتسبوا!

* * *

استيقظ فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قبيل الفجر على أصوات صراخ وعويل خارج خيمته. ثوانٍ مرّت عليه قبل أن يدرك ما الذي كان يحدث؟! حاول في بادئ الأمر أن يجد تفسيراً آخر.... كذّب أذنيه..... شكّك في استنتاجه..... فمستحيل أن يكونوا قد عبروا بحر أشموم إليهم!......كيف؟!

خرج على الفور من خيمته دون أن يلبس درعه أو يمسك بسيفه. أراد أن يرى أولاً ما الذي كان يحدث؟!..... أراد أن يتأكد.... أن يجد تفسيراً آخر لهذا الصراخ..... ولكنه لم يجد..... إنهم الفرنجة بأعدادهم الهائلة! لقد انقضوا على مخيمه تحت جنح الليل، فأخذوا يُذَبّحون في رجاله وأغلبهم نائمون، حتى أشاعوا الفوضى في المُخَيَّم

بأكمله.... وما هي إلّا لحظات حتى قدم نحوه فرس يعدو، مكسوّاً بقماش أبيض مرسوماً عليه صليب أحمر. أدرك ابن شيخ الشيوخ على الفور لمن هذا الفرس؛ فلم تكن هذه المرة الأولى التي يرى فيها أحد فرسان المعبد في ساحة القتال..... لحظات أخرى وكان قائد جيش الأيوبيين واقعاً على الأرض واضعاً يديه حول رقبته التي تطايرت منها الدماء..... تمنى من كامل قلبه أن يكون هذا الذي يراه ليس إلّا كابوساً ويستيقظ منه بعد قليل، وأن كل الذي من حوله هذا ليس له وجود.... حاول أن يستيقظ.... استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ليزيح عنه هذا الكابوس المقيت..... ولكنه لم يستيقظ..... بل كل شيء من حوله تحول إلى سواد عظيم!

* * *

نشوة الانتصار ليس لها من مثيل، فأي نشوة أخرى هذه التي تعادلها؟!.....

- "لِمَ لا يتعظ هؤلاء المحمديون؟! ألم يأن لهم أن يُسَلِّموا لنا رايتهم، فيدخلوا في طاعة المسيح الذي ضحّى بنفسه من أجل التكفير عن خطايا البشر أجمعين؟!"
- "وها هي ذي المنصورة يا مولاي على بعد أميال قليلة، تركها المماليك وفروا، وعلى رأسهم قائدهم أقطاي الملقب بفارس الدين! سندخلها فاتحين كما فعلنا من قبل بدمياط!" قال روبرت مخاطباً أخاه الملك، وقد سكر من غير خمر.

من نصر إلى نصر والطريق إلى القاهرة بات أمامهم بلا عراقيل، بعدما انهزم "المحمديون" شر هزيمة، وقُتل قائدهم وهو بين أيديهم..... تحرك روبرت وفرقته مصطحباً معهم فرسان المعبد الأشاوس. رأوا أبواب المنصورة مفتوحة أمامهم..... "فرّ الجبناء

وتركوها لقمة سائغة لمن يرغب في التهامها!".... إنها أسهل حرب خاضها حاكم أرتوا في حياته.

- "ليت جميع الحروب تكون على هذه الشاكلة." قال روبرت شقيق الملك ضاحكاً لقادته، في أثناء مروره عبر بوابة المنصورة.... ما فشل في تحقيقه ملوك أوروبا وحُكّامها في الحملة المقدسة السابقة، ها هم الفرنسيون يحققونه الآن بكل يسر تحت قيادته وقيادة أخيه الملك لويس التاسع. ستتغنى الأجيال اللاحقة، لا محالة، ببطولاته وصولاته وجولاته! ولكن كل هذا لن يساوي شيئاً مقابل القضاء على شوكة "المحمديين" إلى الأبد، ومن ثمّ استرداد أورشليم لتعود إلى كنف أبناء الرب، أتباع المسيح!

ولكن شيئاً ما بدا على غير ما يرام...... "لماذا جميع نوافذ بيوت المدينة مفتوحة؟"..... بل وكأن بعض الأهالي ظلّوا في بيوتهم ولم يغادروها؟! توقف روبرت في منتصف المدينة قبل أن يصل إلى قصر الوالي. هاجس بدأ ينتابه، فالأمر لم يكن كما كان بدمياط..... لو لم يرَ جواسيسُه أقطاي وهو ينسحب مع فرسانه، لقال: إن في الأمر أمراً، ولكن......

- "كمين! كمين يا مولاي!"

سمع حاكم أرتوا صراخاً قادماً من مؤخرة جيشه، فالتفت على الفور ليرى فوضى عارمة قادمة من الخلف، وما كاد يستوعب ذاك المشهد العبثي، حتى انهال عليه وعلى باقي الجيش وابل من السهام عبر النوافذ المفتوحة!

* * *

ما إن علم أقطاي بأن الفرنجة قد بلعوا الطعم ودخلوا المنصورة، حتى التف وعاد مسرعاً، متجهاً نحو مُخَيَّم ملكهم، بعدما أعطى

الإشـارة المتفـق عليهـا بغلق أبـواب المنصورة ليعزل بها جـزءاً كبيراً مـن جيـش الفرنجـة بداخلهـا. كان على يقين بـأن المماليك بالداخل بقيادة معاونه بيبرس البندقداري، وبمسـاعدة الأهالي، سـيتمكنون من تحطيمهـم عبـر الأزقـة الضيقة بعد إحداث الفوضى فيهم..... فما من شيء أسوأ من المفاجآت في المعارك، والحرب خدعة!

انقض قائد المماليك البحرية مع فرسـانه كالصاعقة على جيش الفرنجة الموجودين عند بحر أشموم، في المكان نفسه الذي قُتل فيه ابن شـيخ الشـيوخ قبل أيام، وكأن الهزيمة الشـنعاء التي مني بها قائد جيـوش الأيوبييـن العجـوز وأدّت إلى مصرعه، هي ذاتها التي سـوف تُمَهد لانتصاره المزمع على جيش الفرنجة.... "ومصائب قوم عند قوم فوائدا!"

* * *

كانـت معركـة شرسـة، سـالت فيهـا الكثيـر مـن الدمـاء من كلا الجانبيـن، داخـل المنصـورة وخارجها. لم يرَ ملك فرنسـا شـيئاً كهذا القتـال الـذي كان علـى مرمـى عينيـه، وكأنه كان يقاتل شـياطين أتت من جهنم! وعلى الرغم من تفوق عدد جنوده وفرسـانه على فرسـان المماليـك، إلّا أنهـم كانـوا يتسـاقطون أمامهم كالذبـاب، وخاصة أمام شيطانهم الأكبر أقطاي!

- "علينا الانسحاب الآن يا مولاي وإلّا أبادونا جميعاً!" صرخ تشارلز حاكـم أنجـو مخاطبـاً شـقيقه الملـك، بعدما شـعر بمـآل المعركة الخاسرة....
- "بإمكاننـا الرجـوع إلـى فارسـكور قبل دميـاط، واسـتجماع قوّاتنا هناك. هذا هو الحل الأفضل يا مولاي."
- "ومـاذا عـن روبـرت؟! أنتركـه وفرسـانه في المنصـورة مع هؤلاء

الشياطين ونَفِرَ؟!"

- "فليكن الرب معه!...... لن نستطيع فعل أي شيء له الآن!"

* * *

فُتحت أبواب المنصورة من جديد بعدما أبيد جميع فرسان الفرنجة وعلى رأسهم قائدهم روبرت حاكم أرتوا...... دخل فارس الدين أقطاي متصدراً من كان معه من المماليك ليرى بنفسه ما فعله بيبرس البندقداري مع باقي فرسانه داخل المدينة، فكان الأمر كما توقع من معاونه الباسل..... مذبحة لم تبقِ ولم تذر، حتى أصبحت الأزقة والشوارع تسيل بدماء الغزاة!

- "حاول بعضهم الاستسلام، ولكن كما أمرتني، فلم أتخذ اليوم لنا أسرى." قال بيبرس مخاطباً أميره الذي عاد بعدما كبّل جيش ملك فرنسا هزيمة منكرة جعلته يفر بحثاً عن الأمان بالقرب من دمياط.
- "هل أرسلت إلى القاهرة بالنبأ العظيم؟"
- "نعم، وكذلك أرسلت في طلب المدد من أجل الزحف نحو دمياط واستعادتها من الفرنجة."
- "حسناً فعلت. لعل أيبك ومماليكه يشاركوننا الحرب الآن، بعدما أضعفنا لهم العدو." قال أقطاي مستهزئاً، ثم أطلق ضحكة مدوية شاركه فيها بيبرس وكبار قادته من المماليك......

* * *

استمرت المعارك سجالاً ما بين جيش الفرنجة وجيش المماليك البحرية في الأيام التي تلت موقعة المنصورة، دون أن يحسم طرف الحرب لمصلحته، وإن كانت كفة المماليك بدت هي الراجحة على الرغم من كونهم الأقل عدداً..... أرسل أقطاي أكثر من رسالة للملك الصالح يطلب منه إرسال باقي الجيش إليه، وأن يوليه قائداً عليهم

حتى يتمكن من قطع دابر الفرنجة عن مصر واستعادة دمياط منهم، ولكنه لم يتلقَّ أي رد، حتى بات له ذلك الصمت محيراً، فارتاب للأمر. أخذت تساوره الشكوك بأن الملك الصالح قد مات، فراحت تساوره نفسه بأن يذهب إلى القاهرة من أجل تحري الأمر، ولكن ظروف الحرب المستمرة منعته من ذلك..... أخذت ريبته تزداد يوماً بعد يوم، وقد أصبح شبه متيقن مع مرور الأيام أن شيئاً ما يتم ترتيبه في عاصمة البلاد، بعيداً عنه، حتى بات يخشى بأن تكون أيادي خصمه اللدود أيبك متورطة في الذي كان يحاك بعيداً عنه، مستغلاً انشغاله في المنصورة!

- "لن أسمح لذلك التركماني بالانقضاض على الحكم!" ردّد أقطاي أكثر من مرة أمام كبار قادته، فوافقوه على ما قال، مبدين له كامل الانصياع.....
- "نحن نقاتل الغزاة هنا في المنصورة، وهو يجني الثمار هناك في القاهرة! تالله هذا ما لن يكون أبداً!"

أيام أخرى مضت على هذا الحال، ما بين حرب سجال مع الفرنجة في فارسكور، والريبة والتوجس من خصوم قابعين في عاصمة البلاد، حتى كانت المفاجأة التي لم تخطر على بال أقطاي وفرسانه..... لقد جاءهم المدد بعد طول انتظار، ولكنه لم يكن ذلك الذي توقعوه، بل شيئاً آخر باغتهم، لم يكن في الحسبان!

44

دخل الموكب السلطاني بأوج عظمته عبر بوابة المنصورة محاطاً بمماليك الصالحية الذين قدموا من القاهرة تحت إمرة عز الدين أيبك، ليصطحبوا في هذا اليوم العظيم من تم تتويجه سلطاناً جديداً للبلاد.... توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب.

اصطف جميع الأهالي حول الشوارع التي يسير من خلالها الموكب إلى القصر، ليشاهدوا سلطانهم الجديد الذي جاء من حصن كيفا، معتلياً فرسه الأشهب..... كيف جاء بهذه السرعة من أعالي الشام؟ ومتى مات السلطان السابق؟ وكيف لم يعلم أحد بخبر موته؟! أسئلة ظلّت تُحَيّر عقول الكثيرين، ولكن سرعان ما تبين الأمر...... فعُلم السبب، وبطُل العجب.... الأمر كله كان من تدبير شجرة الدر!

* * *

- "يموت سلطان البلاد وملكها دون أن تعلم؟! ماذا كنت تفعل إذن في القاهرة يا أيبك؟!" خرج أقطاي عن صوابه فور ما أُغلقت أبواب الطبلخاناه على الأميرين، حتى يتحدثا سوياً، بعيداً عن مسامع السلطان الجديد ورجاله.
- "خدعتنا جميعاً شجرة الدر، وأخفت عنّا خبر موته، ثم أرسلت من ورائنا إلى توران شاه لكي يحضر إلى مصر على عجل، فيتسلم الحكم من بعد أبيه...... إنها امرأة لبيبة، تمكنت من إدارة البلاد في أثناء الحرب، وكأن الملك الصالح لا يزال على قيد

الحياة، حتّى لا يدب الهمّ واليأس في نفوس الجنود والقادة وباقي الرعية."

- "كأنك معجب بها، وتدافع عمّا فعلته؟!"

احتار أقطاي، ولم يعلم أيهما أكثر مدعاة للغيظ: ما فعلته شجرة الدر، أم حديث أيبك الهادئ وكأن الأمر لا يعنيه أيضاً؟!

- "الحكيم من يعترف بالهزيمة عندما تقع، ولا يتعالى..... الآن هناك أمر واقع وعلينا أن نتعامل معه، ولا تنسَ أننا ما زلنا في حالة حرب، والفرنجة ما زالوا في البلاد على الرغم من هزيمتهم في موقعة المنصورة."
- "أدرك ذلك جيداً، ولست في حاجة لمن يذكرني! ما منعني من القضاء عليهم وقطع دابرهم، سوى حاجتي للمزيد من الفرسان."
- "وها قد أتيتك مع فرساني، إضافة إلى الجيش الذي حضر مع توران شاه من حصن كيفا."

لم يستسغ أقطاي ردّ أيبك، فآخر ما كان يتمناه مجيء جيش جديد للأيوبيين، بعدما أُبيد جيشهم السابق مع قائده ابن شيخ الشيوخ......

- "لست في حاجة إليه ولجيشه الخانع! غداً نهاجم الفرنجة بفرساني وفرسانك وننهي الأمر!"
- "على رسلك يا أقطاي.... لا بد من عرض الأمر أولاً على السلطان الجديد."
- "كف عن ترديد خبر السلطان الجديد!" صرخ أقطاي في وجه أيبك الذي اختلس ابتسامة سرعان ما حاول إخفاءها، وكأنه سعد باستثارة أمير المماليك البحرية.
- "هناك أمر واقع لا بد أن نعترف به، سواءً رغبنا ذلك أم لم نرغب."

اكتفى أقطاي بالنظر متمعناً إلى وجه أيبك، دون أن يرد عليه هذه

المرة.... تأمل عينيه الماكرتين، مدركاً أن رفيقه يضمر شيئاً وإن حاول إخفاءه تحت ستارة هدوئه المفتعل..... لحظات مرّت من الصمت، ثم التّف نحو الباب، معلناً عن انتهاء هذا اللقاء.

45

بقدر ما حاول أقطاي أن يقابل توران شـاه، إلّا أنه لم يسـتطع. فسـلطان مصر وملكها الجديد لم يكن راغباً في التواصل مباشـرة مع أي مـن أمـراء المماليـك وكأنهـم أنداد لـه، أو حتى من علية القوم أو خاصّتهم. فما كان عليه الحال في زمن أبيه قد تبدل الآن، ولكل رجل مقامـه، وليـس مقـام المماليك العبيد التواصل مـع الملوك أو حضور مجالسهم!

شعر أقطاي بأن السلطان الشاب أراد أن يصنع لنفسه مجداً بعيداً عنـه وعـن فرسـانه، فيسـتهل به عهـده الجديد..... لذلك لـم يأذن له ولأيبك بمهاجمة الفرنجة المخيمين عند فارسكور، على النحو الذي خطّط له أمير المماليك البحرية؛ بل كانت له خطة بديلة جهّز لها مع قادته من حصن كيفا دون الرجوع إليه أو حتى إلى أيبك. كان عليهما فقط أن ينصاعا إلى ما سوف يتم إعلامهما به من قِبَل أحد قوّاده، في الوقت الذي يرتئيه هو!

مـرّت الأيـام منـذ معركة المنصورة، وتلتها الأسـابيع، حتّى بات المماليك يشعرون بأن فرصتهم في القضاء على الفرنجة الغزاة أخذت تنحصر بسـبب تردّد السـلطان الشـاب عن مهاجمتهم. بل وزاد عليهم أنهم قد أصبحوا الآن من بعد عزة أذلاء عند هذا "المغرور" الذي هلّ عليهم من أعالي الشام، فمَلَك البلاد ومن عليها دون مراعاتهم، وهم الذين خدموا أباه، وحاربوا من أجله، حتى سالت دماؤهم فروت هذه

الأرض الّتي ورثها!

- "إلى متى سنقبل مثل هذه المهانة؟!" ردّد أقطاي سؤاله على مسامع أبيك أكثر من مرة دون أن يحصل منه على الرد الذي يبتغيه.....
- "كل شيء في زمانه طيِّب..... هناك عدو خطير يتربص بنا الآن على بعد خطوات منّا عند فارسكور."
- "وكيف عسانا سننتصر عليه وهذا السلطان الأجوف لا يشاورنا في الأمر كما كان يفعل أبوه، رحمة الله عليه...... هيهات، فشتان ما بين الأب والابن!"

وعلى الرغم من تذمر المماليك، إلّا أن توران شاه كان يعد العدّة من أجل الانقضاض على ما تبقى من جيش ملك فرنسا، في سِرِّيَة تامة؛ وفي الليلة المنشودة، أعطى خلسة السلطان الشاب أوامره من أجل البدء في نقل السفن عبر البر إلى فارسكور، لكي يتمكن قبل طلوع النهار من مفاجأة الفرنجة بعد الالتفاف حولهم، ومحاصرتهم من جميع الاتجاهات، برّاً وبحراً......

* * *

دُقت الطبول ونُفِخ في الأبواق على إثر هجوم كاسح لم يكن على البال..... وجد لويس التاسع وقادته أنفسهم وقد أصبحوا بين كماشة "المحمديين" بعد أن قطعوا عليهم خط العودة إلى دمياط. راية الأيوبيين شمالهم والمماليك من جنوبهم..... لا مفر!

كيف استطاعت سفن "المحمديين" الإبحار إلى فارسكور دون أن تمر النهر من خلالهم؟! باتت سفن الفرنجة محاصرة بعد أن كانت هي السد المنيع عبر نهر النيل..... معركة طاحنة جعلت ملك فرنسا يقاتل حاملاً السلاح دفاعاً عن حياته في فارسكور، من بعد هزيمة المنصورة المريرة، وكأن المسيح قد تخلى عنه وعن حملته المقدسة،

فبات هو وفرسانه يقاتلون وحدهم من دونه!

- "لماذا أيها الرب الرحيم؟! جئتُ مقاتلاً من أجل إعلاء رايتك على راية المحمديين الكفرة، الذين دَنَّسوا بأقدامهم وجمالهم الأرضَ الّتي ولدتَ ثم صلبتَ فيها، قبل أن يَرْفَعك أبوك، القابع على عرشه في السماء، لتكون بجواره! لماذا تخليت عن أنصارك، ومَكَّنت هؤلاء الأنجاس منّا؟! ألِذنبٍ اقترفناه دون أن ندري؟!"

علت صرخات لويس التاسع حتى أسمعت كل من كان حوله، دون أن تترك أثراً في أرض المعركة، وقد أخذ يرى جنوده وفرسانه وقادته متناثرين على الأرض ما بين جريح وصريع؛ ثم جاءت اللحظة الحاسمة؛ تلك اللحظة الّتي ما كان يتخيل حدوثها ولا في أحلك الظروف..... لحظة سقوط جُلّ حراسه من حوله، فبات مكشوفاً "للمحمديين" الذين حاصروره من جميع الجهات..... لحظة تقدم سلطان "المحمديين" الجديد نحوه شاهراً سيفه، آمراً إياه إمّا بالاستسلام أو القتل!

46

عمّت الأفراح نواحي البلاد. هلّل المهللون، وأنشد المغنون، وتوافد المنافقون..... جميعهم يتغنون بعظمة السلطان الجديد الذي جاء من حصن كيفا لينقذ البلاد من الفرنجة الغزاة، ويأسر ملكهم، فيذله أيّما إذلال، وها هو ذا لويس التاسع قد أصبح حبيساً في دار ابن لقمان بالمنصورة!

- "أيام أبي قد ولّت، ونحن الآن أمام عهد جديد!" حرص توران شاه على إسماع جميع الأعيان، في أثناء مخاطبته لهم في خيمته التي نصبها بفارسكور، حيث كانت المعركة الفاصلة التي صنع من خلالها مجده.....
- "آن الأوان لكي يعود كلٌّ إلى حجمه؛ فلن يسود العبيدُ بعد اليوم الأحرار، أو يتعالوا عليهم؛ وأي مملوك أراه لا يرضى، فليس عندي له سوى العصا!"
- "الله أكبر! الله أكبر!" ردّد الجمع المتواجد أمام سلطان البلاد وملكها الجديد.... منهم من كان قد فرّ من المنصورة خوفاً من الفرنجة ثم عاد بعد سماعه خبر انتصار المماليك، وآخرون لم يتمكنوا من الفرار فتواروا في القباء في أثناء القتال.

دقائق مرّت قبل أن يأمر توران شاه بفضّ اللقاء، ليختلي مع وزيره، بعد فراغه من تلقي تهاني المهنئين، ومبايعة من لم يبايع حتى تلك اللحظة....

- "شجرة الدر!"
- "عفواً يا مولاي؟" لم يفهم الوزير قصد مولاه السلطان من ذكر اسم زوجة أبيه.
- "أريدها أن تباع في سوق النخاسة، لتعود جارية كما كانت!"
- "مولاي..... هذا أمر يستحيل فعله، خاصة أن لها مكانة كبيرة عند المماليك....."
- "لا يهمني أمر هؤلاء العبيد!" قاطع توران شاه وزيره على الفور، دون أن يمهله فرصة لاستكمال حديثه.....
- "لن أسمح لأحد منهم أن يعارض قراراً أتخذه، ومن يفعل فلن تأخذني به رحمة! تالله لأقطعن رأسه وأعلقه على باب زويلة، ليكون عبرة للناظرين! لقد ولّى زمان هؤلاء المماليك، ويجب عليهم أن يعلموا جيداً أنّي لست كالسلطان السابق، ولن تكون لهم الحظوة الّتي كانت في عهده."

هزّ الوزير رأسه، مذعناً لأمر سلطانه، وإن كان في قرارة نفسه قد أدرك جيداً أن المسألة لن تمر هكذا مرور الكرام؛ فما سمعه عن هؤلاء المماليك، وبالأخص أميرهم الصارم فارس الدين أقطاي، لا يبشر بالخير أبداً......

47

أشـرقت شـمس فارسـكور عن يوم لم تشـهد له من مثيل، فاق غرابته ذلك اليوم المشهود الذي انتصر فيه الأيوبيون، بقيادة سلطانهم الشـاب، علـى الملـك لويس التاسـع وجنـوده. اسـتيقظ الجميع على انسحاب مفاجئ لعز الدين أيبك ومماليكه، فلم يتبقَّ بالمخيم السلطاني سـوى جنود توران شـاه المنهكين إثر تلك الموقعة الطاحنة؛ وما إن بـزغ قـرص الشـمس، واتخـذ موقعه بين السـحب في أعلى السـماء، حتّـى شـاهد الأيوبيـون المماليك البحرية وهم يحيطـون بالمخيم من كل اتجاه، وأقطاي وعشرة من أمهر فرسانه يسيرون شاهرين سيوفهم نحـو خيمـة تـوران شـاه دون أن يعتـرض طريقهم أحـد، حتى قطعوا نصف المسافة، عندما ظهر لهم الوزير ومعه عدد من فرسان الحامية السلطانية حاملين الرماح.....

- "ماذا تفعل يا أقطاي؟!" بادر الوزير، وقد علم الإجابة من دون أن يسمعها.
- "ابتعـد عـن طريقـي إن أردت لنفسـك ولجنودك النجـاة، فأنتم لا تعنوني بشيء."
- "اسـتعذ بـالله مـن الشـيطان الرجيـم، فمثلك لم يجبـل على حمل السلاح في وجه سلطانه."
- "سلطاني قد مات، أما هذا الأخرق المتواري في خيمته، فليس له بيعة في عنقي! سأمهلك فرصة أخيرة أنت ورجالك لكي تبتعدوا

عن طريقي، وإلّا......"

- "لا أستطيع يا أقطاي..... عليك العبور عبر جثثنا وعلى دمائنا إن أردت الوصول إليه."

ما كاد الوزير ينهي جملته حتّى انهال أقطاي وفرسانه وعلى رأسهم بيبرس البندقداري على الأيوبيين ليسقطوهم جميعاً على الأرض، دون أدنى عناء، غارقين في دمائهم، كما أراد وزير السلطان...... لم يتبقَّ أحد منهم على قيد الحياة!

شاهد توران شاه ما جرى من خيمته، غير مصدق ما قد حدث أمام عينيه الشاخصتين من شدة الذهول..... تسارعت دقات قلبه وهو يبحث لنفسه عن مخرج من هذا المأزق العظيم، خاصّة بعدما أدرك أن فرسانه المنهكين لن يكون بوسعهم فعل أي شيء من أجل إنقاذه من هؤلاء المماليك وأميرهم الباطش!

- "مهلاً يا أقطاي! مهلاً بالله عليك..... سأجعلك وزيراً لي، بل نائباً للسلطنة..." خرج من خيمته وأخذ يصرخ، لكن دون أن يحدث ذلك أي فارق ملحوظ عند أمير المماليك البحرية المستمر في التقدم نحوه.....
- "سأفعل كل ما تريد! أي شيء يا أقطاي..... أي شيء!"

ابتعد توران شاه عن خيمته جرياً نحو برج خشبي على ضفاف النهر، فأخذ يتسلقه حتى وصل إلى القِمّة.....

- "سأتنازل عن ملك مصر، وأرحل إلى حصن كيفا من حيث جئت..... لا أريد شيئاً من هذه البلاد..... ولّوا عليها من ترغبون!"

وضع أقطاي سيفه بين فكّيه، وأخذ يتسلق البرج بعزم جبل لا تهزه الرياح، وما إن كاد يصل إلى أعلاه، حتّى ألقى توران شاه بنفسه في النهر، فأخذ يسبح إلى الضفة الأخرى منه. أشار أقطاي

إلى بيبرس لكي يجلب له قوساً وبعض السهام، ففعل معاونه على عجل..... استمر السلطان الشاب في منازعة مياه نهر النيل لكي يبتعد عن المماليك، حتّى قطع ثلث الطريق سباحة، فتوقف لكي يلتقط أنفاسه الّتي ما عادت تسعفه. نظر على عجل خلفه، فشاهد أقطاي وهو يُصَوِّب نحوه سهماً. ما كاد يلتفت ليعاود السباحة من جديد نحو الضفة الآمنة، حتى شعر بسهم يخترق صدره من الخلف، فتوقف. لحظة أخرى، فكان سهم آخر يخترقه..... ثم سهم ثالث...... أدرك حينها توران شاه وهو يرى ماء النهر من حوله يَغْمَقُ زرقة من أثر الدماء، أن كل شيء قد انتهى...... لن يحكم مصر...... لن يعود إلى حصن كيفا..... فلقد جاء أجله، في المكان نفسه الذي شهد مجده..... فارسكور!

48

- "شـويخ من أرض مكناس وسـط الأسـواق يغني.....أش عليا من الناس وأش على الناس مني..... أش عليا يا صاحب من جميع الخلايق..... افعل الخير تنجو واتبع أهل الحقائق..... لا تقل يا ابني كلمه إلا أن كنت صادق..... خذ كلامي في قرطاس واكتبه حرز عني..... أش عليا من الناس وأش على الناس مني..... ثم قول مبين ولا يحتاج عبارة...... أش على حد من حد افهموا ذي الإشـاره.... وانظروا كبر سـني والعصا والغراره..... هكذا عشت فـي فـاس وكـذاك هون هوني..... أش عليا من الناس وأش على الناس مني..... وما أحسن كلامه إذ يخطر في الأسواق..... وترى أهـل الحوانيـت تلتفت لـو بالأعناق..... بغرارة في عنقه وعكيكز وأقراق..... شويخ مبني على أساس كما انشأ الله مبني..... أش عليـا مـن النـاس وأش علـى النـاس مني..... لو ترى ذا الشـويخ مـا أرقـوا بمعنـى..... التفت لي وقـال لي أش نراك تتبعنا..... أنا نصب لي زنبيل يرحموا من رحمنا..... وأقاموا بين اجناس ويقول دعنـي دعنـي..... أش عليـا من النـاس وأش على الناس مني.... مـن عمـل يـا بنـي طيب ما يصيـب إلا طيب..... لعيوبوا سـينظر وفعالوا يعيب.... والمقارب بحالي يبقى برا مسيب.... من معوا طيبة انفاس يدري عذر المغني..... أش عليا من الناس وأش على الناس مني..... وكذاك اشتغالوا بالصلاة على محمد..... والرضا

عـن وزيـروا أبـي بكر الممجد..... وعمر قائل الحق وشـهيد كل مشهد..... وعلي مفتي الأرجاس إذا يضرب ما يثني..... أش عليا مـن النـاس وأش علـى النـاس مني.... يا إلهـي رجوتك جد عليا يتوبه.....بالنبي قد سألتك والكرام الأحبه..... الرجيم قد شغلني وأنا معوا في نشبه..... قد ملا قلبي وسواس مماه يبغاه مني..... أش عليا من الناس وأش على الناس مني..... تم وصف الشويخ في معاني نظامي..... وإني خواص ونقري لأهل فني سلامي..... وإذا جوزوني نقل أول كلامي..... شويخ من أرض مكناس وسط الأسواق يغني..... أش عليا من الناس وأش على الناس مني."

لـم يخـفَ علـى مـراد صـوت المغنـي الـذي كان ينشـد، أو أسـلوبه العجيب في العزف على العود الذي سـاعده قبل عقود على الانفصال..... ولكن..... ثَمَّ شيء لم يفهمه؛ فكيف جاء بكلمات هذه الأغنية الشهيرة من زمنه، وإن كان اللحن مغايراً؟!

- "أهي الأغنية نفسها التي حدّثنا عنها صاحب الحانة في ألموت؟" تساءلت نوران عندما رأت مراد وقد توقف فجأة عن السير لصوت المغني القادم من خلف سـور مبنى مجاور، وكأن لا شـيء غيره في حاضرة العالم بغداد، يستحق التأمل والتعجب.
- "ليس هذا فحسب، بل هو العوّاد نفسه الذي ذهبت إليه في سجن مراغة."

فوجئت نوران لهذه الإجابة؛ فأي مصادفة هذه، إن كانت بالفعل كذلك! أدركت في الحال سـر دهشـة مراد، وهو الذي لا يُدهش من قليل.....

انطلقا على الفور إلى مبنى حجري متهالك بعض الشـيء، وإن كان لا يخلو من آثار مجد وبهاء سابق أخذ الدهر يتكالب عليه. بوّابته

الخشبية كانت مفتوحة على ساحة كبيرة تتوسطها نافورة لا تعمل، ماؤها مخضر من الركود، وفي جانب من هذه الساحة كان عدد من الناس منبسطين على الأرض، وآخرون بدوا أكثر جاهاً على الأرائك جالسون، جميعهم ملتفون حول ذلك الرجل الذي عرفه مراد فور ما رآه..... سابح العوّاد. بدا له كما رآه آخر مرة منذ أكثر من عقدين، وكأن الدهر، الذي لم يسلم هذا المبنى العتيق من تقلباته، قد نسيه!

* * *

- "مراد قُطُز! ما حسبت أني سألقاك بعد كل هذه السنين." قال سابح العوّاد مُقْبلاً نحو رفيقه القديم، ثم عانقه بحفاوة واشتياق.....
- "لم أرَ في حياتي قبل ذلك اليوم المشهود، رجلاً يختفي كما اختفيت أنت أمام عيني. قلت لي قبلها إنك ترغب في النوم، ولكن ما فعلته قد تجاوز ذلك بكثير!" أضاف ممازحاً، ثم التفت لنوران......
- "ومن عساها تكون هذه المليحة؟ كأني رأيتك من قبل."
- "نوران بنت محمود بن ممدود." أجابت بعجل على سؤال العوّاد، قبل أن يعلق مراد على ما قاله.
- "محمود بن ممدود الذي أصبح قطز..... أنتِ إذن ابنة ياسمي..... بالفعل الشبه واضح، فهذه الثمرة لم تبتعد كثيراً عن تلك الشجرة."
- "يبدو وكأنك على علم بما هو أكثر من مجرد الغناء والعزف على العود." قاطعه مراد دون أن يحاول إخفاء نبرة صوتٍ تملؤها الريبة.....
- "أنت الذي كنت في قلعة ألموت، وأنشدت الأغنية نفسها التي سمعناها منك قبل قليل، فسهلت لنا خروجنا من السجن..... تلك لم تكن مصادفة؛ فما علاقتك بكل هذه الأحداث؟!"

- "هل تعلم أين نحن الآن؟" رفع سابح العوّاد ذراعيه وكأنه يحتضن بهما الأجواء من حوله.....
- "ليتك رأيته عندما أنشِئ قبل ثلاثة قرون؛ قبل أن تهلكه الفيضانات والسيول، وشح الأموال. إنه البيمارستان العضدي الذي عمل فيه أعظم أطباء بغداد والعالم بأسره. هؤلاء المساكين الذين ترونهم متناثرين هنا وهناك، هم من تبقى من المرضى الذين كانوا في يوم من الأيام يعج بهم المكان. لا شيء يبقى على حاله يا صديقي، حتى وإن بدا خلاف ذلك لمن لا يرى حقائق الأمور."
- "لا تحاول التهرب من السؤال يا سابح.... أنت لست بعبدالرحمن، وأنا لست بمراد الذي كان!"

ابتسم سابح العوّاد لما قاله مراد، دون أن يحاول الرد عليه. أمسك بعوده الذي وضعه جانباً قبل أن يُقبل على رفيقه القديم، ثم أخذ بالتحرك إلى خارج البيمارستان، بعد أن أشار إلى مراد ونوران لكي يتبعاه.

49

تحت شجرة مطلة على نهر دجلة، استلقى سابح العوّاد، واضعاً عوده بجواره. طوال الطريق لم ينطق بكلمة ، وكأنه آثر الصمت حتى يصل إلى هذه البقعة النائية، والبعيدة عن باقي قصور بغداد المطلة على ذات النهر العظيم......

- "زرت أماكن كثيرة وبعيدة في مشارق الأرض ومغاربها، ولم أجد مثل هذه البقعة في هذه المدينة على شاطئ هذا النهر، وكأن فيها سرّاً عظيماً لا يعلمه إلّا خالقها..... لحنٌ عظيم يتناغم فيه كل شيء من خرير المياه وتغريد الطيور ومداعبة الريح لأوراق هذه الشجرة." صمت سابح قليلاً، ثم فجأة، ومن دون مقدمات، بادر بسؤال مراد......
- "أخبرني، هل وجدت مبتغاك، بعدما نمت في ذلك اليوم؟ أو لعلي أصَحِّح فأقول: بعدما تَحرَّرت؟"
- "تسألني قبل أن تجيب أنت عن سؤالي؟!"
- "ما أنا إلّا رجل مثلك يسير على طريقه، وما من طريق إلّا ويتقاطع مع غيره في لحظة ما."
- "ومن أي الأزمنة جئت؟" أصرّ مراد بأن يحصل منه على المزيد.
- "أنا ابن هذا الزمان، وليس لي سواه، وقد حنَّت أنامله عليّ، فوجدتني لا أهرم كما يهرم الآخرون حتى أدوِّن لحظات مجده وضعفه وانكساره."

- "مستحيل ما تقوله! الكلمات التي أنشدتها في البيمارستان ليست من هذا الزمان؛ فكيف حصلت عليها إذن؟!"
- "حصلت عليها من صاحبها أبي الحسن الششتري، بعدما ترك متاع الدنيا بغرناطة، واتَّبع شيخه شعيب بن سبعين، فجاب معه مختلف البلاد. القصيدة التي سمعتني أغنيها كانت تتحدث عنه وعن شيخه وعن بحثهما المستمر الذي لا ينقطع..... لماذا تسأل؟ هل ظننتها من زمن آخر؟ من زمنك أنت مثلاً؟"
- "لوهلة ظننتك.... لا عليك." ابتسم مراد بعدما أدرك حقيقة كان يجهلها إلى تلك اللحظة، جعلته يشتاق إلى زمنه الذي غاب عنه.....
- "في يوم ما ستبلغ هذه القصيدة شهرة تفوق شهرة صاحبها، فتجتاز بها حاجز الزمان."
- "لأني غنيتها؟!" تساءل سابح العوّاد، دون أن يخفي شغفاً.
- "لا، بل لأن شخصاً آخر لم يولد بعد سوف يغنيها بلحن آخر جميل، غير لحنك."
- "لا أحد يستطيع الإتيان بمثل لحني!" ردّ سابح معترضاً على ما قاله مراد، وكأنه شعر بإهانة نغَّصت عليه يومه الذي كان يسير على أكمل وجه قبل هذه اللحظة!
- "أنت رجل لا مثيل له يا سابح، أشهد لك بهذا، ولعلّ من صُلْبك سيخرج للدنيا من يزيدها بهجة وجمالاً."

قَبِل سابح العوّاد مديح مراد له، فعادت إليه بهجته التي كادت تغيب عنه مع شمس بغداد التي أخذت تتوارى عن الأنظار عند الضفة الغربية من نهر دجلة......

- "أنت رجل طيب بحق. أرجو من الله ألا تدوم حيرتك أكثر ممّا

ينبغي لها أن تدوم.... طريقك صعب يا صديقي، عجز عن السير فيه أعظم الرجال، ولكنّي أرى فيك ما لم أرَه فيهم."

- "ما الذي تراه؟" باغتته نوران بالسؤال، فالتفت إليها وكأنه تنبه فجأة لوجودها معهما، بعدما خرجوا من البيمارستان.
- "ليتني كنت أعلم، ولكن حتى شخص مثلي لا يعلم كل شيء...... إنّما الذي أعلمه جيداً، وقد يهمك هذا، أنّي التقيت أباك في دمشق، وقد تغيّر اسمه ليصبح مثل اسم عائلة مراد."
- "أبي!.... حقّاً؟!" شعرت نوران بقلبها وكأنه يريد أن يقفز من صدرها لما سمعته توّاً من العوّاد.....
- "وكيف حاله الآن؟! قلت لي إنه في دمشق؟!"
- "كان في دمشق، قبل أن يرحل مع أمير المماليك الصالحية، عز الدين أيبك، إلى مصر..... لعلك تجدينه هناك، خاصة وأن مصر الآن بعد انتصارها العظيم على الفرنجة قد أصبحت على أعتاب عهد جديد، ولا أحسبنّ شخصاً مثله سيكون عن ذلك الحدث ببعيد."

50

- "كنتَ محقاً يا أبا طالب. قلتَها قبل أن تحدث، ولم يصدقك أحد."

وضع خالد الورّاق عدداً من الكتب التي جلبها معه من رحلته إلى سمرقند وبخارى على الطاولة حيث أشار صاحب القصر، مؤيد الدين محمد بن العلقمي، ثم واصل حديثه......

- "حمداً لله أنه سخر لمصر من يذود عنها ضد الغزاة، ولكن هل صحيح يا أبا طالب ما يقال إن زوجة الصالح نجم الدين أيوب اعتلت عرش مصر بعدما تآمرت مع المماليك على قتله وقتل ابنه من بعده؟!"
- "الناس تتحدث بما لا تعلم يا خالد، فتمزج ما بين الحقائق والأوهام. الملك الصالح نجم الدين أيوب كان معتلاً زمناً، فلم تكن زوجته في حاجة لقتله. وهي من أرسلت في طلب توران شاه، لكي يتسلّم حكم مصر من بعد أبيه، ولو أبت أن تستدعيه لما كان بوسعه فعل أي شيء."
- "فلماذا قتله المماليك إذن يا أبا طالب، وهو سلطانهم؟"
- "لقد التقيت بتوران شاه أكثر من مرة هنا في بغداد، فرأيت شاباً أخرقَ على خلاف أبيه. ما ظننت والله أنه سيقدر على حكم مصر وبها أمثال أقطاي وأيبك."
- "ولكن أوَصل بنا الحال لأن تحكم مصرَ امرأةٌ، وكأنه ليس فيها رجل رشيد؟!"

ضحك ابن العلقمي لسؤال خالد الورّاق الذي خرج منه بعفوية الرجل البسيط. اقترب الوزير من تاجر الكتب، ثم ربت على كتفه، قبل أن يجيب عن سؤاله......

- "لعلّها أفضل من كثير من الرجال...... سؤالك هذا هو نفسه الذي سألها مولانا الخليفة المستعصم بالله. أحْسَبُ أنها ستتزوج من أحد أمراء المماليك لتضعه في الواجهة؛ فما سمعته عن زوجة الصالح نجم الدين أيوب، شجرة الدر، أنها امرأة ذات رجاحة عقل، فلن يغفل عنها مثل هذا الأمر..... والآن دعك من حديث السياسية والحكم يا رجل، وأرني ماذا جلبت لي من رحلتك الأخيرة."

أخذ ابن العلقمي يقلب بشغف ملحوظ في الكتب التي وضعها ضيفُه على الطاولة، حتى لفت انتباهه كتاب دون غيره.....

- "عطايا الوهاب في الكشف عن خصائص الأعشاب،"

بدأ في تصفح الكتاب قبل أن يضيف على استحياء.....

- "جُلّاب المبخر..... لم أسمع بهذا المؤلف من قبل..... ما هذا يا خالد؟ كأنه كتاب في السحر والخرافة!"
- "الحق يقال يا أبا طالب....." تلعثم خالد الورّاق قليلاً، وبدا عليه التردد قبل أن يكمل حديثه......
- "حسبتك من أوصى بطلبه، ولذلك جلبته معي إليك."
- "ماذا تقول يا رجل؟! أنا لم أطلب منك قط هذ الكتاب، بل لم أسمع به من قبل، أو بمؤلفه!"
- "يا سبحان الله!...... والله إنك لم تزدني بقولك هذا سوى حيرة على حيرتي السابقة!"
- "وأنا حتى الآن لم أفهم قصدك بهذا الحديث.... أفصح يا خالد."

- "حسناً يا أبا طالب، حسناً..... في آخر يوم لي ببخارى، قبل مجيئي إلى بغداد، وجدت هذا الكتاب على عتبة باب الحجرة التي اكتريتها، ومعها رسالة تقول: هذا الكتاب يُسَلَّم إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي..... سألت صاحب الخان، رجل يُدعى موسى كان صاحب ثروة عظيمة ثم فقد أغلبها، إن كان يعلم من الذي وضع الكتاب؟ فأنكر معرفته بالأمر..... قلت لنفسي حينها إنه لعلّك أرسلت لأحدٍ ما غيري في طلب هذا الكتاب، وأن يسلمه لي حتى أجلبه إليك؛ وهذا كل ما أعرفه عن الأمر."

تعجب ابن العلقمي لما قصّه عليه خالد الورّاق، فمن عساه أن يكون هذا الشخص الذي بعث إليه بهذا الكتاب العجيب، ولِمَ فعل هذا؟! بل وكيف عرف أن هذا الرجل الوافد على بخارى، من أجل شراء بعض الكتب، تربطه علاقة مع وزير الخليفة المستعصم بالله؟!

- "لا عليك يا خالد، لا عليك.... سأضع هذا الكتاب في مكتبتي الخاصة، فمثله لا يصلح أن يكون في مكتبة بغداد..... ومن يدري؟ فلعلّ يكون له قارئ في يوم ما."

51

لم يكن البيمارستان العضدي المبني الوحيد الذي يعاني التلف في بغداد، بل بدت المدينة بأكملها وكأنها تشيخ، وعلى وشك الاحتضار. لم تكن هذه حاضرة العالم التي تخيلها مراد، بل شيئاً آخر أكثر بؤساً، وأقل بهاءً. لعلّ قصور الأمراء والوزراء والأعيان المتناثرة حول عاصمة العباسيين، كانت هي الاستثناء، على خلاف منازل العوام، والحوانيت التي أرهقتها السيول والفيضانات المتلاحقة، بجانب المناوشات بين السنة والشيعة التي ما إن تهدأ حتى تشتعل من جديد لأتفه الأسباب، مستحضرين صراع علي ومعاوية، وابنيهما الحسين ويزيد. لم يعد يوم عاشوراء يوماً للصيام والعبادة، بل أصبح يوماً لاسترجاع البغض والكراهية، وإراقة الدماء من جديد..... مدينة السلام لم تعد آمنة على أهلها، وكأنها سئمت منهم جميعاً، فأرادت أن تزيحهم عن ترابها، فأخذت تنادي عمّن يحرقها وهم فيها، لتعود من دونهم عبر الرماد، كمثل العنقاء!

– "ودك لو تحذرهم عمّا ينتظرهم." قالت نوران، وكأنها تُقِرّ بما كان يجوب في خاطره.

– "ليت الأمر بهذه البساطة. فلو كان، لحذّر عبدالرحمن أترار وبخارى وغيرها من المدن التي زارها. التاريخ لا يصنعه شخص واحد، وإن بدا لنا، في كثير من الأحيان، خلاف ذلك. هي طرق متشعبة كما قال سابح العوّاد؛ قد تلتقي وقد تفترق، ومهما بلغ

تأثير بعضها في بعض، تبقى في نهاية المطاف مجموعة من الطرق وليس طريقاً واحداً."

- "سابح العوّاد." ردّدت نوران اسمه، بعد ذكر مراد له، وقد شعرت بشيء من الحيرة في أمره.....
- "أهو مثلك ومثل أمّي وعبدالرحمن؟"
- "بل أحسبه شيئاً آخر، يجيد لغة لا يفهمها سوى قلة من البشر."

عن أي لغة يتحدث؟ تساءلت نوران مع نفسها..... لغة النغم والوتر؟ لغة الموسيقا والغناء؟ لعله كذلك، وإن كان ما وصل إليه سابح العوّاد أمراً لم تشهد له مثيلاً من قبل؛ بل حاله كحال مراد وأمها، وإن اختلفت التفاصيل.....

- "ماذا سنفعل الآن؟ هل نواصل طريقنا إلى مصر، بعدما تأكدنا أن أبي هناك الآن مع المماليك؟"
- "هو ذاك...... فكل الشواهد تقودنا إلى هناك، وكأن....." صمت مراد دون أن يكمل الجملة، ما استثار نوران.
- "وكأن ماذا؟"
- "وكأن حلقتي قد أوشكت أن تكتمل..... بدأت معي الأحداث بجملة سمعتها على المذياع عن مصر، وها أنا ذاهب إليها لأول مرة في حياتي، على خلاف قريني."
- "المذياع؟؟" لم تفهم نوران ماذا كان يقصد مراد بهذه الكلمة التي لم تسمعها من قبل.
- "شيء من زمني ليس له وجود بعد، يبث الحقائق تارة، ويبث الأكاذيب تارة أخرى."
- "مثل شعراء هذا الزمان؟" تساءلت مازحة دون اكتراث، وقد غمرتها سعادة كبيرة لشعورها بقرب ملاقاة أبيها الذي سمعت عنه

الكثير دون أن تراه.

- "الأفّاقون في كل زمان ومكان وإن اختلفت أشكالهم، ولكن ليس كل الشعراء سواء، أم أنك نسيت أبا الحسن الششتري الذي تغنى بشعره سابح؟ أجمل ما في هذا الزمان، إن الكذب فيه سهل البيان، على خلاف زماني الذي أتيت منه، وكأنه كلما يتقدم الإنسان، يتقدم معه الكذب ليصبح هو الآخر أكثر تعقيداً، وأصعب كشفاً..... سأشتاق لهذا الزمان الذي نحن فيه الآن، فعلى الرغم من كل مآسيه، إلّا أنه أكثر وضوحاً ممّا سيعقبه غداً."
- "لماذا لا تبقى معنا هنا إذن؟!" بادرت على الفور بسؤال لا يخلو من الشغف، ثم سرعان ما شعرت بالخجل، فحاولت الاستدراك.....
- "أقصد..... أنت في هذا الزمان بعيد عن قرينك الذي لم يجلب لك سوى السوء. أليس من الأفضل أن تبقى بعيداً عنه؟"
- "بيني وبينه ثأر عظيم لا يمكن تجاهله."
- "ولكن، ألا تخشى أن ينجح فيما فشل فيه أكثر من مرة؟..... القضاء عليك!"

لم تحاول نوران هذه المرة إخفاء قلقها، وكأنها فجأة قرّرت أن تفصح لمراد عمّا يجول في خلجات نفسها، ما استوقفه بعض الشيء.

- "ما من شيء سيكون إلّا وقد كان." بعد لحظات من التأمل والصمت، لم يجد غير هذه الجملة التي صحبته في أكثر من منعطف، لكي يجيب بها عليها، وإن كان في كامن أعماقه يدرك جيداً أن الإجابة كاملة عن سؤالها قد تكون أعقد بكثير!

52

أُغلِقت الحوانيت، واصطف الرجال والصبيان على جانبي الطريق، على خلاف النساء اللواتي هُرِعن للاحتجاب وراء أسوار منازلهن..... فموكب الأمير فارس الدين أقطاي، القادم من جزيرة الروضة، على وشك أن يمّر متجهاً إلى قلعة الجبل، حيث اتخذ الملك المعز عز الدين أيبك التركماني لنفسه منه مسكناً..... دقت الطبول، ونُفخ في المزامير لينتبه القاصي والداني بقرب مرور سلطان مصر غير المتوج أقطاي، أمير المماليك البحرية الأشاوس، وبطل معركة المنصورة..... فإن كان أيبك قد تسلق على عرش مصر عبر الزواج من أرملة سلطان مصر السابق، فأقطاي ليس في حاجة للنساء لكي يصل إلى مبتغاه! فها هي عاصمة مصر بأكملها تقف له على قدم وساق، وكأنها تذعن له فتعلن الولاء والطاعة صاغرة وعلى الرغم من أنف سلطانها الجديد، زوج شجرة الدر!

* * *

– "يتحداني ذلك الأخرق! يمتحن قوتي أمام العوام!"

ظل أيبك يدور حول عرشه، دون الرغبة في الجلوس عليه من فرط الغضب، وكأنه يشعر بالعجز لما كان يلاقيه من خصمه اللدود، دون أن يكون بمقدوره فعل أي شيء من أجل عقابه؛ وكأن مصر أصبح لها ثلاثة سلاطين، هو وأقطاي وشجرة الدر......

– "لا يمكن السكوت على هذا الحال يا بلبان؛ لقد فاض بي الكيل!

أما يكفيني ما ألاقيه من تدخلات شجرة الدر المستمرة في شؤون الحكـم، حتـى يخـرج عليّ ابن اللعينة هـذا، فيفرض الجباية على الرعايا، ويوزع الإقطاعات على من يشاء من قواده المماليك..... لا يا بلبان، لا! سلطان واحد يكفي لهذه البلاد!"

- "ولّـه يـا مـولاي علـى الإسـكندرية، أو إحدى مـدن صعيد مصر، فتبعده بذلك عن القاهرة." جاء رد بلبان على معضلة سلطانه.
- "إن فعلت، فسيقال إني كافأت تمرده، وبذلك سيستقوي عليّ من هم أقل شـأناً منه.... كما إن عدواً قريباً أفضل من عدو بعيد لا تعلم ماذا يدبر من وراء ظهرك. لا يا بلبان، ما حسبت مثلك من يقترح هذا الاقتراح! يبدو وكأن الوزارة قد أضعفت ملكاتك." قال أيبك دون أي يخفي استياءه.
- "الرأي رأي مولاي السـلطان، وما نحن إلّا خُدّامه." أجاب بلبان شاعراً بالحرج لما قاله ولم يعجب الملك المعز.
- "القوة لا تجابه إلّا بقوة أشد منها، والمُتَعالي لن يرضخ إلّا لمن يتعالـى عليـه! لا بـد من إرسـال رسـالة لجميـع المماليك، ولكل من تساوره نفسه من الأيوبيين في الشام والعراق. إن لم أفعل يا بلبان، فَسَيَسْتقوي عليّ الضعيف منهم قبل القوي، ولن تكون لي مهابـة بيـن العـوام والخواص! هناك حل واحد، ولا أرى لي حلاً سواه..... التخلص من أقطاي!"

شَخصت عينا بلبان، وقد سَمِع ما لم يظن قط أنّ أحداً قادر على النطق به، وإن كان ذلك الأحد هو سلطان مصر وملكها المُعِز! فارس الدين أقطاي يُقتل؟! "ومن ذاك المخبول الذي دعت عليه أمه فيتجرأ على فعلها؟!" بل إن مجرد التفكير في هذا الأمر لهو عين الجنون!

- "مـولاي..... لعلـه مـن الحكمـة أن..... اعذرني يـا مولاي على

ما سـوف أقوله..... ولكن لعله من الحكمة أن نتريث قليلاً قبل اتخاذ أي قرار قد نندم عليه لاحقاً."

التفت أيبك إلى وزيره، وحسـرة قد أخذت تعتلي ملامح وجهه العابس.....

- "حتّـى أنـت يا بلبان أصبحـت تهابه أكثر كما تهابني، بل وجعلت منه نداً لي؟!"
- "العفو يا مولاي......" ما كاد الوزير يبدأ حتى قاطعه الملك....
- "لكل زمان رجاله يا بلبان، لكل زمان رجاله، وقد آن أوان من لا يخشى أقطاي وأمثاله."
- "قطز؟!" فهم الوزير على الفور من كان يقصد الملك، فأشفق على المسكين الذي سيلقى حتفه عمّا قريب!
- "ومن غيره ادّخرناه لهذا اليوم؟ لو أن فارساً بمقدوره التغلب على أقطاي، فلن يكون سواه!"
- "مـولاي الملـك المُعِز..... إن افترضنا أن معجزة جرت، فمكّنت قطز من أقطاي، فماذا عن مماليكه البحرية الذين يشكلون نصف فرسان مصر؟!"
- "اضـرب الـرأس يـا بلبـان، يخر لك الجسـد..... مهمـا كان ولاء المماليك لأميرهم كبيراً، فولاؤهم للقوة أكبر!"

53

هذا جبل وذاك جبل، وشتان ما بين الجبلين..... من أعلى ذاك اتخذ صلاح الدين وآله، ومن جاء من بعدهم، قلعة تحصنوا بها؛ ومن سفح هذا اتخذ بعض أولياء الله قبوراً أوَت أجسادهم البالية، فاتخذ قطز لنفسه بجوارهم مسكناً، وإن أصبح أميراً للمماليك من بعد أن أصبح أميره سلطاناً للبلاد. هل سئم حياة القصور أم هي التي سئمت منه بعد أن لفظته منذ سنين طوال؟ كل الذين من حوله احتاروا في أمر ذلك المملوك الخوارزمي الذي جاءهم على كبر، فساد عليهم، دون أن يتجبر أو يتكبر..... ولكن يبقى الدخيل دخيلاً مهما بلغ من شأن، ولعلّ هذا ما جعل قطز يشعر بالقرب من الأموات أكثر من الأحياء، فآثر إلّا أن يكون بجوارهم.

* * *

غربت الشمس مع عودته إلى منزله المتواضع الذي طالما سمع أنه لا يليق بفارس مثله. لأول مرة يلتفت خلفه قبل أن يلج إلى الداخل، وكأنه تنبه إلى شخص يتتبعه من بعيد..... إن كان صديقاً، فباب بيته لا يغلق أمام الأصدقاء؛ وإن كان عدواً، فمن ذا الذي جار عليه الزمان ليجعل منه خصماً لشخص مثله؟!

لاح في الأفق طيف رجل معمم توقف عن سيره، عندما التفت قطز إليه. لم يأبه له المملوك الخوارزمي كثيراً، فليكن من يكون، إنه لا يهاب أحداً غير الله، فليست هذه أول مرة يتربص له فيها أحد.....

دخل منزله وترك الباب من خلفه مواربًا دون أن يصفده، وما كاد يخطو بضع خطوات إلى الداخل حتى انتابه شعور غريب، لم يشعر به منذ زمن بعيد، وكأن ماضيًا كان قد تركه من خلفه، وإن لم ينسَه، فقد عاد من جديد..... التفت من حوله، فكل شيء كان كما هو؛ الأريكة الخشبية، والمنضدة النحاسية، والوسادة التي حاكتها له الطفلة عائشة بمساعدة أمها عاتكة، فاحتفظ بها لذكرى أيام خلت بحلوها ومرها في دمشق..... ولكن...... إن كان الزمان هو الزمان، والمكان هو المكان، إلّا أن الشعور به قد اختلف، وما هي إلّا لحظات حتى بدا له السبب، عندما أبصر أمام عينيه، في الزاوية الشرقية من حجرة داره، ملامح فتاة من ماضيه البعيد، ظلّت محفورة في ذاكرته رغم تباعد السنين. فتاة عجيبة لم يخلق الله لها من مثيل، كانت في يوم من الأيام زوجته التي أحبها بعد فوات الأوان، تعلم منها معنى الحياة!

- "ياسمي؟!" نطق قُطُز باسمها، غير مصدق ما كان يجري، ولكن سرعان ما تبين له حقيقة رؤياه.
- "أبي....."

أقبلت نوران نحو أبيها، ودون أن تنطق بكلمة أخرى احتضنته. لم يكن قُطُز في حاجة لكي يسمع منها أي شرح للأمر، ففي هذه اللحظة العجيبة أدرك سر الأمر..... ليست هي ياسمي، ولكنها ابنته التي شعر بوجودها حتى من قبل أن يراها؛ بل شعر بها قبل أن تأتي إلى الحياة!

* * *

- "صدقت أم الوفا عندما قالت إنك ستجد الطريق." تحدث عبدالرحمن مخاطبًا مراد الذي ظهر من خلفه عند التلة المُطِلة على دار قُطُز. لم يستدر الشيخ ذو العمامة الخضراء، بل ظل

في وضعه وكأنه يراقب من بعيد، مخترقاً ببصره الجدران، ما كان يحدث بين محمود بن ممدود وابنته نوران.

- "وهل حسبت خلاف ذلك؟" ردّ عليه مراد مقترباً منه.
- "أنت الشخص الوحيد الذي عرفته ولم أراهن عليه أو ضده. تركتك لنفسك لكي تحدد مصيرك، وقد فعلت."
- "أنا لست بذلك الشخص الذي عرفته عند أترار، ولست بالذي جاءك طالباً للعلم في تونس، فأخذ ما أخذه، قبل أن يتخلص منك في منزله بالرياض."
- "كنت أعلم ذلك، ولكنّي لم أكن واثقاً بأنك تعلمه."

ضحك مراد، متذكراً جملة عبدالرحمن التي كرّرها له مراراً.....

- "علم في غير موضعه قد يقود إلى المزيد من الجهل...... لقد استغرق الأمر بعض الوقت، ولكنّي في نهاية المطاف قد علمت، فعرفت، فأبصرت الحقيقة."
- "وماذا تَبَيّن لك؟"
- "لعلّي أريك إن أذنت لي."

ما كاد مراد يفرغ من جملته حتى أمسك بعبدالرحمن، ليتغير المشهد من حولهما، وكأنهما عبَرا الزمان والمكان إلى سويعات مضت، عند مدخل قصر السلطان بقلعة الجبل......

* * *

أُغلِقت بوابة القصر، لتحجب فارس الدين أقطاي عن بيبرس البندقداري وباقي رجاله الذين اصطحبوه..... ومن أصوات خوار السهام المنطلقة من أقواسها، وخضعة السيوف المتلاقية بعدما سُلّت من أغمادها، أدرك أمير المماليك البحرية سر ما حدث، فابتسم..... خاصة عندما رأى قُطُز قادماً نحوه بمفرده، شاهراً سيفه.

- "إذن أنـت المملـوك التعس الـذي أوكلت له مهمة محاولة قتلي؟ لم يقوَ أبيك الجبان على أن يفعلها بنفسه." سل أقطاي سيفه هو الآخر ثم أقدم نحو غريمه.......
- "كان أجدر بك أن تحاول طعني خلسة من الخلف، فلا قبل لك بمبارزتي أيها المسكين!"
- "لسـتُ بالجبـان أو الخـوّان، لكـي ألجـأ إلـى طعنـة الغـدر مـع الخصوم." ردّ عليه قطز دون مواربة، ثم من غير أدنى تردد، وبكل عزم وتصميم وإقدام، كآلة صُنعت من أجل هدف لا مناص منه، انهال بالسيف على أقطاي لتبدأ المبارزة بين النِدَّين....

حَسِـب أمير المماليك البحرية أن الأمر لن يطول، فمهما كانت قوة المملوك الخوارزمي ومهارته في حمل السلاح، إلّا أنه في نهاية المطاف ليس على قدم سـواء مع فارس الدين أقطاي الذي لـم يهزم قط في حياته!..... ولكن...... بعد صد ورد ومناطحة النصال، طالت المبـارزة، علـى خـلاف ما كان يتوقع أقطاي..... مهارة قطز قد فاقت توقعاته، بل قد يكون حتى أفضل من أفضل فرسانه، بيبرس!

- "أيـن تعلمـت القتـال؟ حتماً ليـس من أبيك." قال أقطاي سـاخراً فـي أثنـاء صـده لإحـدى ضربـات خصمـه، بعد أن أرجعتـه قليلاً للوراء.....
- "كان أجدر بك أن تكون ضمن مماليكي، فمثلك خسارة أن يخدم ذلك الجبان! قَتْلك سَيُحْزنني، لقد جنى عليك سلطانك المزعوم."

أخذ أقطاي يلوح بسيفه، حتى كاد يلامس نَصلُه رقبةَ قُطُز، ولكن الأخيـر اسـتطاع أن يتفـادى النحـر عبر ثني ظهره إلـى الوراء دون أن يقع، قبل أن يقفز جانباً ليبتعد عن أقطاي.

- "لو أنك تجيد القتال كما تجيد المراوغة لربما وصل سيفك إليّ."

مرة أخرى أضاف مستهزئاً، ثم انهال عليه.

لم يحاول قطز أن يجاري أقطاي في الحديث، مكتفياً فقط بمبارزته دون كلل حتى لاحظ الإعياء وقد بدأ يتمكن من أمير المماليك. حديثه المستمر لعلّه أسهم في الأمر..... إن كان هناك شيء قد تعلمه من المغول الّذين أسروه في صباه، وقاتل بجوارهم في وقت من الأوقات، فهو أنه عند منازعة الخصم، ألّا يهدر أي مقدارٍ من الطاقة فيما لا يؤدي الغرض المرجو منه؛ فلعلّ قطرة عرق واحدة قد تكون هي الحد الفاصل بين الهزيمة والنصر!

لاح أقطاي بسيفه مرة أخرى نحو قطز وقد شعر بالسأم من هذه المعركة التي لا تريد أن تنتهي، وفي لحظة من لحظات سهو غير مقصود، جعلته يُبطئ من متابعة سيفه، وجد نصل سيف قُطُز مبتغاه عند معصم الخصم، ليسقط من يده السلاح! بات أقطاي بلا سيف، وبلا قدرة على حمله......

اقترب قُطُز من أقطاي، وقد كان كل شيء على وشك الانتهاء، ثم فجأة ومن دون سبب معلوم، قام بفعل أدهش أمير المماليك البحرية، إذ ألقى هو الآخر بسيفه، مكتفياً فقط بالوقوف أمامه، وكأنه يمنحه فرصة أخيرة لكي يحاول فعل أي شيء!

سل أقطاي خنجراً عند خصره بيده اليسرى وقد شعر بمهانة الموقف الذي وُضِعَ فيه من قِبَل خصمه "اللعين".... محاولة يائسة لم تخفَ عليه، ولكن أبى كبرياؤه إلّا أن يقوم بها..... ولكن...... كان الأمر قد انتهى، عندما شعر بالخنجر نفسه يخترق أحشاءه...... لقد هلك لا محالة، بعد أن تمكن منه ذلك "الخوارزمي"، دون أن يعلم كيف؟! نهاية ما كان يحسبها....... ما كان يرجوها!

- "أتظن أنك انتصرت أيها المسكين؟!..... بل قد قضيت على

نفسك دون أن تدري!" جاهد أقطاي في إخراج الكلمات من بين شفتين ترتجفان، قبل أن يتهاوى جسده الصريع على الأرض. حينها فقط قرّر قُطُز الحديث، مكتفياً بجملة واحدة فقط......

- "كل نفس ذائقة الموت."

* * *

وكَذِكْرى خَلَت بين أطياف الزمان والمكان، عاد المشهد إلى ما كان عليه بين عبدالرحمن ومراد، عند سفح جبل المقطم.....

- "تلك هي اللحظة الفاصلة التي اختار فيها محمود بن ممدود أن يصبح قُطُز." قال مراد مؤكداً لعبدالرحمن الذي آثر الصمت والاستماع إلى ما كان يقوله رفيقه السابق بعدما زالت عنه تلك الحيرة التي عرفه بها عند مشارف أترار......

- "حتى وإن رسمتَ له الطريق في بادئ الأمر، كان بإمكانه النزوح عنه، ولكنّه أصر على المُضيّ فيه، وكأنّه كان يعلم إلى أين يسير...... نعم، لا يوجد شر مطلق ولا خير مطلق، بل إنسان بين هذا وذاك، يتأرجح بين الاثنين كما يتأرجح البندول دون مستقر، حتى تتوقف عقارب الساعة وهو على حال دون غيره؛ وقد صدق من قال: قليلٌ من الشر قد يُغني عن كثيرٍ منه!"

ابتسم عبدالرحمن لما قاله مراد، ثم نظر إليه بتَمَعّن كبير، قبل أن ينطق......

- "أين تكمن لذة الحياة، إن لم يُدهَش المرء بين الفينة والأخرى؟!...... ما أجمل رؤية المنتهى!"

ما إن فرغ من جملته، حتى زال من أمام مراد، وزال مراد من أمام منزل محمود بن ممدود الذي أصبح قُطُز.

54

أدركت فيرجينيا أنها هالكة لا محالة..... إن غفر لها خيانتها قبل ذلك، فلن يغفر لها هذه المرّة! ولكن لا بأس، فلتكن نهايتها هنا في الرياض، فوق برج غانم الساعدي الذي أرادت أن تلقيه من عليه. لو عادت بها الأيام إلى الوراء، لما كان بوسعها أن تفعل غير ما فعلته، فمثله لا ينبغي له أن يعيش. لقد أفنى عالمَاً، ولن يتوانى عن إفناء ألف عالَمٍ في سبيل بلوغ مبتغاه! لقد أسكرته المعرفة، وأعمته القدرة، وسلبت عقله الاستطاعة، حتى أصبحت رغباته بلا حدود! مراد قُطُز يجب أن ينتهي، بل يجب أن يزول من الوجود!

- "خيراً فعلت عندما أبقيتُ على حياتك يا فيرجينيا، فعلى الرغم من خياناتك المتكررة لي. كان لدي شعور بأن ذلك سيعود عليَّ بالنفع، وها قد أثبتَّ لي حسن قراري."

أخذ مراد يدور حولها كقطة تداعب فأراً قبل أن تنهال عليه. لم تخفَ عليه نظرة الاندهاش الّتي بدت عليها من حديثه، وكأنها لم تفهم قصده؛ فهي لم تفعل شيئاً من أجله، بل حاولت إلقاءه من فوق ناطحة السحاب لكي تتخلص منه..... أو هكذا حَسِبَت.

- "بل فعلتِ الكثير." قاطع مراد سيل أفكارها، مدركاً ما كان يدور بخاطرها.....
- "يكفي أنك ألقيت بذلك الطُفيل الذي احتل جسدي من دون وجه حق، من فوق هذه البناية الشاهقة، فجعلتِه ينفصل جزئياً، وأتممتُ

أنا الباقي في خيمة جدك تبتنكر الكاهن بعدما قتلته جدتي ياسمي. يبدو وكأن العداء بيننا يمتد عبر التاريخ، وإن طغت علينا المصالح في الآونة الأخيرة."

- "لقد فعلتها إذن، كما ظننت..... تمكنت من عبور العوالم بعدما قضيت على إحداها؟!"
- "هو ذاك، وإن حدثت بعض العواقب التي لم أتوقعها، ولكن بفضل حسن صنيعك الذي جاء منك سهواً ومن دون قصد، فقد تجاوزت الأمر."

أطلق مراد ضحكة لم يضحك مثلها من قبل، مدركاً أنه لو كانت فيرجينيا على دراية بما كان سيحدثه من عواقب إلقاء جسده الذي احتله قرينه، لما فعلت.

- "وماذا الآن؟" تساءلت بتردد ملحوظ، وكأنها تخشى عاقبة الجواب.
- "بالنسبة لك لا شيء، فلا أظنني سأكون في حاجة إليك بعد الآن."

ما إن فرغ مراد من جملته حتى أمسك بفيرجينيا، وبحركة خاطفة تخلو من أي عناء، ألقى بها من على ناطحة السحاب. اقترب نحو حافة السطح، لينظر إلى جسدها المتواهي حتى ارتطم بالرصيف. نظر من حوله فوق سطح المبنى ليتأكد من خلوّه من فيرجينيا، ثم أعاد بصره نحو البقعة الصغيرة التي بدت له عند سفح برج الساعدي، حيث ارتطم الجسد الهالك لحفيدة الكاهن تبتنكر.... ثم قال ساخراً:

- "يبدو وكأنك لم تتعلمي كيف تنفصلين عن جسدك قُبَيل لحظة الموت حتى تعودي من جديد..... هذا من حسن حظّي!"

55

فوجـئ العالـم بخبـر وفـاة العالمـة الأمريكيـة وسـيدة الأعمـال فيرجينيـا تَبْـت..... حادث سـير مُـرَوِّع أوْدى بحياتها وحيـاة مرافقيها بالرياض..... هكذا أذاعت وكالات الأنباء العالمية الخبر، وإن كانت الحقيقـة خـلاف ذلـك، فسـقوط مواطنة أمريكية ذات شـأن عظيم من على ناطحة سـحاب أغنى رجل في العالم بالعاصمة السـعودية، أمر لـم يكـن غانـم السـاعدي على اسـتعداد أن يخوض فيـه مع أي جهة كانت. حادث سير كان أهون عند الجميع من شرح الظروف الغامضة التي جعلت فيرجينيا وحرّاسها يذهبون إلى سطح برج الساعدي، وما صاحبه من انقطاع أجهزة التصوير التابعة للمبنى في تلك الفترة!

- "كان معهـم شـخص آخـر، جَرّوه إلى الأعلـى." أخبر حامد الزايد غانـم السـاعدي بعدمـا اسـتدعاه مـن دبي للإشـراف بنفسـه على التحقيـق الداخلـي الـذي أمـر بـه. تعجـب الشـيخ الملياردير ممّا توصـل إليـه مسـاعده الخاص..... فما الذي جعـل فيرجينيا تترك الحفل الكبير لتذهب إلى ناطحة السحاب، مصطحبة هي ورجالها رجلاً فاقداً للوعي، فتأخذه إلى سطح البناية؟!
- "مـن الواضـح أنهـا لم ترغب في أن يكتشـف أمرها أي شـخص؛ لذلك قامت باختراق جميع أجهزة الرصد في المبنى، وأغلقتها." أضاف حامد، ممّا زاد من دهشة مخدومه.
- "ولكن إن كانت جميع الكاميرات مغلقة، فكيف عرفت أمر ذلك

الرجل الآخر الذي أخذته إلى الأعلى؟!"

- "لمَحَهـم عامـل نظافـة مـن بعيد، كان متواجداً فـي المرآب عندما حضروا." وكأنه أدرك ما لاح على خاطر الشيخ غانم، فأضاف:
- "لقـد تـم التعامـل مـع العامـل علـى الفـور، وترحيلـه إلـى بلـده بنغلاديش. لا يوجد أي خوف من أن يتكلم."
- "حسـناً فعلـت يـا حامـد، ولكـن هل نعلم من هو ذلك الشـخص الذي كان معهم؟ ولماذا اصطحبوه إلى الأعلى فاقداً للوعي؟!"

تردد حامد الزايد قليلاً قبل أن يجيب عن السؤالين بالنفي، وإن كان فـي قـرارة نفسـه قـد شـك في أمـر الرجل، خاصـة بعدما وصف العامل له بعضاً من ملامحه البُخارية.

56

- "أهذا حقاً أنت؟!" احتضنته سارة، غير مصدقة أنّه قد عاد إليها من جديد، بعدما ظنت أنها فقدته إلى الأبد بسبب ذلك الآخر الذي احتل جسده. لقد أدركت حقيقة ما جرى له عندما لاحظت صَدَّه لها في الحفل، والتغير العجيب الذي طرأ على شخصه.... لم يكن ذلك الشخص هو مراد قُطُز الذي تعشقه، وتعرفه أكثر مما تعرف نفسها.......
- "عندما أخبرني حامد بحقيقة ما جرى، أدركتُ على الفور أنك قد عدت..... ولكن كيف حدث كل هذا؟!"

أمسكت بيده، ثم سحبته إلى داخل القصر، إلى الغرفة نفسها الّتي أخذته إليها قبل أيام، عندما تعب في الحفل، ثم تركته فيها بعدما شكّت في أمره، وذهبت لكي تخبر فيرجينيا.

- "ذلك أمر يطول شرحه، ولكن كل ما عليكِ إدراكه الآن هو أنّي قد حققت كل ما أصبو إليه! خلاص يا سارة، خلاص! العالم الآن قد أصبح بين يدَيّ، بل أنا مَلِكه غير المُتَوج بعد، وعمّا قريب ستكونين أنت الملكة بجواري! لا شيء سيقف في طريقي بعد اليوم، وها قد أتيت لكي آخذك من هذا القصر الوضيع!"
- "مراد!..... ما هذا الذي تقوله؟! فهِّمني أرجوك!" شعرت سارة عندما سمعت ما قاله عشيقها، بمزيج غريب بين السعادة والقلق.... لوهلة خافت أن يكون كل هذا الذي تراه وتسمعه

ليس إلّا مجرد حلم يقظة.

- "كل هـذا الـذي ترينـه من حولك سـوف يتبـدل..... العالم الذي تعرفينه سوف يزول، ليحل من بعده عالم آخر، أنا من يحدّد لونه وطعمه، بل ماهيّته! لقد آن الأوان يا سارة، وما على الجرابيع إلّا أن تدخل جحورها إن أرادت لنفسها النجاة!"

57

انقلب العالم على أعقابه، وارتجت الأرض من تحت أقدام الخواص قبل العوام! فما حدث كان أمراً يفوق كل وصف، بل لم يسمع به أحد من قبل منذ أن بدأت البشرية في تدوين تاريخها! ما حدث كان مراد قُطُز!

دوَلٌ انهارت، ودوَلٌ قامت. شعوب ثارت، وأخرى رضخت لهذا الكائن المُخَلّص الذي جاء لكي يقود البشرية إلى عهد جديد لم تشهد له مثيلاً من قبل...... لقد رأوا بأم أعينهم ما هو قادر على فعله. رأوا رحمته العظيمة مع تابعيه، وبطشه الأعظم مع مخالفيه! البعض قال إنه المسيخ الدجال الذي جاء بالجنة والنار، والبعض الآخر قال بل هو المهدي المنتظر الذي بُشِّر بقدومه؛ ومن لم يؤمن بالمقولة الأولى أو الثانية وجد لنفسه مقولة ثالثة، تفسر له ذلك الذي يحدث وليس له تفسيرا!

- "دين جديد وهو نَبيّه....."
- "عهد جديد وهو رسوله....."
- "بل إلَه هذه الكون، وقد حضر لكي يدير الأرض بذاته العَلية، بعد أن أفسدها الناس!"

وكأي منظومة جديدة ليس لها سوابق، وُجد من يُحلّلها ويُنَظِّر لها، فيضع لها الضوابط والأحوال..... وكأي ضوابط جديدة تطرأ، وُجد لها خُدّامها من الكهنة..... وكأي كهنوت ينشأ، وُجد له النظام

الذي يحميه في مقابل أن يستمد منه شرعية تُبقيه!

وعلى رأس كل هؤلاء كان مراد قُطُز، ملك ملوك الأرض..... الآمر الناهي على كل إنسان..... بل صاحب الزمان والمكان!

ولكن.....

بعد مضي أشهر على ما بات يعرف بالظهور الأعظم..... حدث ما لم يكن في الحسبان. حدث الوميض العظيم، الذي رآه كل شخص على وجه المعمورة دون أن يعلم ماهِيَّته..... ذلك الوميض الذي أعاد كل شيء إلى ما كان عليه؛ إلى سابق عهده، وكأنه لم يكن!

* * *

احتار المؤرخون بعد سنوات طوال، فيما بات يعرف بالوميض العظيم؛ وفي وصف ما طرأ على البشرية من أحداث بدت أقرب إلى الأساطير منها إلى الواقع، حتى ظنّ الكثيرون منهم أنها في حقيقة الأمر لم تكن ولم تقع، وما هي إلّا أحداث موهومة من نسج الخيال؛ وهناك من قال بأن لعلّها كانت حالة عجيبة من الهيستيرية الجماعية طرأت على عقول العوام لما كان يعانيه العالَم من الحروب والأمراض وسوء الأوضاع في شتى مجالات الحياة؛ وفي خضم كل هذه الآراء المتعددة، كان هناك شخص ما، مجهول الهوية، عُرف بعزفه الماهر على آلة العود، وبصوته الشجي الذي يأسر القلوب؛ ظلّ ينشد عن أحداث بدت أقرب للأساطير، عن مراد قُطُز وقرينه مراد وغيرهما من الشخوص التي عاشت عبر القرون، وعن عالم عجيب لا يعلم بوجوده إلّا القليل من الناس. أنشد سابح العوّاد واصفاً بداية الأسطورة، كما أنشد واصفاً نهايتها، مُذَكِّراً كل من سمعه بذلك الوميض العظيم..... الكثيرون كذّبوه، ورموه بأبشع الأوصاف.....ولكن...... ظلّت قلة

قليلة تصدق كل ما قال.

* * *

- "لا أستطيع البقاء على هذا النحو يا مراد! لا أستطيع! أصبحت أشبه بتمثال في متحف عتيق، لا يتجرأ أحد على المساس به! هذه ليست هي الحياة الّتي ابتغيتها لنفسي!" انفجرت سارة القويت بعدما فاض بها الكيل..... أقل من سنة مرّت منذ أن اقتلعها مراد من زوجها السابق بعدما أفناه من الوجود، ثم وضعها في أكبر قصر شهدته البشرية، دون السماح لها بالخروج منه. وفّر لها كل ما يمكن أن تحتاج إليه أو تشتهيه أي امرأة تمتلك ثروة لا طائل لها؛ ولكن كعصفور حبيس في قفصٍ ذهبي، يتوق دائماً لسعة الحياة، كل هذا الترف، وكل هذا البذخ، وكل هذا الثراء لم يكن كافياً لها، حتى إنها شعرت بالاشتياق لسابق حالها مع زوجها الذي كان!
- "أليست حياتك الجديدة هذه أفضل من تلك التي كنت تعيشينها مع غانم؟! مجرد دمية جميلة اقتناها، يُهديها لكل من يحب، من أجل مصلحته!!" صرخ مراد في وجهها دون حذر.
- "ولكنّي كنت حرة نفسي!!" ردّت عليه بصراخ أعلى من صراخه.
- "بل كنتِ ساقطة!!!"

صفعته سارة على وجهه؛ وكأن إهانتها له هذه لم تشفِ لها غليلاً، فأضاقت إليها بصقة على الوجه.....

- "أكرهك! ليتني لم ألقَك، ولم أتعرف عليك!! بل ليت الأيام تعود إلى الوراء، حتى أكون مع غانم من جديد، عِوَضاً عن هذه الحياة الكئيبة معك!!"

لم يتحمل مراد المزيد؛ كان قد وصل إلى ذروة صبره معها! هذه

الحشـرة الّتـي أعلـى من شـأنها، تتحسـر على أيامها مـع ذلك الكلب الوضيـع الـذي كان؟! وبعـد كل الذي فعله من أجلها؟!! لوهلة حاول أن يفنيهـا مـن على وجه البسـيطة...... أن يفعـل أفاعيله الّتي جعلت منه سيداً لهذا العالم، ولكنه لم يستطع، وكأن قُواه قد خارت..... لا بـأس، فليفعلهـا كمـا يفعلهـا العوام! وجد نفسـه دون أدنى تردد يُطبق على عنقها بكفيه، ناظراً إلى عينيها الشـاخصتين، وذلك البريق الذي أغواه في يوم ما، لينتزعه منهما إلى أبد الآبدين..... لم يكن في حاجة لأي قدرة خارقة لكي يحطم هذا العنق الدقيق، وما هي إلّا لحظات حتى توقفت عن منازعته من أجل الحياة، ليتحول صراعها العنيد إلى سكون دائم...... ثم حدثت الومضة الأولى!

وجد مراد جسـده وقد اندفع نحو حائط القاعة الفسـيحة المطلة على الوادي الأخضر. لوهلة ظنّ أن سـارة لـم تمت، وأنّها بطريقة ما هي الّتي أحدثت هذا الأمر العجيب، ولكنّ جثتها الهامدة في الجانب الآخر من القاعة بيّنت له خلاف ذلك..... أخذ يتلفت من حوله، لكي يفهم ما الذي كان يجري، فشاهد ما لم يكن يظنه من الممكنات.... شاهد مراد الآخر قائماً مستقيماً، يشعّ بالنور!

- "أنت؟! مستحيل!!" قال مراد مخاطباً مراد الآخر المُتجسد أمامه. لوهلـة خشـي أن يكـون قـد سـرق منـه جسـده من جديـد، فأخذ يتحسس نفسه..... ولكن جسده كان كما هو، دون تغيير.
- "المسـتحيل كلمـة ليـس لها عنوان..... يبـدو وكأنك ما زلت في حاجة للمزيد من التعلم."

حـاول مـراد أن يقـوم مـن موضعه ويحـدث الأهاويل في قرينه، ليتغلـب عليـه كمـا فعل مرات من قبل، ولكنه لـم يسـتطع..... صارع عجزه، فحاول المرة تلو الأخرى، ومع كل مرة يفشل فيها يزداد كم

غضبه، حتى شعر وكأن مقدار غضبه قد يصلح لينفجر بركاناً، فيأخذ معه كل ما حوله..... ولكن..... لا شيء حدث.

- "ألم أقل لك إنك ما زلت في حاجة للمزيد من التعلم..... الغضب يا قريني، فالسر يكمن فيه..... الاستطاعة لا تستقيم مع الغضب، هل نسيت؟ أم أن غرورك جعلك تعتقد أنك قادر على كل شيء، بما فيه كسر النواميس الّتي بني عليها هذا الكون؟"
- "تباً لك! فأنا الأقدر وليس أنت!" حاول مرة أخرى بكل ما أوتي من قوة ومقدرة أن يقوم، ولكن دون جدوى.
- "بل أنا الأقدر يا قريني لأنّي الأصل وأنت الصورة..... فأنا صاحب المقام."

بُهت مراد لما سمع، وأدرك على الفور القصد من الحديث.... أخذ يسترجع كل ما حدث معه ومع قرينه النقيض. لم يقضِ عليه في خيمة تبتنكر، بل وضعه على طريق المنتهى!

- "أتحسب بأنك قد انتصرت عليّ؟! بل أنا الذي انتصرت، عندما أفنيت عالمك من الوجود! فلتقضِ عليّ إن أردت، ولكنّ هذا لن يعيد لك ما فقدت!!"

اقترب مراد من قرينه الملقى على الأرض، حتّى كاد يلمسه......

- "ومن قال لك بأني سأقضي عليك. ليت الأمر كان بهذا اليسر؛ فنحن وجهان لعملة واحدة.... من غير هذا لا يكون ذاك، ولكن..... قليلاً من الشر يا قريني..... قليلاً من الشر."

ما إن فرغ مراد من جملته الأخيرة، حتى حدث الوميض العظيم الذي شاهده جميع الخلق حينها، والذي غيَّر العالم من جديد، والذي مع مضي الزمان أصبح حيرة المؤرخين، حتى باتوا يعدّونه من أساطير الأولين.....

خاتمة

فرغت نوران من كتابة الأبيات التي أسَرَتْها منذ نعومة أظفارها، عندما سمعتها من أمها ذات يوم. أرادت أن تُزَيِّن بها جدار منزلها الصغير الذي اتخذته مع زوجها، عند مشارف أترار، بعيداً عن جنون عالم اتخذ من الموت سبيلاً للحياة؛ هنا في هذا المكان الذي حمل لأمها وأبيها، بل ولزوجها من بعدهما وقبلهما، ذكرى طريقٍ سُلِكَ بحلوه ومره.

- "أيها..... السائل.... أين منك السؤال؟" حاول ابنها الصغير أن يتهجى الكلمات التي كتبتها.
- "أحسنت يا قُطُز.... هيّا أكملها، وسأعطيك هذه الحلوى." شجّعته نوران، ولكنه سرعان ما سئم من المحاولة، خاصة عندما حدثت الومضة التي كان دائماً ينتظرها، فقرر أن يجري نحو أبيه الذي ظهر فجأة.
- "أبي.... أبي...."

رمى قُطُز بنفسه نحو مراد، فالتقطه على الفور، ورفعه نحو السماء سعيداً برؤيته. أقبلت نوران هي الأخرى لتحتضن زوجها الذي لم تَرَه منذ أيام، ثم كعادتها أخذت تداعبه.....

- "تحتضن جَدَّك الذي أنجبتَه يا مراد، بل وترميه في السماء؟!"

ابتسم مراد قُطُز لأحجية زوجته، مدركاً أنها ليست الأحجية الأولى في حياته، ولن تكون الأخيرة، ثم قال لها ما كان دوماً يقوله،

كلما داعبته بتلك العبارة......

- "ما من شيء سيكون إلّا وقد كان."